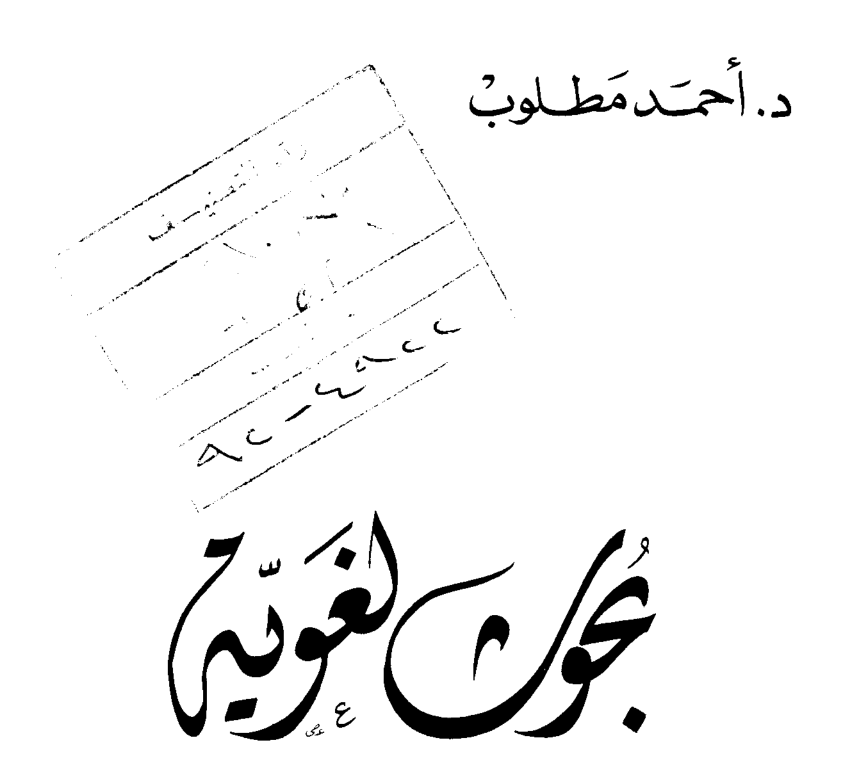

د. أحمد مطلوب
بحوث لغوية
دار الفكر
للنشر والتوزيع

بُحوث لغويّة



الطبعة الأولى ١٩٨٧



د. أحمد مطلوب

بحوث لغوية

دار الفكر
للنشر والتوزيع

عمّان - سوق البتراء (الحجيري)، ساحة الجامع الحسيني
هاتف: ٦٢١٩٣٨ - ص. ب: ١٨٣٥٢٠



بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدّمَة

اللغة روح الأمة ونسغها النابض، وهي عنوان تقدمها وازدهارها وركن وحدتها الركين. وقد شهدت اللغة العربية تطوراً عظيماً في مسيرتها التي بدأت قبل الإسلام بقرون ولا تزال ظافرة في طريقها الطويل. وقد توقفت يوم قلَّ عطاء العرب ولفّهم ظلام الجهل والاستعباد، وكادت تحتضر لولا كتاب الله الخالد وإيمان الرجال الصادقين. وكانت على الرغم مما مرّت به سبيل وحدتهم وأملهم في الحياة الحرة الكريمة حتى إذا طلع فجر القرن العشرين، وبدأت النهضة تشرق من جديد أخذت تزداد نضارة وتتألق عطاءً وتنبعث منهاجاً يجمع الملايين ويؤلف بين قلوبهم، فكان العربي في كل قطر يتجه إليها ويديرها على لسانه لغة فصيحة تتحدى الزمان وتأخذ بمجامع القلوب وتبعث العزة في النفوس، وتدفع إلى رأب الصدع وجمع الشمل. وكان المسلم في كل مكان يهفو إليها ويودّ لو تهيأت له الأسباب لينطق بها سليمة حينما يتلو سورة أو آية أو يقف في المحراب وهو يصلي خاشعاً.

ولم يُرض الحاقدين أن ترتفع اللغة العربية ويتخذها العرب من مقومات وحدتهم أو يجعلها المسلمون شرعةً ومنهاجاً لهم، فوقفوا في طريقها وأعلنوا الحرب عليها وكادوا لها، يسندهم جمع ممن يئسوا من إذلال الأمة وجرّها إلى مذبح الاستعمار الجديد. ووقف الأحرار يصدّون أشرس هجمة تعرّضت لها اللغة العربية ويدفعون عنها الأذى حتى تهيأ لهم النصر وأمنوا على لغتهم المعطاء بما قدموا من بحوث وقاموا به من جهود حطمت أحلام الحاقدين والطامعين.

وهذا الكتاب صفحة من سجل هذه اللغة الكريمة، وقد بدأ يبحث مناهج العربية في المدارس والجامعات ليكون معلمـاً من معالم الطريق، وجاء بعده بحث خصائص العربية ليكون شاهداً على عظمة هذه اللغة وطبيعتها المتميزة، وتلاه بحثا تنمية العربية وبنائية العربية. وهذه البحوث الأربعة تتجه نحو هدف واحد وتكشف عن أهمية اللغة العربية وقدرتها على النمو والتطور واستيعاب حاجات العصر ومتطلباته. وقد جاء البحث في لغة نازك الملائكة تأكيداً لذلك وتصويراً للنزعة الشعرية وما في اللغة العربية من قدرة على العطاء. أما العلم فهو لون آخر من ألوان العطاء، وقد تمثل في البحوث العلمية وتعريب العلوم، وهي بحوث تدل على ما بذل العرب قديماً وحديثاً من جهد في وضع المصطلح والتأليف بلغتهم التي كانت لغة الحياة منذ أن ظهرت ألفاظاً وجملاً في جزيرة العرب، ثم امتدت شرقاً وغرباً بعد أن شرّفها الله بكتابه العزيز.

إن اللغة العربية عزة العرب ومجدهم وركن وحدتهم الركين، ويوم ينهد الباحثون إلى دراستها يؤدون واجب البنوة ويحققون أسمى ما يسعى إليه المخلصون. ولعل في بحوث هذا الكتاب فائدة، فقد أريد بها أن تكون مخلصة لله وكتابه وللعرب ووحدتهم، وأن تكون سبيلاً إلى دراسات أكثر عمقاً وبحوث أعظم تأثيراً. والله يوفق من آمن به وأخلص لأمته ووطنه، ووقف يذود عن أرضه، وهو لا يعبأ بمن يأتمرون به، ولا يرهب جيشاً زاحفاً عتاده الحقد وعدّته التخريب. وما النصر إلّا من عند الله.

الخميس
٣٠ ربيع الأول ١٤٠٦ هـ
١٢ كانون الأول ١٩٨٥ م

الدكتور أحمد مطلوب
عميد كلية الآداب ـ جامعة بغداد
وعضو المجمع العلمي العراقي

١
مناهج العربية

اللغة العربية إحدى مقومات الوحدة الأساسية، وقد كانت منذ الجاهلية وسيلة من وسائل الانصهار التي بدأت قبل البعثة المحمدية واكتملت حينما نزل كتاب الله الخالد بلسان عربي مبين. وقد كان القرآن الكريم أهم حدث في وحدة العرب الكبرى ففيه دعوة إلى الأخوة الصادقة: ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وفيه دعوة إلى القضاء على التمزق الذي كان يلفّ العرب ويثير الفتن والاضطرابات، وفيه دعوة إلى اللغة الموحدة التي ظلت منذ ذلك العهد لغة الملايين من العرب والمسلمين في كل مكان ولا تزال تجمعهم على الخير كلما حزبهم أمر وألمت بهم مصيبة أو لوّح لهم تمزق أو حاق بهم خطر. وكادت العربية يصيبها ما أصاب اللغات الأخرى من انحراف لولا كتاب الله الذي دفع الناس إلى العناية باللغة العربية والتأليف فيها وتنقيتها مما كان يعلق بها من لغات الداخلين في الإسلام أو لغات الذين اتصل بهم العرب خارج جزيرتهم. وتزخر المكتبة العربية بآلاف الكتب التي تتصل باللغة وقواعدها ووسائل نموها وتطويرها وتنقيتها، وفي كثير من هذه الكتب مناهج واضحة وطرق لاحبة تعين الدارسين على البحث وترفدهم بكثير من القواعد والأصول. وكانت كتب اللغة والنحو الأولى أوسع أفقاً وأوفر مادة وأكثر نفعاً

(*) قدّم هذا البحث إلى ندوة «سلامة اللغة العربية» التي أقامها الاتحاد الوطني لطلبة العراق (المكتب التنفيذي) تحت شعار «وهذا لسان عربي مبين» وذلك في الشهر الخامس (٥ ـ ٧) من عام ١٩٧٩، وكنت أحد أعضاء اللجنة التحضيرية. ونشر البحث في مجلة الجامعة التي تصدرها جامعة الموصل (كانون الأول ١٩٨١).

من الكتب المتأخرة كما كانت كتب الأدب والشعر أرحب ميداناً وأصدق تعبيراً عن الحياة العربية واللغة التي أخذت تنمو وتتسع بفضل الكتّاب المنشئين والشعراء المبدعين.

بيد أن الحياة حينما تتعقد، والتعليم حينما يتعثر، والرعاية حينما تحتضر يميل الناس إلى التلخيص وينصرفون إلى ما يحقق هدفهم بأيسر السبل وأقل الجهد غير ملتفتين إلى قيمة ما يتعلمون وأهمية ما يدرسون وقد انصرف كثير من المؤلفين إلى خدمة هذا الغرض فوضعوا كتباً تعليمية في مختلف علوم اللغة، وكان النحو أول ما انصرفت إليه الهمم فكانت الكتب التعليمية التي تعنى بتقديم القواعد بعبارات موجزة وصفحات محدودة، وقد راعى كثير من المؤلفين الجانب التربوي في التأليف وتدرّجوا في كتابة مادة النحو تدرجاً يتفق وأعمار المتعلمين. ولعل ابن هشام الأنصاري المتوفى سنة ٧٦١ للهجرة خير من يمثل هذا الاتجاه في تدريس النحو حينما بدأ بكتابه «الجامع الصغير» ثم «قطر الندى» وشرحه ثم «شذور الذهب» وشرحه ثم «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» ثم «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب». وهذا الارتباط بين الحلقات ضرورة يقتضيها المنهج التربوي الذي كان العرب حريصين عليه منذ القديم وهو ما يسعى إلى تحقيقه مؤلفو الكتب المدرسية التي ترتبط حلقاتها بموضوعات واحدة تقدم لمراحل دراسية مختلفة. وقد نجح بعضهم وأخفق الآخر لأنه لم يُراعِ النمو العضوي والارتباط القائم بين مرحلة وأخرى وأخذ يشيع أنَّ النحو العرَبي صعب وطويل سلّمه، وأن اللغة العربية لا تصلح لعلم ولا تتسع لشؤون الحياة. وإذا أريد لكتب النحو أن تؤدي مهمتها في المراحل الدراسية الأولى فينبغي أن تراعى عدّة أمور:

١ ـ أن يؤلفها من آمن بالأمة العربية ورسالتها الخالدة ومن تعنيه العربية ومن ارتبط بها قلباً ولساناً.

٢ ـ أن يؤلفها من مارس التعليم سنوات طويلة وكانت صلته بالدراسات النحوية واللغوية قوية وكانت ميوله إلى هذه المادة عظيمة.

٣ ـ أن يكون عدد المؤلفين قليلاً والأفضل أن يكون واحداً أو اثنين وأن

يراجع الكتاب ضليع بهذا العلم ممارس لتدريسه مخلص في عمله وواجبه.

٤ ـ أن يراعى التطور الفكري للطلبة وأن تعرض المادة النحوية عرضاً يناسب الأعمار، وفيما فعله ابن هشام الأنصاري أسوة حسنة، وفي هذه المسألة يكون للتربية وعلم النفس وأصول التدريس دور كبير في التأليف.

٥ ـ أن تكون القواعد مرتبطة باللغة التي يستعملها الطلبة وتشيع في أجهزة الإعلام لتكون قريبة إلى مداركهم، أي ينبغي الاستغناء عن القواعد البعيدة عن الأذهان وواقع الطلبة اللغوي.

٦ ـ أن تكون الأمثلة والنصوص قريبة من مدارك الطلبة وممثلة لذوق العصر والظروف المختلفة التي يحيونها على أن يستعان بالنصوص الرفيعة وفي مقدمتها كتاب الله الخالد وكلام العرب البلغاء.

٧ ـ أن تجرد الكتب من الخلافات النحوية والجدل العقيم، وأن تحذف التعليلات التي لا تمثل طبيعة اللغة وتخدم أهدافها. ولنا في ثورة ابن مضاء القرطبي المتوفى سنة ٥٩٢ للهجرة أسوة حسنة فقد دعا إلى إلغاء العلل الثواني والثوالث وتحرير النحو مما علق به من مسائل لا تخدم الدرس النحوي ولا تحقق الأهداف.

ولعل في هذه الأمور ما ينفع مؤلفي الكتب أو المشرفين على المناهج، فقد كان الكلام على النحو في مقدمة الموضوعات المعروضة لأنه لا يزال يشغل المعنيين بالتربية والتعليم ويثير كثيراً من المشكلات بين الطلبة والمدرسين وأصبح هذا الموضوع رهيباً في نظر الكثيرين بسبب ما أثير حوله من جدل بدأ منذ قرون وظل حتى اليوم مثار الحديث بين الدارسين وكأنه أمر لا قيمة له أو كأنه ثنلؤة يجب استئصالها ليصفو وجه اللغة ويستقيم بيانها. وليست المسألة بهذه الصورة لو أدرك الناس أن النحو ركن متين في أية لغة من اللغات الحية وأنه في بعض اللغات أكثر صعوبة وأشد تعقيداً من النحو العربي، ولكن الفرق هو أن أولئك عرفوا كيف يعرضون قواعد لغتهم وكيف يؤلفون الكتب التي تقرب إلى الأذهان في حين ظل بعضنا بين أخذ وردّ، وشدّ وجذب. ولكي تكون للنحو أهمية عظمى وقدرة على النفع واتقان اللغة

العربية أرى أن يقسم موضوع اللغة في المراحل الدراسية الأولى ـ الابتدائية والثانوية ـ على مادتين:

الأولى: اللغة وتضم النحو والتعبير في الابتدائية والمتوسطة، والنحو والتعبير والبلاغة في المرحلة الإعدادية:

الثانية: الأدب وتضم المطالعة والنصوص في الابتدائية والمتوسطة، والأدب والنصوص والنقد الأدبي في المرحلة الإعدادية على أن لا يكون الفرق كبيراً في عدد الساعات والموضوعات بين القسمين: العلمي والأدبي؛ لأن اللغة لا تخص قسماً دون آخر وإنما هي وسيلة التخاطب والتعبير والوعاء الذي يجمع أبناء الأمة الواحدة والعمود الذي يقيم الوجود القومي.

ولن تختلف الكتب الأخرى في المراحل الأولى عن كتب النحو بل إن الشروط التي ينبغي أن تتوفر فيها واحدة ولا سيما كتب المطالعة والأدب والنصوص التي ينبغي أن تكون هادفة تخدم الفكر العربي ومهذبة للذوق والوجدان، وأن تكون صورة صادقة للحياة العربية ومرآة تنعكس عليها تطلعات الأجيال لتخلق منهم رجالاً مرتبطين بأمتهم ولتثير فيهم الدعوة إلى الدفاع عن لغتهم وتطويرها وإعلاء شأنها بين لغات العالم. إن العناية الدقيقة بوضع مناهج اللغة العربية والاهتمام الكبير بتأليف الكتب أولى خطوات العمل التربوي الذي يخلق جيلاً عربياً يؤمن بوحدة أمته ويثق بمستقبلها، وتلك العناية وذلك الاهتمام لن يكونا مثمرين ما لم يكن العمل جاداً متقناً ليس فيه للاستعجال نصيب؛ لأن بناء الأمة لا يقدّر بالأيام وإنما بالعمل الدائب المخلص والكفاح الصادق والثورة على الجمود. ولكي تظل ثورة التعليم متقدة يجب أن تكون هناك هيئة عليا تتفرغ للتخطيط ورسم المناهج وتطبيقها قبل أن تعم وتصبح كتباً يتداولها الطلبة فإذا ما أدركت هذه الهيئة أو المؤسسة أنّ المناهج أحكمت وأن الكتب أعدّت، تركت باب النقد مفتوحاً لتسمع الآراء وتنتفع بخبرة الذين لم تتسع لهم اللجان ولا الكتب. ولن تكون هذه الكتب نافعة في تقريب اللغة إلى الطلبة وتذوق ما فيها من جمال إن لم يعدّ المدرس إعداداً جيداً وإن لم تتظافر الجهود كلها على خلق جو تسبح اللغة

في عليائه ويتنفس الطلبة في رحابه. فالكتاب مهما كان جيداً لن يكون نافعاً من غير مدرس هذّبه العلم وصقله التدريب وسحرته اللغة ليندفع إلى خدمتها وغرس جمالها في نفوس الأجيال الجديدة. ولن يكون هذا المدرس عظيم النفع إن لم يعرف طرائق التدريس التي تعينه على تقريب المادة وترسيخها، وإن لم يكن محباً لعمله مخلصاً فيه. ولعل حبّ العمل والإخلاص فيه من أهم الأسباب التي تحقق الأهداف وتخدم القضية التي يسعى إليها رجال التربية والتعليم. ولكي يكون المدرس نافعاً ينبغي أن يُعنى كثيراً بالمعاهد التي تؤهل للتعليم، وقد اهتمت الثورة الظافرة بهذه المسألة وأولتها عناية كبيرة وأنشأت المؤسسات العلمية ولعل من أهمها كليات التربية التي عادت تحمل عبء إعداد المدرسين من جديد وكان قسم اللغة العربية من وجوه هذه المؤسسات التي بدأت تبني جيلاً واعياً يتسلح بالعلم ويحمل مشعل الوطنية والقومية والتوجيه الحكيم. وقد خططوا لهذا القسم أن يخدم اللغة العربية والثقافة القومية والاشتراكية وكانت موضوعات اللغة تنسجم مع ما يدرسه الطلبة في المرحلة الثانوية ليكون المتخرجون أكثر استعداداً لتولي المسؤولية وحمل الأمانة القومية. ويتضح ذلك في الأهداف التي ذكرها تقرير لجنة إعداد مناهج كليات التربية فقد جاء فيه:

١ - إن المنهج الموضوع يأخذ بنظر الاعتبار مناهج الدراسة الإعدادية كأساس للخطوط العامة وليس فقط التقيد بالمفردات.
٢ - إن المنهج يركز على المفاهيم الأساسية في العلوم من غير إرباك أو غموض.
٣ - إن المنهج يقصد إلى إعداد المدرس المتمكن من تدريس موضوعه والإجابة عن الأسئلة العلمية والاجتماعية ذات العلاقة بموضوع تدريسه.

هذا هو المنطلق العام. أما ما يتعلق باللغة العربية فإن التقرير يؤكد على القواعد والأدب العربي مع إبراز الجوانب القومية والإنسانية لهذا الأدب إلى جانب القضايا الأخرى ذات العلاقة بالواقع الاجتماعي للعرب ضمن المراحل المختلفة لهذا الواقع. وتوزيع موضوعات اللغة العربية على الفصول

الثمانية ـ أو السنوات الأربع ـ يحقق كثيراً من الأهداف فقد جاء فيه كل ما يدرس في المرحلة الثانوية كالنحو والصرف والبلاغة والنقد والأدب والتعبير، وهذه هي الأسس المتينة التي يعتمد عليها في تربية الملكة اللغوية والأدبية إذا ما قدمت بدقة وبأسلوب جديد. وجاء إلى جانب هذه الموضوعات ما يوسع ثقافة الطلبة ويربطهم بأمتهم كالتفسير والحديث الشريف والفقه والعقائد والفلسفة الإسلامية وتأريخ الحضارة الإسلامية وتأريخ حركات التحرر العربي وتأريخ الأمة العربية والمجتمع العربي والفكر الاشتراكي. وجاء إلى جانب ذلك كله ما يفتح أذهان الطلبة ويضيف إلى معلوماتهم ما يتصل بالثقافة العامة كالاتصال بالمكتبة العربية وباللغات الأجنبية وعلم الاجتماع والفلسفة الحديثة والمنطق. ولم ينسَ المنهج ما يخص مهنة التدريس وطرائقه كمبادىء التربية ومبادىء علم النفس العام وعلم النفس التربوي والمنهج والكتاب المدرسي وعلم نفس الطفولة وعلم نفس المراهقة والفكر التربوي الاشتراكي وطرائق التدريس الخاصة والتطبيقات التدريسية. وعند المقارنة بين هذه الموضوعات يتضح أن المتخرج في قسم اللغة العربية يحمل تخصصاً في اللغة وطرائق تدريسها إلى جانب الثقافة النافعة التي تؤهله للمشاركة في الحياة العامة. ولكن هذا المنهج الدقيق لن يكون نافعاً ما لم يعرض عرضاً حسناً ويوجه الطلبة توجيهاً سديداً، وذلك لأن العبرة ليست بالنظريات وإنما بالتطبيق الذي يكسب النظرية حياة ويحيلها واقعاً يدركه الناس وينتفعون به.

ولكي يؤتى هذا المنهج ثماره ينبغي أن يوجّه طلبة القسم منذ البداية توجيهاً فيه من النظرة العلمية والوعي القومي الشيء الكثير ليكونوا مهيئين للسير في الدراسة سيراً حسناً ويدخلوا ميداناً يؤمنون به كإيمانهم بالحياة. ومعنى ذلك أن لا يكون إدخال الطلبة إلى هذا القسم قسراً بسبب معدلاتهم وإنما ينبغي أن يكون عن وعي وإدراك وحب لهذه اللغة الكريمة وإخلاص للناطقين بها وللأمة التي ينتمون إليها، لأن اللغة ليست منطقاً رياضياً فحسب وإنما هي عاطفة وحب. ومن لم يرتبط بأمته ولغته عاطفياً لن ينفعه العلم ومناهج البحث وطرائق التدريس، ولذلك كانت العناية الأولى تتجه نحو

الإيمان بالأمة العربية ولغتها ثم إلى العلم الذي يخدم اللغة ويحقق أهداف الأمة وتطلعاتها.

ومع هذه الدقة في رسم المنهج وتصوره فإن هناك ملاحظات أهمها:

١ - مجموع الوحدات التي يدرسها الطلبة خلال السنوات الأربع (١٧١) وحدة.

٢ - مجموع وحدات الاختصاص (٩٣) أي أنها أقل بكثير من الثلثين وهي نسبة تحتاج إلى زيادة بحيث لا يقل مجموعها عن الثلثين لكي يلم المتخرج باختصاصه ويستوعبه استيعاباً يؤهله للقيام بالمهمات المنوطة به. وأرى أن تكون وحدات النحو في السنة الأولى ثلاثاً في كل فصل ليكون مجموع ما يدرسه الطلبة خلال سني دراستهم أربعاً وعشرين وحدة. وليس هناك من بأس في زيادة عدد الوحدات في الفصلين الأول والثاني وجعلهما (٢٢) أو أكثر.

٣ - إن وحدات الاختصاص قليلة في الفصلين الخامس والسادس (السنة الثالثة) فهي (٨) وحدات في كل فصل وليس من العسير زيادتها إلى عشر وحدات أو اثنتي عشرة وحدة.

٤ - إن وحدات المواد المساعدة كثيرة فهي أكثر من وحدات التربية وطرائق التدريس التي يحتاج إليها المتخرج في كلية التربية ولذلك أرى أن تقلل لتضاف وحداتها إلى مواد اللغة العربية من أجل أن يكمل الطلبة عدتهم ويحققوا أهدافهم في تعزيز لغتهم وخدمتها خدمة تضمن سلامتها وتدفع بها إلى المقام الرفيع بين لغات العالم.

ويقوم قسم اللغة العربية في كليات الآداب بتدريس اللغة والحفاظ عليها، ولا يختلف هذا القسم كثيراً في موضوعات الاختصاص عن صنوه في كليات التربية لأن علوم اللغة العربية واحدة وتكاد تكون ثابتة لولا بعض ما استجد في هذا العصر كالنقد المقارن والمذاهب الأدبية وبعض الفنون الأخرى. وقد حدد القسم أهدافه بما يأتي:

١ ـ إعداد خريجين مؤهلين لغوياً وأدبياً للبحث والتدريس في أجهزة التعليم المختلفة.
٢ ـ إعداد جيل يفهم تراث أمته العظيم ويعمل على إحيائه وبعثه من جديد بأسلوب رصين.
٣ ـ العمل على صون العربية الفصيحة وتطبيق قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية الذي شرعه مجلس قيادة الثورة للحفاظ على عربيتنا الكريمة.
٤ ـ المساهمة في تطوير البحث وتعميقه للإفادة منه في مجالات التنمية.
٥ ـ إغناء المكتبة العربية بالبحوث والدراسات بما يقدمه من رسائل جامعية.
٦ ـ سدّ حاجة الجامعات من الأساتذة بما يمنحه من الدرجات العلمية العليا.

وموضوعات اللغة العربية التي يدرسها الطلبة في هذا القسم تتصل بالنحو والصرف وعلم اللغة والبلاغة والنقد والأدب والنصوص والأدب المقارن ومناهج البحث في اللغة والأدب. ويدرسون إلى جانب الاختصاص موادّ تعمق ثقافتهم وتربطهم بحضارتهم ومنطلقات أمتهم ورسالتها الخالدة. ومن هذه المواد تأريخ الحضارة العربية وتأريخ العرب القديم والحديث وعلوم القرآن والتفسير والحديث الشريف والفلسفة الإسلامية والثقافة القومية والاشتراكية. وهذه الموضوعات مهمة لأنها تتصل اتصالاً وثيقاً بعلوم اللغة العربية ولأنها تفتح آفاقاً واسعة للطالب بعد تخرجه ومساهمته في الحياة العامة. ولكي يتحقق التخصص الدقيق ينقسم الطلبة في الفصلين السابع والثامن (السنة الرابعة) إلى شعبتين:

الأولى: الدراسات الأدبية وفيها تكون العناية بالأدب ونقده أولاً وبالنحو والصرف ثانياً.

الثانية: الدراسات اللغوية وتكون العناية بالنحو والأصوات اللغوية وفقه اللغة والمذاهب النحوية أولاً وبالأدب ثانياً.

ويحقق هذا التقسيم رغبة الطلبة وتأكيد ذاتهم في الدراسة ويفتح أمامهم باب التخصص الدقيق في الدراسات العليا. وعلى الرغم من هذا الإتقان في

رسم المنهج وتصوره فإن هناك بعض الملاحظات منها:

١ - إن مجموع الوحدات (١٧٨) وحدة وهي نسبة جيدة.
٢ - إن مجموع وحدات الاختصاص (١٠٩) أي أنها أقل من الثلثين وهي نسبة تحتاج إلى زيادة بحيث لا يقل مجموعها عن الثلثين لكي يلم المتخرج باختصاصه ويستوعبه استيعاباً يؤهله للقيام بالبحث العلمي وإغناء المكتبة العربية وتطوير اللغة وأدبها.
٣ - إن المواد المساعدة مع اللغة الإنكليزية كثيرة فهي بقدر نصف موضوعات الاختصاص تقريباً.
٤ - إن المنهج يحتاج إلى إضافة بعض الموضوعات ذات الاختصاص الدقيق وذلك بعرض عدة مواد يختار الطالب منها موضوعاً واحداً أو موضوعين كأن يكون للدراسات الأدبية نقد المسرح أو نقد الرواية والقصة أو نقد الشعر. ومثل هذه الموضوعات ضروري لأنها تمثل الفكر المعاصر، وليس من الصواب أن يكون الطلبة بعيدين عن التيارات الحديثة وملامح العصر.

وينبغي أن تكون هذه المواد غير ثابتة أي أنها تتغير كلما استجدت موضوعات أو اتضحت دراسات جديدة وكلما ضاق الطلبة بها ذرعاً أو وجدوا أن غيرها أجدر بالعناية والاهتمام، وهذا اللون من الدراسات المتغيرة يعطي الطالب حرية الاختيار وتحقيق ذاته وإشباع رغبته وتنمية مواهبه لينطلق إلى آفاق أرحب يساهم فيها بإيمان ويخدم بإخلاص ويحقق طموحه في خدمة اللغة وآدابها.

وبالمقارنة بين هذا المنهج والمنهج الذي تطبقه كليات التربية تتضح الفروق الآتية:

١ - إن عدد وحدات الاختصاص في التربية (٩٣) وحدة وفي الآداب (١٠٩) وحدات، وهي نسبة تقتضيها طبيعة كل كلية في تحقيق أهدافها.
٢ - إن طلبة كلية التربية يؤهلون للتدريس في المدارس الثانوية ولذلك كانت الموضوعات التربوية (٣٠) وحدة من مجموع الوحدات العامة.

٣ ـ إن الثقافة العامة في كليات التربية أكثر تنوعاً لتساعد على خلق مدرس قادر على معالجة ما يعرض له في أثناء التدريس.

٤ ـ إن قسم اللغة العربية في كليات الآداب يتجه اتجاهاً آخر، ويتمثل هذا الاتجاه بتخريج متخصصين في اللغة العربية وآدابها وباحثين في فروعها المختلفة، ولذلك يقع عبء البحث وتطوير اللغة على عاتق خريجي كليات الآداب أكثر من وقوعه على خريجي كليات التربية الذين يهيؤون لعمل آخر هو تعليم اللغة وإشاعتها بين الطلبة لينشأوا فصحاء تستهويهم العبارة الجميلة والأسلوب البديع. إن الاختلاف في طبيعة الأهداف يؤدي إلى الاختلاف في طبيعة الدراسة، وهذا ما يتضح في المناهج التي جاءت معبرة عن تلك الأهداف.

ولو قارنا بين هذه المناهج ومناهج بعض الجامعات العربية لرأينا أن التأكيد على الاختصاص واضح كل الوضوح، وأن عدد الوحدات متنوعة بحيث تحقق كثيراً من الأهداف. ولكن هذا التأكيد وهذه الكثرة لن يوصلا إلى ما نصبو إليه ونريد تحقيقه إن لم تكن هناك رغبة حقيقية وشعور صادق لخدمة الأمة العربية ولغتها ولذلك كانت العناية باختيار المفردات وطرائق التدريس وتشجيع الطلبة وغرس الثقة في نفوسهم من أهم ما يكسب المناهج قوة ويجعلها تحقق كثيراً من طموح المخلصين. ولكي تصحّ المقارنة نعرض هنا ما يدرسه طلبة قسم اللغة العربية بجامعة الكويت فهم يدرسون (١٢٠) وحدة في ثمانية فصول (أربع سنوات أو أقل أو أكثر) وهذه الوحدات موزعة كالآتي:

١ ـ (٣٠) وحدة متطلبات جامعية تضم مواد ثقافية مختلفة وهي تعادل المواد المساعدة في جامعات القطر العراقي. ومن هذه المواد على سبيل المثال: اللغة الإنكليزية وتأريخ الحضارة العربية الإسلامية والتأريخ العربي الحديث وطرق البحث العلمي وعلم النفس وفلسفة العلوم ومبادىء الاقتصاد ومدخل المنطق. ويدرس هذه المواد طلبة الجامعة كافة لتكون لهم عوناً على مواجهة الحياة العامة والاطلاع على الثقافة المختلفة. ويفضل أن تدرس في الفصلين الأول والثاني ليكون الطلبة

قادرين على تغيير تخصصهم إذا اتضح أنه لا يحقق رغباتهم أو أنهم لا يستطيعون الاستمرار فيه.

٢ - (٣٠) وحدة إلزامية في الاختصاص تضم النحو والأدب والبلاغة والنقد.

٣ - (٢٤) وحدة اختيارية تكميلية في الاختصاص. ويقصد بالتكميلية أن يختار الطالب مفردات مما يقدمه قسم اللغة العربية.

٤ - (٢٤) وحدة في التخصص المساند يختارها الطالب من قسم علمي واحد غير قسمه.

٥ - (١٢) وحدة مما تعرضه الجامعة.

هذا ما يتصل بشعبة الدراسات الأدبية واللغوية، أما شعبة اللغة العربية والتربية - وهي تعادل قسم اللغة العربية في كليات التربية - فإن مجموع الوحدات التي يدرسها الطلبة (١٢٠) وحدة موزعة على الوجه الآتي:

١ - (٣٠) وحدة متطلبات جامعية.

٢ - (٣٠) وحدة إلزامية في التخصص.

٣ - (١٢) وحدة اختيارية في الاختصاص.

٤ - (١٨) وحدة في التخصص المساند يختارها الطالب من قسم علمي واحد غير قسمه.

٥ - (٢٤) وحدة في التربية النظرية.

٦ - (٦) وحدات في التربية العملية.

ويلاحظ أن الاختصاص في الشعب الثلاث قليل جداً إذا ما قورن بالاختصاص في كليات القطر العراقي، فهي في كلية الآداب (١٠٩) وحدات من غير المواد اللغوية والأدبية باللغة الإنكليزية، وفي جامعة الكويت (٥٤) وحدة وهي نسبة ضئيلة، وفي كليات التربية (٩٣) وحدة من غير اللغة السامية، وفي جامعة الكويت (٤٢) وحدة وهي نسبة ضئيلة جداً لا تغطي الجوانب المهمة في الاختصاص. ولكن منهج اللغة العربية بجامعة الكويت يمتاز بحرية الاختيار الذي يحقق للطالب تنمية مواهبه في الموضوعات التي يميل إليها ويرغب فيها. فهناك إلى جانب الاختصاص الإلزامي عشرون مادة

أو أكثر يختار منها الطالب أربع مواد خلال سنوات دراسته، وهناك عشر مواد أو أكثر تكميلية وهي ما يقدمه قسم اللغة العربية يختار الطالب منها أربع مواد خلال سني دراسته. ومعظم هذه المواد لا تشكل الاختصاص العام وإنما تشمل موضوعات خاصة كالقصة واللحن في اللغة والتفكير اللغوي عند العرب وعلم اللغة النفسي والنقاد العرب المعاصرين والأدب المقارن والنقد المسرحي ونقد الشعر والمدارس الأدبية الحديثة والأدب في عصر المماليك وأدب الخليج والجزيرة العربية، وغير ذلك من الموضوعات التي تتغير لتكفل للطلبة تحقيق رغباتهم وإشباع هواياتهم وتنمية مواهبهم.

ومع أنّ نسبة الاختصاص في جامعات القطر العراقي عالية إذا ما قورنت بغيرها في بعض الجامعات العربية فإن الطموح للوصول إلى مستوى أرفع يقتضي زيادة النسبة ليكون المتخرج متمكناً من موضوعه وقادراً على العمل المثمر والبناء الراسخ.

وخلاصة القول: إن العناية بالمناهج واختيار الأساتذة والاهتمام بالكتب والاعتزاز باللغة العربية وخلق ظروف لغوية تساهم فيها المؤسسات المختلفة وفي مقدمتها وزارة الثقافة والإعلام والمجمع العلمي العراقي والجامعات كفيلة بأن تعزز مكانة اللغة وتجريها على ألسنة الناس طيّعة، وتحقق ما تسعى إليه حكومة الثورة وتضمن تطبيق قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية.

٢
خصائص العربية



خصائص عامة:

العربية لغة الملايين من المتحدثين بها في الوطن العربي أو الناطقين بها في العالم الإسلامي وبعض أرجاء المعمورة. وهي لغة موغلة في القدم لا يعرف أحد نشأتها الأولى، ومعظم ما قيل فيها لا يزال بعيداً عن التوثيق الذي تستند إليه الدراسات العلمية. وترجع الروايات العربية تأريخها إلى النبي إسماعيل ـ عليه السلام ـ وتذكر أنه أول «من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه»[1]، و«أنه أول من فتق لسانه بالعربية المبينة وهو ابن أربع عشرة سنة»، و«إن الله ألهمه العربية إلهاماً»[2]، و«إن العرب كلها ولد إسماعيل إلّا حمير وبقايا جرهم»[3]. ولكن العربية التي يعنون «اللسان الذي نزل به القرآن وما تكلمت به العرب على عهد النبي ـ ﷺ ـ وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا»[4].

(*) قدّم هذا البحث إلى ندوة «اللغة العربية والوعي القومي» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية والمجمع العلمي العراقي ومعهد البحوث والدراسات العربية ونوقش في الجلسة الثانية مساء الأربعاء ١٩٨٣/٩/٢٨. ونشر في كتاب الندوة مع البحوث الأخرى والمناقشات التي جرت، وقد صدر الكتاب في نيسان ١٩٨٤ عن مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت.

(١) طبقات الشعراء ج ١ ص ٩.

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٩٠ ـ ٢٩١.

(٣) طبقات فحول الشعراء ج ١ ص ٩.

(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠.

وإذا صحّت الروايات فإن تأريخ اللغة العربية قديم، فقد عاش أبو العرب إبراهيم ـ عليه السلام ـ قبل المسيح بألفي عام، وربما كانت العربية قبل ذلك العهد فقد جاء عن النبي محمد ـ ﷺ ـ أن: «أول من كتب بالعربية إسماعيل»، وقال أبو عمر بن عبد البر: «وهٰذه الرواية أصح من رواية من روى: «إن أول من تكلم بالعربية إسماعيل»[1]. وهذا يدل على أن العربية أقدم من ذلك بكثير؛ لأن الكتابة لا تظهر مع اللغة وإنما بعد أن تشيع وتنتشر ويصبح الناس في حاجة إلى التدوين.

ويسند هذه الروايات دراسة صيغ العربية وأساليبها، وقد حاول عباس محمود العقاد أن يستدل على ذلك بدراسة ضمائر الجنس والعدد فيها، وانتهى إلى أنها أقدم اللغات الحية بدلالة الضمائر والأسماء الموصولة وهذا «ظاهر من احتوائها عليها جميعاً وبقاء أصولها جميعاً فيها إلى اليوم مستعملة لأغراضها التي تناسبها»[2]. واستدل الأب أنستاس ماري الكرملي بسفر أيوب قال: «إن لغة الضّاد قديمة يشهد على ذلك سفر أيوب فإن كثيرين من العلماء يذهبون إلى أن صاحبه وضعه بلغته العربية إذ فيه عبارات وتشبيهات ومجازات واستعارات لا تعرف إلاّ في العربية. ولا شك أنه نُقل من اللغة العربية إلى اللغة العبرية وبقيت في النقل أصول اللغة ومبانيها وصيغها على أصلها أو يكاد»[3]. ودلّت النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية على أن اللغة العربية السابقة للفصحى ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وأن أقدم نص للفصحى نفسها يرجع إلى سنة ٣٢٨ للميلاد[4]. وهذا خير شاهد على قدم العربية وأصالتها وتواصلها حتى يومنا هذا.

إن دراسة اللغة من داخلها ومقارنتها باللغات القديمة يوضح قدم العربية وعراقتها ويفتح لعلم اللغة المقارن أبواباً جديدة تعرض لقدم اللغات وتظهر

---

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٢) أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ص ٧١.
(٣) نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ص ١٠١.
(٤) ينظر دراسات في فقه اللغة العربية للدكتور السيد يعقوب بكر ص ٧ ـ ٩.

مراحل تطورها خلال القرون الطويلة. وأهم ما يعين على ذلك النصوص الأدبية، ولكن ما وصل إلينا من العرب لا يصوّر العهود السحيقة وإنما يمثل عصر ما قبل الإسلام بزمن لا يتعدى القرنين. ولعل الشعر الجاهلي أقدم تلك النصوص ولكنه لا يحدد تأريخ العربية لأنه «حديث الميلاد صغير السن». قال الجاحظ: «فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام»[1]. وما وصل من هذا الشعر يدل على أنه قطع عدة مراحل في تطوره، فلغته ومعانيه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه تؤكد أنه ليس وليد قرن أو قرنين قبل الإسلام وإنما هو ثمرة قرون طويلة شهدتها العربية قبل أن تكتمل ألفاظها ومعانيها وأساليبها وتظهر في الشعر الذي أصبح «ديوان العرب». وكتاب الله أصدق من ذلك الشعر في تصوير اللغة العربية فقد نزل بلسان عربي مبين على أمة فصيحة بليغة فبهرها وجعل بعض من لم يهدهم الله يفرقون منه لئلا يقع في الآذان والقلوب موقعاً حسناً فيدفعهم إلى اعتناق الرسالة الخالدة والسير في سبيل الهداية والنور. ويمثل كتاب الله أرفع كلام عربي وأسماه، وهو معجز تحدّى به سبحانه العرب فقال: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً ﴾[2]. ولولا بلاغته المعجزة وأسلوبه الرفيع ومعانيه الرائعة ما كان موطن تحدّ ورمز تفرد في قوم كانت لغتهم المتمثلة في الشعر والخطب والأمثال أرقى ما وصلوا إليه قبل الإسلام. فروعة القرآن الكريم وبلاغته وفصاحته وأسلوبه تدل على أن العربية قديمة وأنها مرّت بمراحل كثيرة قبل أن ينظم فيها الشعر البديع وتنزل بها معجزة السماء. ولكن ذلك القديم لم ينقطع فقد بدأ حياته وسار في نموه حتى اكتهل وتمثل في أروع الأساليب، ولا يزال يربط الماضي بالحاضر ويمتدّ إلى الآتي وهو يحمل سمات الأصالة ويتحدّى الزمان. فالعربية لغة متواصلة، وهذا التواصل من أهم خصائصها، وقد شهد العالم لغات كثيرة وعرف لها أدباً وعلماً، ولكنها أصبحت تأريخاً يذكر بعد أن بادت أممها، وظلّت العربية تواصل سيرها ومعها

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٧٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

الأمة العربية وهي تبني حضارة وتنقل العالم من الظلمات إلى النور.

وكانت العربية متصلة بالأمة التي حملتها قروناً ومعبرة عن خصائصها العقلية والنفسية والروحية، وقد أوضح ذلك من خلال دراسة بعض الألفاظ عالمان جليلان هما العقاد ومحمد المبارك، وانتهى الأول إلى أنه «لا يعرف علماء اللغات لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات أوطانهم من كلماتهم وألفاظهم كما تتراءى لنا أطوار المجتمع العربي من مادة ألفاظه ومفرداته في أسلوب الواقع والمجاز»[١]. وقال الثاني: «إن بين خصائص اللغة العربية وخصائص العرب أنفسهم وشيجةً ونسباً»[٢]. وهذه الوشيجة وذلك النسب خلّداها على الزمن وجعلاها ممتدة متواصلة ومترابطة في أصولها وقواعدها على الرغم من التطور الكبير الذي نالته بعد نزول القرآن الكريم وبناء الحضارة العربية الإسلامية، وعلى الرغم من الأخطار الكثيرة التي تعرضت لها في عهود الغزو والاحتلال أو التخلف والجمود أو التبعثر والضياع. ولم يكن ذلك سهلاً يسيراً، فقد تعرضت غيرها لأقل مما تعرض له فبادت أو اختلت أو ذابت في غيرها، ولعل ما أعقب سقوط بغداد عام ٦٥٦ هـ كان امتحاناً عسيراً للأمة العربية ولغتها فقد أصابها ما لم تُصَبْ به لغة أخرى، ولكنها خرجت من ذلك كله قوية بعد أن اشتد الوعي القومي وانتشر، وبعد أن وقفت الأقطار العربية تلمْ شتاتها وتوحّد كلمتها وتبني حاضرها على أساس قومي يوحّد ولا يبدّد، وفكر عربي يبني ولا يهدد.

إن قِدَمَ العربية وتواصلها خلال قرون طويلة واحتفاظها بالقواعد والأصول العامة من أول خصائصها، وإن ذلك التواصل جعل أبناءها يقرأون تراثها الضخم وينتفعون به وجعلهم يتوادون ويسند بعضهم بعضاً على اختلاف أقطارهم وانتشارهم في أصقاع الأرض. وتلك مزية لا تعرفها اللغات القديمة أو الحديثة، فقد بادت لغات وأصبحت طلاسم لا يفكها إلّا المتخصصون، واستمرت بعض اللغات ولكن أبناءها لا يقدرون على فهم كثير من تراثها

(١) اللغة الشاعرة ص ٦٠.

(٢) خصائص العربية ص ١٢، فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٤٣.

القديم لاختلافها في طرائق التعبير، ولانحسار كثير من ألفاظها، وانقطاع الصلة بين الماضي والحاضر، وتغيرها في النطق والرسم وغير ذلك مما يعرض للغات.

ومن أهم خصائص العربية ثبات أصوات الحروف فيها، وكان ذلك «توفيراً للجهد ودلالة على الاتصال بين أجيال الأمة العربية وتعبيراً عن الثبات والخلود فيما لا يوجب تقلب الأيام وتبدل الحياة تغييره»[1]. ولا يغير من هذه الحقيقة بعض ما أصاب النطق في الأقطار العربية بعد الاختلاط بالأعاجم؛ لأن جوهر الصوت العربي بقي واضحاً وهو ما يتمثل في قراءة القرآن الكريم وإخراج الحروف الصامتة إخراجاً يكاد يكون واحداً لأن «حروفنا العربية محفوظة الأصول، معروفة الأنساب»[2]، ولأن مدرجها الصوتي واسع ولأنها «تشتمل على جميع الأصوات الإنسانية ومخارجها»[3]. قال محمد المبارك: «إن أول ما يبدو من صفات الحروف العربية توزعها في أوسع مدرج صوتي عرفته اللغات، ذلك أن الحروف العربية تندرج وتتوزع في مخارجها ما بين الشفتين من جهة وأقصى الحلق من جهة أخرى فتجد الفاء والباء والواو الساكنة ومخارجها من الشفتين من جانب الحاء والهاء والعين والهمزة ثم الغين والخاء على التدرج ومخارجها من الحلق أقصاه فأدناه من جانب آخر، وتتوزع باقي الحروف العربية بينهما في هذا المدرج. وقد تجد في لغات أخرى غير العربية حروفاً أكثر عدداً ولكنها محصورة مخارجها في نطاق أضيق وفي مدرج أقصر وقد تجدها مجتمعة متكاثرة في جانب الشفتين وما وآلاهما من الفم أو الخيشوم في اللغات الكثيرة الغنّة أو تجدها متزاحمة في جهة الحلق وفي كلا الحالين ضيق في الأفق الصوتي واختلال في الميزان الصرفي وفقدان لحسن الانسجام بسبب سوء توزيع الحروف.

تمتاز اللغة العربية في مجموع أصوات حروفها بسعة مدرجها الصوتي

---

(١) خصائص العربية ص ١٧ وتنظر ص ٢١، فقه اللغة ص ٢٥١، ٢٥٣.

(٢) دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح ص ٣١٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣١.

سعة تقابل أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها وتمتاز من جهة أخرى بتوزعها في هذا المدرج توزعاً عادلاً يؤدي إلى التوازن والانسجام بين الأصوات[1]. وأدّى ذلك إلى توازن الأصوات في اللفظة الواحدة وقد استقبح العرب واستبعدوا كثيراً من الألفاظ التي لا تأتلف حروفها، قال الحافظ: «فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير»[2]. وهذه قاعدة مطردة في الألفاظ العربية الأصيلة، وقد حدّد اللغويون هذه الصفات ووضعوا وبينوا سمات معرفة الدخيل في ضوء هذه الأصول. وهذه العناية بالأصوات وانسجامها أدّت إلى أن تكون لألفاظ العربية موسيقى عذبة، وأن يتولد من ذلك شعر رقيق يحفل بالإيقاع الجميل، وأن تدل أجراس الحروف على أصوات الأفعال وتنبّه إلى معناها. قال ابن جني: «فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبّر بها عنها، ألا تراهم قالوا: «قضم» في اليابس، و«خضم» في الرطب، وذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف. وكذلك قالوا: «صَرَّ الجندب» فكرروا الراء لما هناك من استطالة صوته، وقالوا: «صَرْصَر البازي» فقطعوه لما هناك من تقطيع صوته»[3].

وكره العرب الألفاظ الثقيلة وأقاموا معظم ألفاظهم على حروف ثلاثة لخفتها وإيجازها وسهولة النطق بها، قال ابن جني: «إن الأصول ثلاثة: ثلاثي ورباعي وخماسي، فأكثرها استعمالاً وأعدلها تركيباً الثلاثي وذلك لأنه حرف يُبتدأ به، وحرف يُحشى به، وحرف يُوقف عليه. وليس اعتدال الثلاثي لقلة حروفه حسب لو كان كذلك لكان الثنائي أكثر منه لأنه أقلّ حروفاً»، ثم قال: «فتمكن الثلاثي إنما هو لقلة حروفه، لعمري، ولشيء آخر هو حجز الحشو الذي هو عينه بين فائه ولامه وذلك لتباينهما ولتعادي حاليهما. ألا ترى أن

---

(١) خصائص العربية ص ١٦، فقه اللغة ص ٢٤٩.

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٩.

(٣) الخصائص ج ١ ص ٦٥.

المبتدأ ألا يكون إلّا متحركاً، وأن الموقوف عليه لا يكون إلا ساكناً، فلما تنافرت حالاهما وسّطوا العين حاجزاً بينهما لئلا يفجئوا الحسّ بضد ما كان آخذاً فيه ومنصباً إليه»[١]. وثلاثية الألفاظ اللغوية ـ إن لم تكن ثنائيتها ـ من أهم خصائص العربية، ولا تكاد لغة أخرى تشاركها في هذه السمة الواضحة. وكان الأصل الثلاثي عمدة الاشتقاق الذي هو من أبرز خصائص العربية مما جعل الألفاظ تعيش في مجتمعات كما يعيش العرب في أسر وقبائل[٢]، وجعل بعضها يرتبط ببعض، ويتصل المعنى وإن اختلف ترتيب الحروف فإن «معنى ـ ق و ل ـ أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه إنما هو للخفوق والحركة»[٣]. ومثل ذلك ـ ك ل م ـ فهي حيث تقلبت تدلّ على القوة والشدّة[٤]. فالاشتقاق أحد وسائل نمو اللغة العربية واتساعها، وقد جعل منها كائناً حياً مبدعاً في مختلف العهود، وجعلها قادرة على استيعاب ألوان جديدة من الحضارة ومظاهر المدنية في كل عصر، ولولا ذلك لتوقفت وعجزت عن مواكبة المتغيرات وشؤون الحياة المختلفة. إن العربية ليست لغة إلصاقية أو معتمدة على النحت كغيرها من اللغات وإنما تقوم على الاشتقاق، ولذلك كثرت أبنيتها وكان لكثير من تلك الأبنية معانٍ خاصة تحملها في ذاتها من غير أن تسند أو تضاف[٥]. فبناء «فَعَّلَ» يكون بمعنى التكثير مثل «غلّق» وبمعنى «أفعل» مثل «خبّر». و«أَفْعَل» بمعنى «فَعَل» مثل «أسقى». و«فاعل» يكون بين اثنين مثل «ضارَبَه» وبمعنى «فَعَل» مثل «قاتلهم الله». و«تفاعل» تكون بين اثنين أو جماعة مثل «تجادلا» وبمعنى «أظهر» مثل «تغافل». و«تفعَّل» بمعنى «فعَّل» مثل «تخلّصه» وبمعنى التكلف مثل «تشجع» ولأخذ الشيء مثل «تعلّم». و«استفعل» بمعنى التكلف مثل «استكبر» وبمعنى الدعاء والطلب مثل «استوهب» وبمعنى «فَعَل» مثل «استقر»

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٢) ينظر خصائص العربية ص ٢٦، فقه اللغة ص ٢٦٤.

(٣) الخصائص ج ١ ص ٥.

(٤) ينظر الخصائص ج ١ ص ١٣.

(٥) ينظر فقه اللغة وسر العربية ص ٣٤٠ ـ ٣٤٣.

وبمعنى «صار» مثل «استنسر». و«افتعل» بمعنى «فَعَل» مثل «اكتسب» ولحدوث صفة مثل «افتتن». و«انفعل» للمطاوعة مثل «انكسر». ويكون ما جاء على «فَعَلان» للحركة والاضطراب مثل «الغليان». و«فَعْلان» للدلالة على صفة تقع في أحوال مثل «عطشان» و«أفعل» للدلالة على صفات الألوان مثل «أبيض» وعلى العيوب مثل «أخنف». و«فُعال» للأدواء مثل «الصُداع» وللأصوات مثل «الصراخ». و«فَعيل» للأصوات مثل «الضجيج». و«فعللة» لحكايات الأصوات مثل «الغرغرة». و«فعيلة» للأطعمة مثل «الوليمة». و«فَعول» للأدوية مثل «اللَّعوق». و«مِفعال» للدلالة على الاستكثار مثل «مِطعام». قال الأب انستاس ماري الكرملي: «فأما أوزان العربية فمن أبدع ما ورد فيها وهي من الغنى بحيث يجد فيها الباحث ما يَجْزَأه عن النحت والتركيب وتكثير الألفاظ والشروح حتى انك لا تجد ما يضارعها من سائر الألسنة ولو كانت سامية الأصل. ثم إنك ترى في العبرية والأرَمية شيئاً يشبه هذه الأوزان لكنك لا تجدها كلها بل بعضاً منها وهي دون العربية عدداً. فالعربية سبقت أخواتها كلهن وبزَّتهن بَزّاً، ولكل وزن من تلك الأوزان مزية خاصة به وربما اجتمعت فيه عدة مزايا وربما أيضاً اشتركت مزايا هذا الوزن مع مزايا الوزن الآخر»[١]. ثم قال بعد أن ذكر معاني صيغة «فاعل»: «فهي أوسع ميداناً من الأوزان ولا نظن أن في العالم لغة تعددت فيها الصيغ كما تعددت في لغتنا. ففي لغات الغرب مثلاً ـ ولا سيما الحديثة ـ منها ترى صيغاً للتصغير والتكبير، للتحبيب والتحقير، للتقريب وللتبعيد، للتجديد وللتعتيق، إلى أشباه هذه الفكر. ونظن أن أغلبها صيغت على أمثلة لغة عدنان، أما أن هناك صيغاً خاصة ولكل صيغة مزية خاصة بها دون غيرها فهذا لا يرى إلاّ في هذه اللسان البديعة»[٢].

فاللغة العربية غنية بصيغها ولذلك كانت الدراسات الصرفية فيها من أوسع ما عرفته اللغات وأدقها وهي دراسات بدأت منذ عهد مبكر وأولاها علماء اللغة عناية كبيرة. قال الدكتور تمام حسان: «وهذه الشعبة من دراسة

---

(١) نشوء اللغة العربية ص ١١٣.

(٢) نشوء اللغة العربية ص ١١٤.

اللغة وإجادة القول فيها أفردت الصرفيين العرب بمكان لا يدانيه أي مكان آخر في عالم اللغويين قديماً أو حديثاً، ولا يزال كشفهم عن النظام الصرفي العربي موضع الإعجاب والاحترام، وسيظل دائماً كذلك في نظر اللغويين في مختلف أنحاء العالم»[١].

ومن خصائص العربية أن ألفاظها لا تبدأ بالساكن، وكان العرب يستوحشون من الابتداء به في كلام العجم فإذا عرّبوه حركوه، ومن ذلك الهمزة في عرض الكلام والحاء والظاء، قال ابن فارس: «فأول الحروف الهمزة والعرب تنفرد بها في عرض الكلام ولا تكون في شيء من اللغات إلّا ابتداءاً. ومما اختصت به لغة العرب الحاء والظاء، وزعم ناس أن الضاد مقصورة على العرب دون سائر الأمم»[٢]. وقال ابن جني: «واعلم أن الضاد للعرب خاصة ولا يوجد في كلام العجم إلّا في القليل»[٣]. وهذا ما أيّدته الدراسات الحديثة، قال الكرملي: «إنّ الهمزة في أول الكلمة موجود في جميع اللغات فلا عبرة له هنا، أما مهموز العين واللام فخاصان بالعربية على أن قريش وكانت لغتها أفصح اللغات ما كانت تهمز»[٤]. وقال الدكتور إبراهيم أنيس: إن استفحال النزعة الشعوبية أدى إلى أن تشيع التسمية التي خلعها العرب على لغتهم وهي «لغة الضاد»[٥].

ومن خصائصها توسعها بوسائل كثيرة لا يقابلها شيء في سائر اللغات قال الكرملي: «مما وسّع كلام الناطقين بالضاد توسيعاً لا يقابله شيء في سائر اللُّغى المعروفة ما وقع فيها من القلب والإبدال والتصحيف والتحريف وتشابه رسم الحروف والتعريب»[٦]. ثم قال: «المراد بالقلب هنا تقديم بعض أحرف الكلمة على بعضها كقولك: «استدمى غريمه واستدامه» إذا رفق به و «اعتام

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ص ١٥.

(٢) الصاحبي ص ١٠٠، وينظر المزهر ج ١ ص ٣٢٨.

(٣) سر صناعة الإعراب ج ١ ص ٢٢٢.

(٤) نشوء اللغة العربية ص ١٣.

(٥) اللغة بين القومية والعالمية ص ١٩٨.

(٦) نشوء اللغة العربية ص ١٦.

الرجل واعتمى» إذا اختار، ويسمى «القلب المكاني»... ومن القلب عندهم القلب الذي لا يستحيل بالانعكاس مثل «فحّت الحية وحفّت»... ومثل القلب الذي لا يستحيل بالانعكاس لا يرى إلّا في لغتنا. وأما مثل القلب المألوف فيرى أنه في الألسنة القديمة فقط كالعبرية والآرامية واليونانية واللاتينية، ولكنه ليس بفاشٍ فيها فشوّه في لغة مضر»[1]. وقال: «المراد بالإبدال هنا إقامة حرف مكانَ آخر قد يقاربه مخرجاً وربما لا يقاربه أو يكون بقلب الحرف نفسه لفظاً آخر على معنى إحالته إليه... ومثل ذلك «الوأل» و«الوعل» و«الوغل»[2]. وكان ابن السكيت قد ألف رسالة في القلب والإبدال ونظر إلى هذه الظاهرة «على أنها من خصائص العربية»[3]، وجعل ابن فارس والثعالبي الإبدال من سنن العرب في كلامها[4]. وتحدث اللغويون والصرفيون عنهما وهما من أسباب تنمية العربية، أما التصحيف والتحريف وتشابه رسم الحروف فليس مما تلجأ إليه اللغة لإنماء نفسها ومثل ذلك التعريب الذي وقف منه العرب موقف الحذر، والنحت الذي لم يتوسعوا فيه لأن العربية لغة اشتقاقية لا إلصاقية كاللغات الآرية أو الهندية الأوربية. ولكن هناك وسائل أخرى ترفد العربية بالألفاظ منها الترادف والمشترك اللفظي والأضداد. ولكثرة وسائل تنمية اللغة العربية قال القدماء إنها: «أفضل اللغات وأوسعها»[5]. وقال الكرملي: «إن لسان العرب فوق كل لسان ولا تدانيها لسان أخرى من ألسنة العالم جمالاً ولا تركيباً ولا أصولاً»[6].

هذه بعض خصائص أصوات اللغة العربية وألفاظها، وليس البحث فيها بالسهل اليسير وإن كان القدماء والمعاصرون قد أولوها عناية كبيرة ووقفوا عندها طويلاً وشغلتهم، وكادت دراساتهم تنصبّ على هذا الجانب من فقه

---

(١) نشوء اللغة العربية ص ١٦ ـ ١٧.
(٢) نشوء اللغة العربية ص ١٨.
(٣) من أسرار اللغة ص ٥٢.
(٤) ينظر الصاحبي ص ٢٠٣، وسر العربية ص ٣٤٧.
(٥) الصاحبي ص ٤٠، المزهر ج ١ ص ٣٢١.
(٦) نشوء اللغة العربية ص ١.

اللغة وتبتعد عن الجمل والتركيب. قال محمد المبارك: «وأما الكلام المركب أو دراسة الجملة العربية ونظام تركيبها فذلك ما لم نبحثه في كتابنا هذا مع أنه جزء من فقه اللغة في مفهومه الحديث. وقد بحثه أسلافنا في علمي النحو والمعاني، ولكن فقه اللغة يبحث في أفق أوسع ومن وجهة نظر أعم وأوسع مستفيداً من الموازنات بين اللغات المختلفة في طرائق تركيبها للكلام، وملاحظاً اختلاف الشعوب في طرائق تعبيرها وهو بحث لا يزال ينتظر جهد الباحثين في اللغة العربية وقد ألمَّ ببعض جوانبه البحاثة الكبير الأستاذ العقاد في فصول موجزة من كتابه «أشتات مجتمعات»[١] وسأل الله أن يتيح له الفرصة لدراسة الجملة العربية وخصائصها وأنواعها[٢].

إن خصائص اللغة العربية لا تنحصر في ألفاظها ودلالتها وإنما تتجلى أيضاً في تراكيبها وأساليبها، وقد تعرض ابن جني لبعض تلك الخصائص وقال: «إنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والارهاف والرقة ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلو السحر»[٣]. ولكن هذه الخصائص لم تدرس دراسة حديثة على الرغم من الجهود التي بذلها النحاة والبلاغيون، وهي خصائص كثيرة من أبرزها الإيجاز الذي يعدّ من أهم سمات الكلام البليغ، وقد قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي: «ما تعدّون البلاغة فيكم؟» قال: «الإيجاز»، قال له معاوية: «وما الإيجاز؟» قال صحار: «أن تجيب فلا تبطىء وتقول فلا تخطىء»[٤]. ولذلك وصف كلام العرب بالإيجاز وإن كانوا يطيلون عند اقتضاء الكلام، فقد قيل لأبي عمرو: «أكانت العرب تطيل؟»، فقال: «نعم لتبلغ». قيل: «أفكانت توجز؟»، قال: «نعم ليحفظ عنها»[٥]. وتعرض المعاصرون لهذه السمة الواضحة في العربية وتحدثوا عن الإيجاز في حروفها

---

(١) فقه اللغة ص ٧.
(٢) فقه اللغة ص ٣٣٩، خصائص العربية ص ٧٧.
(٣) الخصائص ج ١ ص ٤٧.
(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ٩٦.
(٥) الخصائص ج ١ ص ٨٣.

وألفاظها وتراكيبها منطوقة ومكتوبة، وقارنوا بينها وبين اللغات الأجنبية[1]، وانتهوا إلى أنها لغة متقدمة بين لغات العالم وأنها بهذا الإيجاز حققت كثيراً من الأهداف واختصرت كثيراً من الجهد والوقت والمال.

ومن خصائص العربية في التراكيب ما تحدث عنه المستشرق برجستراسر Bergstraesser وأهمها ثلاث مسائل:

الأولى: ضمير الشأن، قال: «ومن خصائص العربية أن مبتدأ الجملة الإسمية المركبة ربما كان ضميراً للغائب لا علاقة له بالجملة الخبرية ولا راجع إليه فيها، وهذا ما سماه النحويون ضمير الشأن نحو ﴿إنه لا يُفلح الظالمون﴾[2]، وأكثر ذلك بعد «إنَّ» كما في هذا المثال أو بعد «أنَّ». وفائدة هذا التركيب أنه يمكن الناطق من إدخال «إنَّ» و«أَنَّ» على الجملة الفعلية نحو ﴿لا يفلح الظالمون﴾. **فهذا مما يشهد** بمزية العربية شهادة مبينة فغيرها من اللغات السامية قد يقدم أمثال «إنّ» على الجمل الفعلية وإن كان موضعها الأصلي أول الجملة الإسمية فقط. والعربية أعدمت الشواذ وأقست قاعدة إلحاق «إنّ» وأخواتها بالجمل الإسمية فقط، وهي مع ذلك اخترعت وسيلة لقلب الجملة الفعلية إسمية بغير تغيير تركيبها ليمكن إلحاق «إنَّ» وأخواتها بالجملة الفعلية بواسطة لا مباشرة، ومبتدأ الاسم منصوب بعد «إنَّ» وأخواتها. وكثرة ذلك من خصائص العربية مع كون أصله سامياً شائعاً في غير العربية أيضاً»[3].

الثانية: نائب الفاعل، قال: «والجملة الفعلية أبسط تركيباً من الجملة الإسمية، ولا ينبغي لنا أن نتكلم عنها تفصيلاً بل يكفي الكلام عن مسألة واحدة من مسائلها وهي مسألة الفعل المعلوم الفاعل أو المسند. أما الأول فهو فعل ما لا يسمى فاعله نحو «ضُرِبَ زيدٌ» فهو معدوم الفاعل وليس بمعدوم المسند إليه فنراه أسند إلى «زيد» وهو مفعوله، فإذا نقلنا جملة «ضربت زيداً» إلى ما لم يُسَمَّ فاعله صار المفعول وهو «زيد» مسنداً إليه. وحذف الفاعل في

(١) ينظر نحو وعي لغوي ص ٦٢ وما بعدها.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٢١، ١٣٥. يوسف، الآية ٢٣. القصص، الآية ٣٧.

(٣) التطور النحوي ص ٩١.

العربية قد يسند فعل ما لم يُسَمَّ فاعله في بعض الأوقات إلى ما لم يكن مفعولاً بل كان منصوباً غير مفعول نحو «سير فرسخان» أصلها «ساروا فرسخين»، و «صيم رمضان» أصلها «صاموا رمضان» ولا نظير لذلك في غير العربية. وحذف الفاعل عند نقل الجملة إلى ما لم يسمَّ فاعله هو الأصل في اللغات السامية بخلاف اللغات الهندية والإيرانية والغربية. ونرى فيها أن الفاعل لا يحذف عند النقل إلى ما يسمى فيها صيغة التأثر بل يضم الفعل بواسطة أداة خاصة بهذه الوظيفة. مثال ذلك في الفرنسية:

«Il a été frappé par moi».

وفي الإنكليزية:

«He has been beaten by me»[1].

الثالثة: إسناد الفعل أو الخبر إلى ظرف الزمان، قال: «ومن غرائب العربية التي تتميز بها ليس عن سائر اللغات السامية فقط بل عن أكثر اللغات على العموم إسناد الفعل أو الخبر إلى ظرف زمان نحو «إذا ما نام ليل الهوجل» أي: إذا نام البطيء والأحمق ليله. ومن مثل ذلك أخذ وصف الزمان بالفعل نحو «يوم عاصف» وإضافة الفعل إليه نحو «مَكْرُ الليل والنهار»[2]. ومن أبرز خصائص العربية المرتبطة بحرية الكلام والتوسع في طرائق التعبير، الإعراب وهو «الإبانة عن المعاني بالألفاظ»[3] وبه «تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين»[4]. والإعراب مهم في اللغة العربية لأنه يحدد المعاني وذلك لأن «الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافاً إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلّة على هذه المعاني بل كانت مشتركة جعلت حركات الإعراب فيها تنبىء عن هذه المعاني»[5].

ويكاد معظم المهتمين باللغة العربية وفقهها يجمعون على أن الإعراب

---

(١) التطور النحوي ص ٩١ ـ ٩٢.
(٢) التطور النحوي ص ٩٣، والآية من سورة سبأ وهي رقم ٣٣.
(٣) الخصائص ج ١ ص ٣٥.
(٤) الصاحبي ص ١٩٠، المزهر ج ١١ ص ٣٢٩، في النحو العربي ص ٦٥.
(٥) الإيضاح في علل النحو ص ٦٩.

سمة واضحة من سماتها وأنه ضروري وأن إلغاءه يؤدي إلى اللبس في الكلام أو جمود العربية في تراكيبها وقتل الطاقة الكامنة فيها. قال أحمد بن فارس: «من العلوم الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ وبه يصرف الخبر الذي هو أصل الكلام. ولولاه ما ميّز فاعل من مفعول ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام ولا صَدْر من مصدر ولا نعت من تأكيد»[١]. وقال عبد القاهر الجرجاني وهو يتحدث عن النحو: «إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وإن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وإنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلّا من ينكر حسّه وإلّا من غالط في الحقائق نفسه»[٢]. وعدّه العقاد «آية السليقة الغنية في التراكيب العربية المفيدة، توافرت لها جملاً مفهومة بعد أن توافرت لها حروفاً تجمع مخارج النطق الإنساني على أفصحها وأوفاها وبعد أن توافرت لها مفردات ترتبط فيها المعاني بضوابط الحركات والأوزان»[٣].

وليس الإعراب ـ كما يتوهم دعاة العامة أو أنصار الأخذ باللغات الأعجمية أو المتأثرون بالدراسات الأجنبية ـ «زخرفاً يزين به الكلام، وإنما هو عنصر أساسي في بنائه إذا حذف منه سقط جزء من المعاني وضاع كثير من الفروق بين تعابير يختلف معناها باختلاف الاعراب وحده. ولا بدَّ حين يحذف الإعراب من الاستعاضة عنه بما يؤدي وظيفته في أصل الكلام وبنائه، وفي ذلك تغيير لبناء اللغة وتركيبها»[٤]. وليس الإعراب قصة «استحدثت خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية ثم حيكت وتمَّ نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الأول الهجري أو أوائل الثاني»[٥] بل هو عمدة في

---

(١) الصاحبي ص ٧٧، وينظر المزهر ج ١ ص ٣٢٧.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) اللغة الشاعرة ص ٢٠.
(٤) خصائص العربية ص ١٠، فقه اللغة ص ٢٤١.
(٥) من أسرار اللغة ص ١٨٢.

اللغة العربية ولذلك اهتم به القدماء والمعاصرون ووقفوا على جوانبه المختلفة وإن خرج بعضهم عن روح العربية ودعا إلى حذف الإعراب جهلاً أو تأثراً باللغات الأجنبية على الرغم من أنه «ميزة حافظت عليها اللغة في تأريخها الطويل وينبغي أن تبقى محافظة عليها، وذلك لأنه في الحقيقة وسيلة تعيين الوظائف النحوية للألفاظ في الجمل. . . وبفضل الإعراب يستطيع الكاتب أو المتحدث أن يتصرف بالجملة فيراعي دواعي التقديم والتأخير دون أن يبقى أسيراً للحجرات النحوية الثابتة»[1]. ولعل أسلوب التقديم والتأخير في العربية أصدق دليل على أهمية الإعراب الذي لولاه لأصبحت اللغة جامدة ولفقدت حريتها في التعبير وقدرتها على التفنن في القول. يقول الدكتور مهدي المخزومي: «للعربية سمة تميزها من اللغات الإعرابية، وما دام للكلمة مثل هذه السمة فلها من الحرية في التنقل في أثناء الجملة ما لم يكن لغيرها من الكلمات في غير العربية. والقيمة النحوية للكلمة الأجنبية إنما تتحدد بموضعها المخصص لها في الجملة فإذا زحزحت عن مكانها خرجت عن صفتها واتخذت لها صفة أخرى يحددها موضعها الجديد. فالكلمة المرفوعة أي المضمومة الآخر هي المسند إليه أو التابع للمسند إليه وليس لها موضع محدد لها بحيث لا تفارقه، فهي تتصدر الجملة حيناً وتتأخر حيناً، ثم تتوسط أجزاء الجملة حيناً آخر ولا تخرج عن كونها مسنداً إليه مهما يتغير موضعها في الجملة ما دامت مرفوعة. والكلمات المنصوبة أي المفتوحة الآخر إنما هي من متعلقات الفعل أو من متعلقات الجملة، وهي إذا كانت مفعولاً مثلاً فهي مفعول في موضعها اللغوي المألوف، وهي مفعول إذا تقدمت وهي مفعول أيضاً إذا توسطت أجزاء الجملة الأخرى. والكلمة المخفوضة أي المكسورة الآخر مضاف إليه أو تابع للمضاف إليه ولا يخرجها عن كونها كذلك انتقالها من موضعها ما دامت تحمل معها ما يدل على قيمتها النحوية وهي الكسر»[2].
أي أن الأعراب «صمام الأمان حين تشتبه علينا الأمور وتتعقد بسبب ما يقع من

---

(١) نحو وعي لغوي ص ١٠٦، وينظر دراسات في فقه اللغة ص ١١٨، في بناء الجملة العربية ص ١٢١.

(٢) في النحو العربي ـ قواعد وتطبيق ـ ص ٨٧.

تغيير أو تبديل غير مألوف في مواقع الكلمات»[1].

التقديـم والتأخيـر:

يقع التقديم والتأخير في الجملة، والجملة أصغر وحدة يتم بها معنى الكلام، ولا بدَّ من أن يكون فيها مسند ومسند إليه أي: فعل وفاعل، أو مبتدأ وخبر. قال سيبويه: «هذا باب المسند والمسند إليه وهما مما لا يغني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم فيه بدّاً»[2].

والجملة العربية ثلاثة أقسام:

الأول: الإسمية وهي التي صدرها اسم مثل «زيد قائم».

الثاني: الفعلية وهي التي صدرها فعل مثل «قام زيد».

الثالث: الظرفية وهي المصدرة بظرف أو جار ومجرور مثل «أعندك زيد؟» و«أفي الدار زيد؟».

والعبرة عند ابن هشام في هذه الأقسام بصدر الجملة، قال: «مرادنا بصدر الجملة المسند أو المسند إليه فلا عبرة بما تقدم عليهما من الحروف. فالجملة من نحو «أقائم الزيدان؟» و«أزيد أخوك» و«لعل أباك منطلق» و«ما زيد قائماً» إسمية. ومن نحو «أقام زيد؟» و«إن قام زيد» و«قد قام زيد» و«هلّا **قمت؟**» فعلية. والمعتبر أيضاً ما هو صدر في الأصل، فالجملة من نحو «كيف جاء زيد؟» ومن نحو ﴿ فأيَّ آيات الله تُنكرون ﴾[3] ومن نحو ﴿ ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون ﴾[4] و﴿ خُشّعاً أبصارُهم يخرجون ﴾[5] فعلية؛ لأن هذه الأسماء في نية التأخير. وكذا الجملة في نحو «يا عبدالله» ونحو ﴿ وإنْ أَحَدٌ من المشركين استجارك ﴾[6] و﴿ الأنعامَ خلقها ﴾[7] و﴿ والليلِ

---

(١) دراسات في علم اللغة ـ القسم الثاني ـ ص ١٣٨.

(٢) الكتاب ج ١ ص ٢٣.

(٣) سورة غافر، الآية ٨١.

(٤) سورة البقرة، الآية ٨٧.

(٥) سورة القمر، الآية ٧.

(٦) سورة التوبة، الآية ٦.

(٧) سورة النحل، الآية ٥.

إذا يغشى ﴾[1] فعلية؛ لأن صدورها في الأصل أفعال، والتقدير: «أدعو زيداً» و «إن استجارك أحد» و «خلق الأنعام» و «أقسم والليل»[2].

وهذا ما قاله معظم النحاة والباحثين، أي أن الجملة المبدوءة بالمبتدأ تكون إسمية والمبدوءة بالفعل تكون فعلية. ويرى برجستراسر أن الجملة «مركبة من مسند ومسند إليه، فإن كان كلاهما اسماً أو بمنزلة الاسم فالجملة إسمية، وإن كان المسند فعلاً أو بمنزلة الفعل فالجملة فعلية»[3]. أي أن العبرة ليست في التقديم والتأخير وإنما في ركني الإسناد، وإلى ذلك ذهب الدكتور مهدي المخزومي وقال: إن الجملة الفعلية هي «الجملة التي يكون فيها المسند دالاً على التغير والتجدد، أو بعبارة أخرى هي التي يكون فيها المسند فعلاً». والجملة الإسمية هي «الجملة التي يكون فيها المسند دالاً على الدوام، أو بعبارة أخرى هي التي لا يكون فيها المسند فعلاً». والجملة الظرفية هي «الجملة التي يكون فيها المسند ظرفاً أو مضافاً إليه بالأداة»[4]. ولا يؤثر هذا الاختلاف في تحديد أنواع الجمل في بناء الجملة العربية كثيراً؛ لأن الأصل في الجملة الفعلية أن يتقدم الفعل ويليه الفاعل، والأصل في الجملة الاسمية أن يتقدم المبتدأ ويليه الخبر. وهذه هي البنية الأساسية للكلام، ولكن العربية لم تتقيد بهذا النظام الصارم وإنما كانت لها حرية واسعة في التقديم والتأخير ولا سيما الجملة الإسمية التي لا ينتج التقديم والتأخير فيها صوراً ممنوعة لغوياً[5]. وليس في اللغات الأوربية مثل هذه الحرية فالجملة فيها «اسمية يتقدم فيها الفاعل على الفعل ولا يتقدم الفعل فيها إلّا شذوذاً في حالات قليلة جداً أهمها حالة الدلالة على المفاجأة ووقوع الفعل على غير انتظار. فإذا تقدم الفعل لمثل هذا السبب فهم لا يجعلون ذلك قسماً معدوداً من أقسام التركيب اللفظية أي أنهم لا يقسمون الجملة إلى

---

(١) سورة الليل، الآية ١.

(٢) مغني اللبيب ج ٢ ص ٣٧٦.

(٣) التطور النحوي ص ٨١.

(٤) في النحو العربي ـ قواعد وتطبيق ـ ص ٨٦، في النحو العربي ـ نقد وتوجيه ـ ص ٣١.

(٥) تنظر هذه الصور في كتاب في بناء الجملة العربية ص ٥٠ وما بعدها.

إسمية وفعلية من أجل ذلك ولكنهم يحسبونه عارضاً من عوارض القلب «inversion» التي يحدث فيها أن يتقدم الفعل على الفاعل كما يتقدم حرف الجر أو الظرف أو الصفة لمناسبة يقتضيها التعبير»[١]. فالاكتفاء بالجملة الإسمية في كلام الأوربيين نقص وليس بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء، وليس في «وسع من يفهم مواقع الكلم أن يجهل الفارق بين قولنا: «محمد حضر» وقولنا: «حضر محمد». فإننا نقول: «محمد حضر» إذا كنا ننتظر خبراً عن محمد أو عن حضوره على الخصوص ولكننا نقول: «حضر محمد» لمن يسمع خبراً من الأخبار على إطلاقه ولا يلزم أن يكون الخبر عن محمد ولا عن الحضور بل لعل السامع كان ينتظر كلاماً عن حسن وعن علي كما ينتظر عن محمد، أو لعله خبر سفر وليس بخبر حضور منتظر أو غير منتظر. وأوسع من ذلك في وسائل التفرقة أن اللغة العربية تسمح بابتداء الجملة بحرف الجر وتؤدي بذلك معنى تحسبه الأجرومية الأوربية مجرداً من الكلام المفيد. فإذا قال العربي: «في الدار رجل» فهو كلام مفيد لأنه يشتمل على تنبيه لا يؤديه هذا الأداء قول الرجل: «رجل في الدار». أما هذه العبارة بعينها في اللغات الأوربية فهي لفظ غير مفيد «Phrase» سواء تقدم حرف الجر أو كان التقديم للرجل أو للدار في تركيب من التراكيب كقول القائل: «الدار فيها رجل» أو «الدار رجل فيها» وهو تركيب سائغ عند الأوربيين»[٢].

فاللغات الأوربية كالفرنسية والإنكليزية يستقر فيها نظام الجملة استقراراً يكاد يقرب من الجمود، وليس «للمتكلم بإحدى هاتين اللغتين أن ينتقل بالكلمة من مكانها المعين في الجملة»[٣] إلا في أضيق الحدود، وليست كذلك لغة العرب فإن جملها صيغت بصور متعددة تدل على الرقي الذي تتمتع به والحرية التي تطلق القول فيهز النفوس ويقع في القلوب موقعاً حسناً.

إن التقديم والتأخير في العربية لون من ألوان حريتها وخاصية من

---

(١) أشتات مجتمعات ص ٥٦.

(٢) أشتات مجتمعات ص ٦٠ - ٦١.

(٣) من أسرار اللغة ص ٢٧٧.

خصائصها[١] وهو من سنن العرب في كلامها لما له من أهمية في دقة التعبير وحسن الأداء. وقد تحدث النحاة عن تأثير الترتيب في صورة الجملة ومعناها فقال سيبويه: «وتقول: «ما كان فيها أحد خير منك» و«ما كان أحد مثلُك فيها» و«ليس أحدٌ منها خير منك» إذا جعلت فيها مستقراً[٢] ولم تجعله على قولك: «فيها زيد قائم» أجريت الصفة على الاسم. فإن جعلته على قولك: «فيها زيد قائم» نصبت، تقول: «ما كان فيها أحدٌ خيراً منك» و«ما كان أحد خيراً منك فيها» إلاّ أنك إذا أردت الإلغاء فكلما أخّرت الذي تلغيه كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقراً تكتفي به فكلما قدّمته كان أحسن؛ لأنه إذا كان عاملاً في شيء قدّمته كما تقدم «أظن» و«أحسب» وإذا ألغيت أخّرته كما تؤخرهما لأنهما ليس يعملان شيئاً». والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً في العناية والاهتمام، مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول. وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير، فمن ذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿ولم يكن له كُفُواً أحد﴾[٣] وأهل الجفاء من العرب يقولون: «ولم يكن كفواً له أحد» كأنهم أخروها حيث كانت مستقرة»[٤]. وأدخله ابن جني في باب «شجاعة العربية» وقال إنه على ضربين:

أحدهما: ما يقبله القياس.

والآخر: ما يسهله الاضطرار[٥].

والتقديم والتأخير تغيير لبنية التراكيب الأساسية، أو هو عدول عن الأصل يكسبها حرية ودقة، ولكن هذه الحرية غير مطلقة، وقد حدّد النحاة الأشياء التي لا يجوز تقديمها وهي ثلاثة عشر:

---

(١) الصاحبي ص ٤١، ٢٤٦، سر العربية ص ٣٠٢، ٣٢٢.

(٢) يسمى الظرف الواقع خبراً مستقراً؛ لأنه يقدر بـ«استقر» وإن لم يكن خبراً سماه لغواً.

(٣) سورة الإخلاص، الآية ٤.

(٤) الكتاب ج ١ ص ٥٥ ـ ٥٦.

(٥) الخصائص ج ٢ ص ٣٨٢، وتنظر ص ٣٦٠ أيضاً.

١ ـ الصلة على الموصول.

٢ ـ المضمر على الظاهر في اللفظ والمعنى إلّا إذا كان على شريطة التفسير.

٣ ـ الصفة وما اتصل بها على الموصوف، وجميع توابع الاسم حكمها كحكم الصفة.

٤ ـ المضاف إليه وما اتصل به على المضاف.

٥ ـ ما عمل فيه حرف أو اتصل به حرف زائد لا يقدم على الحرف، وما شبّه من هذه الحروف بالفعل فنصب ورفع فلا يقدم على منصوبها.

٦ ـ الفاعل لا يقدم على الفعل.

٧ ـ الأفعال التي لا تتصرف لا يقدم عليها ما بعدها.

٨ ـ الصفات المشبهة بأسماء الفاعلين والصفات التي لا تشبه أسماء الفاعلين لا يقدم عليها ما عملت فيه.

٩ ـ الحروف التي لها صدر الكلام لا يقدم ما بعدها على ما قبلها.

١٠ ـ ما عمل فيه معنى الفعل فلا يقدم المنصوب عليه.

١١ ـ لا يقدم التمييز وما بعد «إلّا».

١٢ ـ حروف الاستثناء لا تعمل فيما قبلها.

١٣ ـ لا يقدم مرفوعه على منصوبه ولا يفرق بين الفعل العامل والمعمول فيه بشيء لم يعمل فيه العامل إلّا الاعتراضات(١).

ويجوز تقديم غير ذلك إذا كان الكلام دالاً على المعنى، قال المبرد: «وإنما يصلح التقديم والتأخير إذا كان الكلام موضحاً عن المعنى نحو «ضرب زيداً عمرو» لأنك تعلم بالإعراب الفاعل والمفعول»(٢). ولذلك أوضح النحاة كل ما يتصل بهما في أبواب كتبهم وحددوا ما تقديمه أو تأخيره واجب أو جائز. ومن ذلك الفاعل فإنهم يرون أن الأصل فيه أن يتأخر عن الفعل فإذا تقدم عليه كان مبتدأ، قال ابن جني: «وكما لا يجوز تقديم الفاعل على الفعل

---

(١) الأصول في النحو ج ٢ ص ٢٣١، الأشباه والنظائر ج ١ ص ١٤٠.

(٢) المقتضب ج ٣ ص ٩٥.

فكذلك لا يجوز ما أقيم مقام الفاعل كـ «ضُرب زيد». وبعد فليس في الدنيا مرفوع يجوز تقديمه على رافعه»[1]، غير أن الكوفيين أجازوا التقديم[2] لورود ذلك عن العرب كقول الزباء:

ما للجمالِ مَشْيُها وئيدا أجَنْدلاً يحملن أم حديدا

فإن «مشيها» عندهم فاعل للصفة «وئيداً» وعند غيرهم بدل من «الجمال»[3]؛ لأن الأصل في الفاعل أن يلي الفعل لأنه كالجزء منه؛ ولأن تقديمه يوقع في اللبس بينه وبين المبتدأ[4]. فتقديم الفاعل على فعله ليس بالجيد عند معظم النحاة وإن كان الإسناد لا يتغير، وقد جاء التقديم في باب ما يحتمل الشعر فقال سيبويه: «ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه لأنه مستقيم ليس فيه نقض، فمن ذلك قوله:

صَدَدْتِ فأطولْتِ الصدودَ وقلّما وصالٌ على طول الصدود يدوم

وإنما الكلام: «وقلما يدوم وصال»[5].

وتقديم الفعل أو تأخيره في الجملة ليس مسألة إعراب واختلاف فيه، وإنما يرجع ذلك إلى المعنى، فهو الذي يحدد تركيب الجملة ويوجب البدء بالفعل أو بالاسم. وقد أشار العقاد إلى الفرق بين قولنا: «محمد حضر»، وقولنا: «حضر محمد»[6]. وقال برجستراسر وهو يتحدث عن تقديم الفاعل: «وأما تقديم الفاعل في الجملة الفعلية فلا يقرره النحويون بل يحسبونه مثل «زيد جاء» جملة ذات وجهين، أي جملة إسمية مبتدؤها «زيد» وخبرها جملة فعلية وهي «جاء» على قياس مثل «زيد رأيته اليوم» معناها: أما زيد فرأيته

---

(١) الخصائص ج ٢ ص ٣٨٥.

(٢) ينظر شرح جمل الزجاجي ج ١ ص ١٥٩، الموفي ص ١٨.

(٣) ينظر أمالي الزجاجي ص ١٦٦.

(٤) المقتضب ج ١ ص ١٦، ج ٤ ص ١٢٨، اللمع ص ٣١، المفصل ص ١٨، الإيضاح في شرح المفصل ج ١ ص ٧٥، أسرار العربية ص ٧٩، شرح المفصل ج ١ ص ٧٥، أسرار العربية ص ٧٩، شرح ابن عقيل ج ١ ص ٤٦٥، شرح الأشموني ج ١ ص ١٦٩.

(٥) الكتاب ج ١ ص ٣١.

(٦) أشتات مجتمعات ص ٦٠، وقد تقدم كلام العقاد.

اليوم. فكان ينبغي على هذا القياس أن يكون معنى «زيد جاء» هو «إما زيد فجاء» وهذا ليس بمحال. وقد يوجد أحياناً غير أن الأكثر والأقرب إلى الاحتمال هو أن يكون معنى «زيد جاء» عين معنى «جاء زيد» وإنما الفرق بينهما اني إذا قلت: «جاء زيد» أخبرت عن مجيئه اخباراً محضاً لا يخالطه شيء غيره، فتقدير الفعل هو العبارة المألوفة. وإذا قلت: «زيد جاء» كان مرادي أن أنبه به السامع إلى أن الذي جاء هو زيد كأني قلت: «زيد جاء لا غيره». فتقديم الفاعل عبارة عن الأهم كون زيد هو الفاعل لا كونه فعل الفعل، وما ينبه به السامع عن هذا المعنى الخاص شيئان:

الأول: تغيير الترتيب العادي فكل شيء يخالف العادة هو أكثر تأثيراً في الفهم من المألوف.

والثاني: أن أول كلمة في الجملة هي على العموم المضغوطة في اللغة العربية إذا صرفنا نظرنا عما نبتدىء به الجملة في الأدوات كأنّ وأخواتها إلى غير ذلك. وقد يكون آخر الجملة أشدّ ضغطاً من أولها وذلك إذا قدمت كلمة «إنما» فهي تغير نظام ضغط الجملة وتنقل أقوى الضغط إلى آخرها. مثاله في القرآن الكريم: ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾[1] وضدها «أما» فهي تشدد الضغط على أول الجملة. فاللغات تتخالف تخالفاً ظاهراً في هذا الباب فترتيب الكلمات في الجملة مقيد في بعضها واختياري في بعضها. مثال النوع الأول اللغة الفرنسية فنرى فيها لكل جزء من الجملة موضعاً لا يمكن نقله عنه إلّا في القليل من الحالات، ومثال النوع الثاني الألمانية فقواعد ترتيب الكلمات فيها قليل والشواذ منها كثير. فلغة من أشباه الفرنسية لا تتمكن من تغيير ترتيب الكلمات للتنبيه على المهم منها فتحتاج إلى وسائط أخرى منها في الفرنسية تغيير تركيب الجملة، فإني مثلاً إذا ترجمت «جاء زيد» إلى الفرنسية قلت: «Zaid est Venu»، وإذا ترجمت «زيد جاء» قلت: «C'est Zaid qui Venu» . فالعربية متوسطة بين النوعين المذكورين من اللغات فقيّد فيها تركيب الكلمات في كثير من الحالات كتقديم الموصوف على الصفة

---

(١) سورة يونس، الآية ٢٣.

والمضاف على المضاف إليه إلى آخره، وهو اختياري في بعضها كما ذكرنا في تقديم الفاعل على الفعل. وأمثال هذا أقل بكثير من أمثال ذلك في العربية، وقواعد الترتيب قاسية فيها، فالعربية أقرب إلى الفرنسية في ذلك منها إلى الألمانية وهي أشد اللغات السامية تقييداً لترتيب الكلمات»[1].

والأصل في الجملة تقديم الفاعل وتأخير المفعول، ولا يتأخر إلاّ في أحوال منها:

١ ـ إن أسلوب الحصر أو القصر كقوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلاّ الله﴾[2].

٢ ـ طول الكلام مع الفاعل وتوابعه مما يغمر المفعول به ولا تتبينه حين يتأخر كقوله تعالى: ﴿وإذا حَضَر القسمةَ أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم﴾[3].

٣ ـ اشتمال الفاعل على ضمير يعود على المفعول كقوله تعالى: ﴿هذا يَوْمُ ينفعُ الصادقين صدقُهم﴾[4].

وذكر الدكتور إبراهيم أنيس أنه «ليس يشفع في انحراف الفاعل عن موضعه ما ساقه سيبويه من حديث عن العناية والاهتمام بالمتقدم إذ كما قال الجرجاني لم يذكر في ذلك مثالاً وكذلك لا يشفع في هذا الانحراف فلسفة عبد القاهر حين أراد توضيح معنى الاهتمام بعبارته المشهورة: «قتل الخارجيَّ زيدٌ». فالحلال بيّنٌ والحرام بيّنٌ، والأساليب التي يسبق فيها المفعول فاعله واضحة جليّة وفي غيرها لا يصحّ أن يغير أحدهما مكانه. فما قاله النحاة من جواز تقدم المفعول على فاعله حين يؤمن اللبس لا مبرر له من أساليب صحيحة ولا يعدو أن يكون رخصة مَنَّ بها علينا النحاة دون حاجة ملحّة إليها، غير أنا قد نقبلها في الشعر وذلك لأن للشعر أسلوبه الخاص»[5]. وذكر أنواعاً

(١) التطور النحوي ص ٨٦ ـ ٨٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٧.
(٣) سورة النساء، الآية ٨.
(٤) سورة المائدة، الآية ١١٩.
(٥) من أسرار اللغة ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

أخرى لتقديم المفعول وأرجعها إلى الفاصلة والحرص على موسيقاها كقوله تعالى: ﴿ فأوجَسَ في نفسه خيفةً موسى ﴾[1]، وقوله: ﴿ فلما جاء آلَ لوطٍ المرسَلون ﴾[2] أو مجيء اسم الإشارة كما في قوله تعالى: ﴿ أنّى يُحيـي هذه اللهُ بَعْد موتها ﴾[3] فتجرده من المشار إليه وصغر بنيته جعله كضمير متصل فعومل في الآية كما عومل الضمير المتصل ولذلك ولي الفعل مباشرة وارتبط به ارتباط الضمائر المتصلة أو كراهية الكلمة ونفور النفس منها كلفظة «الموت» في قوله تعالى: ﴿ أم كنتم شهداءَ إذ حَضَر يعقوبَ الموتُ ﴾[4] ولفظة «الضر» في قوله: ﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضرُّ دعانا لجنْبه ﴾[5]. وليس التقديم في هذه الأمثلة بواجب كالأنواع الثلاثة ولكنه مما يدخل في باب حرية الجملة العربية، وهو غير ما أراده الدكتور إبراهيم أنيس وحدّده منهجه في دراسة اللغة، وهو منهج صارم لا يهتم بالنظم والاتساق في العبارة كثيراً ولا يلتفت إلى ما يريده المعنى ويهدف إليه، بل لا يلتفت إلى ما جاء في كتب النحاة مثل: «ضرب زيداً عبدُ الله» وكان سيبويه قد قال عنه: «وهو عربي جيد كثير كأنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى»[6]. وقال ابن جني: «إن المفعول قد شاع واطرد من مذاهبهم كثرة تقدمه على الفاعل حتى دعا ذلك أبا علي إلى أن قال: إن تقدم المفعول على الفاعل قسم برأسه كما أن تقدم الفاعل قسم أيضاً قائم برأسه وإن كان تقديم الفاعل أكثر. وقد جاء به الاستعمال مجيئاً واسعاً نحو قول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾[7] وقول ذي الرمة:

اسْتَحدَثَ الركبُ من أشياعهم خبراً   أم عاوَدَ القَلْبَ من أطرابه طربُ

---

(١) سورة طه، الآية ٦٧.

(٢) سورة الحجر، الآية ٦١.

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٥٩.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٣٣.

(٥) سورة يونس، الآية ١٢.

(٦) الكتاب ج ١ ص ٣٤.

(٧) سورة فاطر، الآية ٢٨.

ثم قال: «والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر فلما كثر وشاع تقديم المفعول على الفاعل كان الموضع له حتى إنه إذا أخّر فموضعه التقديم»[1]. ولكنه لا يقدم إذا خيف اللبس وذلك إذا كان الفاعل والمفعول مما لا يظهر فيهما الإعراب مثل: «ضرب موسى عيسى» فإن الفاعل هو «موسى» والمفعول هو «عيسى» أي أن الفاعل في مثل هذه الجملة يكون مقدماً ولكنه يجوز في مثل: «أكل يحيى كمثرى» أن يقال: «أكل كمثرى يحيى» لأن الفاعل معروف سواء تقدم أم تأخر[2].

وشاع في لسان العرب تقديم المفعول المشتمل على ضمير يرجع إلى الفاعل المتأخر مثل: «خاف ربَّه عمر» قال ابن عقيل: «وإنما جاز ذلك ـ وإن كان فيه عَود الضمير على متأخر لفظاً ـ لأن الفاعل على منويّ التقديم على المفعول؛ لأن الأصل في الفاعل أن يتصل بالفعل فهو متقدم رتبةً وإن تأخر لفظاً»[3]. وقد يتقدم المفعول على الفعل وجوباً كأنْ يكون اسم شرط أو كم الخبرية أو الاستفهامية أو إذا كان ضميراً منفصلاً. وقد يلزم تأخيره كأن يكون ضميراً متصلاً أو يكون العامل غير متصرف، وقد يجوز فيه التقديم والتأخير في غير المواضع التي ذكرها النحاة[4].

ويتبع الفاعل في التقديم والتأخير نائبه ويجوز فيه ما جاز في ذلك، يقال: «أعطي زيدٌ درهماً» و«أعطى درهماً زيدٌ» و«درهماً أعطي زيدٌ» و«زيدٌ أعطي درهماً»[5]. وقد عزا بعض الغربيين تأخير الفاعل في العربية إلى نوع من القدرية الشرقية التي تحيل كل شيء إلى الغيب، وقال بعضهم إن الاختلاف بين الأوربيين وأبناء اللغة العربية في مسألة الجملة الإسمية إنما هو

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٧.
(٢) ينظر الخصائص ج ١ ص ٣٥، الأشباه والنظائر ج ٢ ص ٤٩.
(٣) شرح ابن عقيل ج ١ ص ٤٩٣.
(٤) ينظر المقرب ج ١ ص ٥٥، الأشباه والنظائر ج ٢ ص ٦٣، همع الهوامع ج ٣ ص ٩، شرح ابن عقيل ج ١ ص ٤٨٤، شرح جمل الزجاجي ج ١ ص ١٦٤، النحو الوافي ج ٢ ص ٨٩.
(٥) المقتضب ج ٤ ص ٥٣.

اختلاف في درجة الشعور بالثبوت للشخصية الإنسانية، فإن ثبوت هذه الشخصية ملازم للتفكير الأوربي ولكنه ضعيف عند العرب يسري ضعفه من الفكر إلى اللسان كما يظهر من غلبة الجملة الإسمية على ألسنة الأوربيين وغلبة الجملة الفعلية على ألسنة الناطقين بالضّاد. وهذا تفسير عجيب انبرى له العقاد فقال: «لا يخفى أن هذا الاختلاف بين لغة الضاد واللغات الأوربية له دلالته التي لا ريب فيها ولا يمكن أن يحدث لغير سبب يقبل التعليل كما تقبله جميع الظواهر اللغوية على حسب نصيبها من الجلاء أو الغموض في مراحلها التأريخية إلّا أن التعليل الذي يرتضونه لهذا الاختلاف غير مقنع وقد يكون مناقضاً للواقع عند التأمل فيه من بعض نواحيه»[١]. ثم قال بعد أن ناقش هذا الرأي مناقشة علمية: «إن الجملة الإسمية موجودة في اللغة العربية وليست مع وجودها قليلة الاستعمال في مواضعها، فليس تقديم الفعل على الفاعل فيها عجزاً عن التركيب الذي يتقدم فيه الفاعل على الفعل ولكنه تقسيم للكلام على حسب مواضعه وتصحيح لموقع الفعل وموقع الفاعل من إرادة المتكلم وفهم السامع. ومتى ثبت لنا الفرق بين موقع الفعل والفاعل في الجملتين الإسمية والفعلية فالاكتفاء بالجملة الإسمية كما تقع في كلام الأوربيين نقص منتقد وليس بالمزية التي تدل على الكمال والارتقاء. وليس في وسع من يفهم مواقع الكلم أن يجهل الفارق بين قولنا: «محمد حضر» وقولنا: «حضر محمد»[٢].

إن اللغة العربية واسعة وهي تعنى بالجمل الاسمية كما تعنى بالجمل الفعلية ولكل منهما دلالته في التعبير وهدفه في الأداء، ويدرك ذلك من تضلع بها وتذوّق أساليبها وفنونها، وإنه لغريب من الغربيين وأتباعهم أن يفسروا العربية هذا التفسير العجيب الذي لا ينبع من واقع الأمة العربية وروح لغتها المعطاء وإنما من نظرتهم إلى العرب وتصوراتهم المريضة.

ولم يشغل النحاة العرب أنفسهم بتقديم الفاعل أو المفعول حسب وإنما

(١) أشتات مجتمعات ص ٥٧.

(٢) أشتات مجتمعات ص ٥٧.

تحدثوا عن المفاعيل الأخرى وعقدوا مباحث لتقديم المبتدأ أو الخبر واسم «كان» وخبرها واسم «إنّ» وخبرها والتمييز والحال والاستثناء وغيرها من أجزاء الجملة الأساسية أو المتعلقة بها، وأبدوا الرأي فيها. وكانوا ينطلقون في ذلك كله من حرصهم على اللغة العربية وإظهار قدرتها على التوسع في أساليب التعبير، ولكنهم على الرغم مما بذلوا من جهد لم يعنوا كثيراً بالمعاني التي يؤديها التقديم والتأخير، ويبدو أن المعاني كانت واضحة عند المتقدمين لقربهم من عهد صفاء اللغة ومعرفة الفروق بين عبارة وأخرى. وقد دفع تأخر العهد ابن الخباز ـ أحد نحاة القرن السابع للهجرة ـ إلى أن يقول: «إن قلت: ما الفرق بين «زيد أخوك» و «أخوك زيد» قلت من وجهين:

أحدهما: إن «زيد أخوك» تعريف للقرابة و «أخوك زيد» تعريف للاسم.

والثاني: إن «زيد أخوك» لا ينفي أن يكون له أخ غيره لأنك أخبرت بالعام عن الخاص، و «أخوك زيد» ينفي أن يكون له أخ غيره لأنك أخبرت بالخاص عن العام. وهذا ما يشير إليه الفقهاء في قولهم: «زيد صديقي» و «صديقي زيد»[1].

وهذا حسن من ابن الخباز والفقهاء، لأن تركيب الجملة يحدد مغزاها، وقد اهتم البلاغيون بالتقديم والتأخير في دراستهم لعلم المعاني الذي هو «تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»[2]. وهذه هي معاني النحو أو توخيها، وقد بنى عبد القاهر نظرية النظم على هذا الأساس وحدّد النظم بقوله: «اعلم أن ليس النظم إلاّ أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخلّ بشيء منها»[3]. ولكن البلاغيين تجنبوا الكلام في الرتبة المحفوظة وتحدثوا عن غير

---

(١) الأشباه والنظائر ج ٢ ص ٢٢٢.

(٢) مفتاح العلوم ص ٧٧.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٦٤.

المحفوظة، قال الدكتور تمام حسان: «فإن علم المعاني يعدّ في هذه الحالات عالة على علم النحو، مثال ذلك أن النحاة حددوا الرتبة في الكلام وجعلوها محفوظة وغير محفوظة. وقد ارتضى علماء المعاني هذا التقسيم وتجنبوا الكلام في الرتبة المحفوظة لأنها ليست فطنة اختلاف الأساليب بسبب حفظها وثبات وضعها، وعمدوا إلى الرتبة غير المحفوظة فمنحوها دراسة أسلوبية هامة تحت عنوان «التقديم والتأخير». ومعنى هذا أن التقديم والتأخير البلاغي وثيق الصلة بقرينة الرتبة في النحو، ولكن لا يمس الرتبة المحفوظة لأنها محفوظة فلا تختلف فيها الأساليب»[1]. وقال: «ولكن دراسة التقديم والتأخير في البلاغة دراسة لأسلوب التركيب لا للتركيب نفسه، أي أنها دراسة تتم في نطاقين:

أحدهما: مجال حرية الرتبة حرية مطلقة.

والآخر: مجال الرتبة غير المحفوظة.

وإذن فلا يتناول التقديم والتأخير البلاغي ما يسمى في النحو باسم الرتبة المحفوظة لأن هذه الرتبة المحفوظة لو اختلت لاختلَّ التركيب باختلالها»[2].

وليس النحو دراسة التراكيب وحدها وإنما النظر فيما وراءها من مقاصد، ولذلك كان شديد الصلة بعلم المعاني كما ذهب إليه عبد القاهر والسكاكي اللذان ربطا بينهما ربطاً محكماً. وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى جعلهما علماً واحداً لتعود الروح إلى النحو بعد أن فقدها يوم شُغِل المتأخرون بالإعراب والبناء والعامل وتركوا ما وراء التركيب من أهداف. ومن ذلك التقديم والتأخير الذي هو «باب كثير الفوائد جمّ المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفترّ لك عن بديعة ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه فتجد سبب أنْ راقك ولطف عندك أن قدّم فيه وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان»[3]، وهو «أحد أساليب البلاغة فإنهم

---

(١) الأصول ص ٣٤١.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٠٧.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٨٣.

أتوا به دلالةً على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق»[1]، وهو «باب عريض يشتمل على أسرار دقيقة»[2]. وقد جعله عبد القاهر على وجهين:

الأول: تقديم على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقرّ مع التقديم على حكمه الذي كان عليه وفي جنسه الذي كان فيه كخبر المبتدأ إذا قدّم على المبتدأ والمفعول إذا قدّم على الفاعل مثل: «منطلق زيد» و «ضرب عمراً زيدٌ» فـ «منطلق» و «عمراً» لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه من كون هذا خبر مبتدأ أو مرفوعاً بذلـك وكون ذلك مفعولاً ومنصوباً من أجله كما يكون إذا أخّر.

الثاني: تقديم لا على نية التأخير ولكن على أن ينقل الشيء عن حكم إلى حكم ويجعل باباً غير بابه وإعراباً غير إعرابه، وذلك أن يؤتى إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ أو الآخر خبراً له فيقدم تارة هذا على ذاك وأخرى على هذا. ومثاله ما يصنع بـ «زيد» و «المنطلق» حيث يقال مرة «زيد المنطلق» وأخرى «المنطلق زيد». فـ «المنطلق» لم يتقدم على أن يكون متروكاً على حكمه مع التأخير فيكون خبر مبتدأ كما كان بل على أن نقل عن كونه خبراً إلى كونه مبتدأ. ولم يؤخر «زيد» على أن يكون مبتدأ كما كان بل على أن يخرج عن كونه مبتدأ إلى كونه خبراً. وأظهر من هذا «ضربت زيداً» و «زيد ضربته» لم يقدم «زيد» على أن يكون مفعولاً منصوباً بالفعل كما كان ولكن على أن يرفع بالابتداء ويشغل الفعل بضميره ويجعل في موضع الخبر له[3].

لقد أثر التقديم والتأخير في حكم كل جزء وبدّل المعنى الذي يُهدف إليه، فإذا تساوى المبتدأ والخبر في التعريف أو التنكير كان المقدم منهما المبتدأ والمؤخر الخبر، وهو ما يحدده الغرض فإن كان المراد الاخبار بأحدهما

---

(١) البرهان في علم القرآن ج ٣ ص ٢٣٣.

(٢) المثل السائر ج ٢ ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) ينظر دلائل الإعجاز ص ٨٣ ـ ٨٤.

أخّر ليصبح وصفاً للثاني أي مسنداً. ولولا هذا الهدف لم يكن لهذا التركيب أهمية ولأصبح عبثاً أو ضرورة يلجأ إليها من لا يقدر على التعبير السليم.

ويشمل التقديم والتأخير كثيراً من أجزاء الكلام، فالمسند إليه يقدم لأغراض بلاغية منها:

١ ـ أنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول والمبتدأ على الخبر وصاحب الحال عليها.

٢ ـ أن يتمكن الخبر في ذهن السامع لأن في المبتدأ تشويقاً إليه كقول المعري:

والذي حارتِ البريةُ فيه ... حَيَوانٌ مُسْتَحدثٌ من جمادِ

٣ ـ أن يقصد تعجيل المسرّة إن كان في ذكر المسند إليه تفاؤل مثل: «سعد في دارك» أو المساءة إن كان فيه ما يتطير به مثل: «السفّاح في دار صديقك».

٤ ـ إيهام أن المسند إليه لا يزول عن الخاطر مثل: «الله ربي».

٥ ـ إيهام التلذذ بذكره كقول الشاعر:

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ... ليلايَ منكنّ أم ليلى من البشر

٦ ـ تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي إن ولي حرف النفي مثل: «ما أنت قلت هذا» وقول المتنبي:

وما أنا أسقمت جسمي به ... ولا أنا أضرمت في القلب نارا

٧ ـ تقوية الحكم وتقريره كقوله تعالى: ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾[1].

٨ ـ إفادة العموم مثل: «كل إنسان لم يقم» فيقدم ليفيد نفي القيام عن كل واحد من الناس.

ويقدم المسند لأغراض منها:

١ ـ تخصيص المسند بالمسند إليه كقوله تعالى: ﴿ ولله مُلْك السماوات

---

(١) سورة المؤمنون، الآية ٥٩.

والأرض ﴾[1]، وقوله: ﴿ لكم دينكم وليَ ديـن ﴾[2].

٢ ـ التنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت كقول حسان بن ثابت يمدح النبي ـ ﷺ ـ:

لـه هممٌ لا منتهى لكبـارهــا وهمّته الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحة لو أنّ معشارَ جـودها على البرّ كان البرُّ أندى من البحر

٣ ـ التفاؤل بتقديم ما يسرّ مثل: «عليه من الرحمن ما يستحقه».

٤ ـ التشوق إلى ذكر المسند إليه كقول المعري:

وكـالنـار الحيـاة فمن رمـادٍ أواخـرهـا وأوّلـهـا دخـان

ومن التقديم تقديم متعلقات الفعل عليه كالمفعول والجار والمجرور والحال ويكون ذلك لأغراض منها:

١ ـ الاختصاص كقولـه تعالى: ﴿ إيـاك نَعْبُدُ وإيـاك نستعين ﴾[3]، أي: نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك.

٢ ـ الاهتمام بالمتقدم كقوله تعالى: ﴿ أفغيرَ الله أبغي ربّاً وهو ربُّ كل شيء ﴾[4].

٣ ـ التبرك مثل: «قرآناً قرأت».

٤ ـ التبكيت والتعجب من حال المذكور كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعـالى: ﴿ وجعلوا لله شركـاءَ الجنَّ ﴾[5] والأصل: «الجن شركاء»، وقدّم لأن المقصود التوبيخ وتقديم «شركاء» أبلغ في حصوله.

٥ ـ ضرورة الشعر وهو كثير، وقد يكون بعضه بسبب الوزن وقد يكون بسبب القافية، وربما حملت هذه الضرورات على لغة الشعر التي تختلف عن لغة النثر في التركيب.

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٩.
(٢) سورة الكافرون، الآية ٦.
(٣) سورة الفاتحة، الآية ٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية ١٦٤.
(٥) سورة الأنعام، الآية ١٠٠.

٦ ـ رعاية الفواصل والتناسب كقوله تعالى: ﴿فأما اليتيمَ فلا تقهر. وأما السائلَ فلا تنهر﴾[١]، وقوله: ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى﴾[٢]؛ فإنه لو أخّر «في نفسه» عن «موسى» لفات تناسب الفواصل لأن قبله «يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى» وبعده: «إنك أنت الأعلى»، ولذهب التناسق في العبارة وقلّ تأثيرها.

وهذه الأغراض كثيرة وقد قال علماء البيان ومنهم الزمخشري إن تقديم هذه الأنواع للاختصاص غير أن ابن الأثير يرجعها إلى الاختصاص ونظم الكلام[٣]، وفي ذلك تبيان لأهمية التقديم في كتاب الله وكلام العرب.

وهناك أنواع كثيرة لا ترجع إلى ما سبق وإنما تعود إلى أمور أخرى بحثها الزركشي في تقسيمه للتقديم والتأخير إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما قدّم والمعنى عليه ومقتضياته كثيرة منها السبق والعلة والسببية والمرتبة والتعظيم وخفة اللفظ ورعاية الفواصل.

الثاني: ما قدّم والنية فيه التأخير، ومنه ما يدل على ذلك الإعراب ومنه ما يدل عليه المعنى.

الثالث: ما قدّم في آية وأخّر في أخرى[٤].

وهذه الأنواع لم يتطرق لها البلاغيون إلا من خلال الجملة ولذلك كانت دراساتهم قاصرة لارتباطها بالمسند والمسند إليه والمتعلقات، ولعل أحسن من وقف على أسرار البلاغة الشيخ عبد القاهر الذي أبدع في تحليل التراكيب ووقف على أهمية الأساليب ونقل النحو من الإعراب والبناء إلى عالم يموج حركة ويتدفق حياة. ومن أمثلة تحليله قوله في النكرة إذا قدّمت على الفعل أو قدّم الفعل عليها: «إذا قلت: «أجاءك رجل؟» فأنت تريد أن تسأله: هل كان مجيء من أحد من الرجال إليه؟ فإن قدّمت الاسم فقلت: «أرجل جاءك؟»

---

(١) سورة الضحى، الآيتان ٩ ـ ١٠.

(٢) سورة طه، الآية ٦٧.

(٣) ينظر الكشاف ج ١ ص ١١، المثل السائر ج ٢ ص ٣٩، الطراز ج ٢ ص ٦٦.

(٤) ينظر البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٣٣ وما بعدها.

فأنت تسأله عن جنس مَنْ جاءه أرجل هو أم امرأة؟ ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آتٍ ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي. فسبيلك في ذلك سبيلك إذا أردت أن تعرف عين الآتي فقلت: «أزيد جاءك أم عمرو؟». ولا يجوز تقديم الاسم في المسألة الأولى لأنَّ تقديم الاسم يكون إذا كان السؤال عن الفاعل، والسؤال عن الفاعل يكون إما عن عينه أو عن جنسه ولا ثالث. وإذا كان كذلك كان محالاً أن تقدم الاسم النكرة وأنت تريد السؤال عن الجنس لأنه لا يكون لسؤال حينئذ متعلق من حيث لا يبقى بعد الجنس إلّا العين. والنكرة لا تدل على عين شيء فيسأل بها عنه، فإن قلت: «أرجل طويل جاءك أم قصير؟» كان السؤال عن أن الجائي من جنس طوال الرجال أم قصارهم. فإن وصفت النكرة بالجملة فقلت: «أرجل كنت عرفته من قبل أعطاك هذا أم رجل لم تعرفه؟» كان السؤال عن المعطى أكان ممن عرفه قبل أم كان إنساناً لم تتقدم منه معرفة. وإذ قد عرفت الحكم في الابتداء بالنكرة في الاستفهام فابْنِ الخبر عليه فإذا قلت: «رجل جاءني» لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أن الذي جاءك رجل لا امرأة، ويكون كلامك مع من قد عرف أن قد أتاك آتٍ. فإن لم ترد ذاك كان الواجب أن تقول: «جاءني رجل» فتقدم الفعل»[1].

هذه بعض أسرار التقديم والتأخير في العربية وليس من العبث أن يشغل البلاغيون أنفسهم بها لولا أن لكل تعبير معناه ولكل وضع مغزاه، وفي ذلك اتساع في القول وقدرة على الإبداع. ولكن هذه الحرية ليست مطلقة لأن في العربية كثيراً من الرتب المحفوظة والصيغ التي إذا غيرت اختل المعنى وأصبح مبهماً، ومن ذلك البيت المنسوب إلى الفرزدق:

وما مثله في الناس إلّا مملكاً ... أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

وترتيبه: «وما مثله في الناس حيّ يقاربه إلّا مملكاً أبو أمه أبوه» وهو عند البلاغيين من التعقيد الذي أحدثه فساد النظم[2] وعند اللغويين والنحاة

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ص ٦٥، المثل السائر ج ٢ ص ٤٦، الإيضاح ص ٥.

من الضرورةالشعرية[1]؛ لأنه «يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام»[2].

والضرورة الشعرية قد تكون لانفعال الشاعر، قال ابن جني: «فمتى رأيت الشاعر قد ارتكب مثل هذه الضرورات على قبحها وانخراق الأصول بها فاعلم أن ذلك على ما جشمه منه وإن دلَّ من وجه على جوره وتعسفه فإنه من وجه آخر مؤذن بصياله وتخمطه[3]، وليس بقاطع دليل على ضعف لغته ولا قصوره عن اختياره الوجه الناطق بفصاحته بل مثله في ذلك عندي مثل مجرى الجموح بلا لجام ووارد الحرب الضروس حاسراً من غير احتشام. فهو وإن كان ملوماً في عنفه وتهالكه فإنه مشهود له بشجاعته وفيض منّته». ثم قال: «فاعرف بما ذكرناه حال ما يرد في معناه وأن الشاعر إذا أورد منه شيئاً فكأنه لأنسه بعلم غرضه وسفور مراده لم يرتكب صعباً ولا جشم أَمماً[4]، وافق بذلك قابلاً له أو صادف غير آنس به إلّا أنه هو قد استرسل واثقاً وبنى الأمر على أن ليس ملتبساً»[5]. وقريب من هذا ما ذهب إليه بعض المعاصرين كالدكتور إبراهيم أنيس الذي قال: «ألست ترى معي أن المعاني قد تزاحمت في ذهن الفرزدق فتزاحمت الألفاظ واختلط بعضها ببعض بينما الشاعر في شغل عنها وقد تملكته العاطفة وسيطرت عليه الفكرة فلم يعبأ بنظام الكلمات على النحو المألوف للناس؟ لسنا نبالغ إذن حين نقرر أن الشاعر يفر من كل ما هو مألوف معهود محلقاً في سماء الخيال لا يكاد يشعر بالألفاظ كما يشعر بالمعاني فإذا سيطرت عليه الصورة سيطرة تامة فقد يسوق لنا مثل هذا النظام الغريب الذي نراه في بيت الفرزدق»[6]. والدكتور لطفي عبد البديع الذي قال: «فما يعدّه عبد القاهر وغيره من البلاغيين بناء على معاني النحو فساداً في التأليف وخللاً في النفس ليس إلّا صورة من صور التركيب توخاها الشاعر في اللغة. والنحو

---

(١) ينظر الكتاب ج ١ ص ٣٢ (الهامش)، الخصائص ج ١ ص ١٤٦، ضرائر الشعر ص ٢١٣، ما يجوز للشاعر في الضرورة ص ١٥٧، الضرائر ص ٢٥١.

(٢) الكتاب ج ١ ص ١٢٦.

(٣) تخمط: هدر وثار وتكبر.

(٤) الأمم: اليسير، البيّن من الأمر.

(٥) الخصائص ج ٢ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(٦) من أسرار اللغة ص ٣٢٦.

بأحكامه أعجز من أن يستوعب أسرار اللغة الشعرية ووجوهها التي يدق فيها النظر، فهو يقيم أصولاً عامة يجريها على أشياء متباينة لا تكاد تتضح معها الخصائص المتفردة للكلام، والفاعلية والمفعولية والابتدائية والخبرية وغيرها لا تغني وحدها في بيان الآثار الشعرية لمواقع الألفاظ في العبارات»[1]. والسيد إبراهيم محمد الذي قال إن الضرورة الشعرية «تكشف عن الخصائص الفردية التي بها يظهر روح الشاعر أو الأديب. فمغالبة القوة التي يصنعها اطراد العادة اللغوية لا يمكن تفسيره إلّا بالتسليم بأن قوة مناهضة بعثت على النشاط الجديد الذي به خالف التعبير ما استقر عليه الاستعمال إذ اطراد الاستعمال اللغوي من شأنه أن يصبح قوة تتسلط على كل تعبير ناهض إذ تتكون العادة اللغوية التي عليها يطرد التعبير وتستقر في عقل الجماعة فلا ينفك عنها أي تعبير على أنه وإن كانت الضرورة الشعرية خروجاً على القواعد النحوية فهي ليست خروجاً على اللغة لأن الشعراء بحكم حياتهم في اللغة لا ينفكون عنها بحال». ثم قال: «ولكن التحليل الأسلوبي لبيت الفرزدق وفيه التقديم والتأخير ووضع الكلام في غير موضعه يتضمن البحث عن العلل الروحية التي نشط عنها التعبير وتتحصل بها القيمة الفكرية التي يتضمنها البيت ولا تظهر إلّا به»[2].

فالتقديم والتأخير قد يكون لانفعال الشاعر أو حرصه على موسيقى شعره وقافيته أو محاولته الخروج على القيود التي تفرضها قواعد النحو ولكن ذلك قد يقود الشاعر إلى مسالك وعرة تعقد كلامه وتُفضي به إلى الغموض والإبهام. ومهما قيل في بيت الفرزدق فإنه يبقى فاسد النظم، غامض المعنى، ثقيل الإيقاع، ولكن الشاعر قد تندّ عنه أبيات يحرص عليها كحرصه على بنيه. ولا يختص الشعر بمثل هذه الحرية وحده وإنما تظهر الحرية في النثر وتتجلى في الالتزام بالفواصل والسجع ومراعاة نظم العبارة وجمالها، ولكن هذا الالتزام لم يؤدِ إلى الغموض والإبهام ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ولكن كانوا أنفسَهم

(١) التركيب اللغوي للأدب ص ١٠.

(٢) الضرورة الشعرية ص ٩٧ ـ ٩٨.

يظلمون ﴾[1]، وقوله: ﴿ فأما اليتيمَ فلا تقهر. وأما السائلَ فلا تنهرْ ﴾[2]. ويرى الدكتور إبراهيم أنيس أن المفعول هنا لم يتقدم إلّا مراعاة لموسيقى الفاصلة القرآنية لأن «المفعول لا يصح أن يسبق ركني الإسناد في الجملة المثبتة كما يزعم أصحاب البلاغة في تلك الأمثلة المصنوعة من نحو «زيداً ضربت» و«زيداً ضربته»[3]. والبلاغيون حينما نظروا هذه النظرة لم يلتزموا بالبنية الأساسية للتركيب أو تحليل التركيب وحده كما يفعل اللغويون وإنما تجاوزوه إلى تحليل الأساليب. ولا ينقص ذلك من جهدهم بل يعدّ امتداداً لعمل اللغويين وتفسيراً حيّاً للغة. وليس صحيحاً أنه «لا معنى لأن ننساق مع البلاغيين حين يعزون تقدم المسند إليه إلى أمور تلمسوها من شواهد معينة كالتمكن في ذهن السامع والتعجيل بالمسرّة أو المساءة والاستلذاذ والتعظيم والتحقير. ومن الغريب أنهم يجعلون نفس هذه الأسباب أو معظمها داعياً من دواعي تقدم المسند أيضاً. ودراستهم هنا لا تعدو أن تكون نقداً أدبياً لأمثلة معينة تصوّروا فيها تلك الأمور التي أشاروا إليها»[4]. وليست المسألة تصوراً وإنما هي الواقع اللغوي الذي يحسّ به المتذوق للغة، ولم تأتِ «أنفسهم» في الآية لأجل الفاصلة والتناسق حسب وإنما جاءت تحديداً لمن يقع عليه الظلم وتوكيداً له وهل من ظلم أشدّ من أن يظلم الإنسان نفسه؟ ومثل ذلك تقديم «اليتيم» و«السائل» لأن الهدف ليس القهر والنهر في المقام الأول وإنما الرجحة باليتيم والسائل ولذلك تقدّم المفعولان على فعليهما، ولو كان القصد غير ذلك لتأخرا وجاءا على نسق الكلام المحفوظة رتبته، وليس هذا ما أراد الله ـ سبحانه ـ أن يبينه. وعبارتا: «ضربت زيداً» و«زيداً ضربته» مختلفتا الهدف، فالأولى ليس فيها تخصيص لأنها تحتمل أن يكون المضروب غير «زيد» فعند النطق بالفعل أولاً يذهب الذهن مذاهب شتى ولا يتوقف أو يصحو إلّا عند إكمال الجملة ولا يحدث مثل ذلك عند البدء بالمفعول أي تقديمه

---

(١) سورة البقرة، الآية ٥٧.
(٢) سورة الضحى، الآيتان ٩ ـ ١٠.
(٣) من أسرار اللغة ص ٣١٢.
(٤) من أسرار اللغة ص ٢٨٥.

على الفعل لأنه يتحدد ويسرح الذهن بعيداً في الفعل ويتصوره تصورات مختلفة. وقد عرف القدماء هذه الفروق وأشار ابن الأثير إليها فقال: «فإن في قولك: «زيداً ضربت» تخصيصاً له بالضرب دون غيره وذلك بخلاف قولك: «ضربت زيداً» لأنك إذا قدّمت الفعل كنت بالخيار في إيقاعه على أي مفعول شئت بأن تقول: ضربت خالداً أو بكراً أو غيرهما، وإذا أخرته لزم الاختصاص للمفعول»[1]. ومثل ذلك: «زيد قائم» و «قائم زيد» فالجملة الأولى لا يراد بها إثبات القيام عند النطق بها وإنما تحديد «زيد» لا غيره، والجملة الثانية يراد بها إثبات القيام.

إن اللغة ليست هياكل صامتة وإنما هي أجسام حية ناطقة وقد أكمل علماء المعاني ما بدأه اللغويون والنحاة وأعادوا إلى التراكيب اللغوية روحها التي فقدتها في كتب النحو المتأخرة. وأن أية دراسة لغوية تتخذ من تحليل التركيب وحده منهجاً لن تخدم اللغة أو تقدم لها ما ينفعها في تطورها، وقد كان لما كتبه عبد القاهر في «دلائل الإعجاز» ولخصه البلاغيون في علم المعاني أبلغ الأثر في بعث الدراسات اللغوية والنحوية. ولو استمر منهج عبد القاهر لأغنى العربية وأفاد الأدباء، ولكن الذين جاءوا بعده لم يقفوا على نظرية النظم وقفة المتذوق فجمدت في قوالب بلاغية أظهرتها شروح التلخيص في صور حائلة ليس فيها ما ينير السبيل.

الحصيلة:

تلك بعض خصائص اللغة العربية، وقد كان الوقوف عند التقديم والتأخير طويلاً؛ لأنه يمثل أبرز السمات التركيبية في العربية، وهناك خصائص كثيرة كالالتفات الذي هو أحد أبواب «شجاعة اللغة العربية» والفصل والوصل، والتنكير والتعريف، وغيرها من المباحث اللغوية المبثوثة في كتب النحو والبلاغة والتفسير.

وبعد فماذا كانت حصيلة هذا البحث؟.

---

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٣٨.

لقد ظهر أن العربية لغة قديمة متواصلة وهذا التواصل من أهم خصائصها ولولاه لانقطع الحاضر عن الماضي وأصبحت اللغة القديمة طلاسم يعنى بفكها علماء الآثار. ولكن فهم العربي المعاصر للغة امرىء القيس والقرآن الكريم والأدب الممتد قروناً طويلة يجعل العربية خالدة بين لغات العالم ويضفي عليها قانون الوحدة الذي جمع العرب ووحّد مشاعرهم وعقيدتهم. وليس أدل على وحدة العرب من ذلك الشعر الذي كانت القبائل تتناقله وتلك الخطب التي كان الناس يتسابقون إلى روايتها وذلك الأدب الذي تردد في كل مكان وكان خير مثال يحتذى في الفصاحة والبيان. وظلت اللغة العربية على تعدد أقطار الناطقين بها محتفظة بوحدتها، وتتجلى هذه الوحدة في الأسلوب الذي يسود كلام الناس ولا سيما أحاديثهم وتآليفهم في العلوم والآداب والفنون. ولم تكن هذه الوحدة طوقاً يقيّد المتكلمين أو المنشئين، لأن فيها سعة في القول وتنوعاً في الأداء يتجلى في قدرات المبدعين وطواعية العربية للتصرف في أفانين القول وتراكيب الكلام. فللجملة بناء معروف أكدته كتب النحو وهو يمثل البنية الأساسية أو الرتبة المحفوظة، ولكن أساليب العرب وطرائق تعبيرهم أوسع من أن تضمها قواعد النحو وأصوله. ومن ذلك أن للتقديم والتأخير بنية أساسية يسلكها العرب في كلامهم وهي ما يطلق عليه وجوب التقديم أو وجوب التأخير، ولكن تلك البنية ليست وحدها سبيل المبدعين فهناك ألوان كثيرة من التراكيب تحددها الأهداف ويرسمها المنشئون. وقد عالج البلاغيون هذه الألوان ووقفوا على جوانب كثيرة منها وبذلك اتسع فن القول وتحرر الكلام من القيود. وساعد على هذا التصرف الإعرابُ أو الحركات ولولا ذلك لجمدت العربية وأصبحت هياكل صامتة لا يقدر الأديب على تصريفها كما تحب المعاني وتهدف إليه الأغراض.

وفي اللغة العربية وحدة من جهة وتنوع من جهة أخرى وهو تنوع يرجع إلى أصلٍ واحد ويشير إلى سمات اللغة وخصائصها، ولكن ذلك الأصل لم يكن قيداً يمنع الناس من التفنن في توليد الألفاظ والصيغ والتراكيب.

ومن خصائص العربية أنها ليست لغة فئة أو جماعة بعينها وإنما هي لغة الشعب العربي كله وقد كان العربي ينتقل في جزيرته فلا يجد صعوبة في

التفاهم إلّا ما كان من بعض الاختلاف في اللهجات. ويستمع إلى الشعراء في الأسواق أو الحواضر فيطرب ويتغنى بذلك الشعر ويشيعه بين الناس. وازداد العرب فهماً للغتهم بعد نزول القرآن الكريم الذي جمعهم على الخير وساروا شرقاً وغرباً ونشروا رسالتهم الخالدة في الآفاق. وكان العربي أو المسلم في الأندلس يقرأ ما يكتب في القاهرة أو دمشق أو بغداد أو أطراف الصين، وكان الرجل يطوف العالم العربي والإسلامي فلا يجد صعوبة في اللغة ولا ضيقاً في الفهم على الرغم من امتداد البقاع وتنوّع الأصقاع. ويستمع العربي اليوم إلى المذياع فيفهم ويعلق على ما يذاع وقد يكون ممن لا يحسنون القراءة والكتابة أو ممن حرموا نعمتهما، ويقرأ الصحف والكتب وهي تصدر في أقطار عربية مختلفة فيفهمها وينتفع بها. ولم يكن ذلك يسيراً لولا شعبية العربية وحرص أبنائها على التمسك بها والذود عنها وردّ ما يُشيعه الشعوبيون ويسعى إليه الحاقدون على الأمة ولغتها الرائعة.

إن وحدة اللغة العربية وتواصلها، وإن تنوع تراكيبها وتعددها، وإن شعبيتها وتفاعلها من أهم خصائصها ومن أهم دعائم الأمة ووحدتها. ولن تقوم دولة العرب الكبرى من غير لغة موحدة تجمعهم على الخير وتوحّد مشاعرهم وتحقق مصالحهم وتعلي شأنهم بين الأمم. وليس في العالم أمة لها لغة حية كلغة الضاد، وليس أنفع للعرب من أن يعتزوا بلغتهم وأن يصونوها ورحم الله العقاد حينما قال: «ومن واجب القارىء العربي إلى جانب غيرته على لغته أن يذكر أنه لا يطالب بحماية لسانه ولا مزيد على ذلك ولكنه مطالب بحماية العالم من خسارة فادحة تصيبه بما يصيب هذه الأداة العالمية من أدوات المنطق الإنساني بعد أن بلغت مبلغها الرفيع من التطور والكمال. وإن بيت القصيد هنا أعظم من القصيد كله؛ لأن السهم في هذه الرمية يسدّد إلى القلب ولا يقف عند الفم واللسان وما ينطقان به في كلام منظوم أو منثور»[1]. فالحفاظ على اللغة العربية وسلامتها حفاظ على الأمة ووحدتها، وحمايتها من كيد الشعوبيين دفاع عن الإنسانية وتقدمها، والتمسك بها أول السبيل إلى

---

(١) اللغة الشاعرة ص ٦.

الوحدة الكبرى، وإن نشرها في العالم اعتراف بأمة العرب ودورها في بناء الحضارة الحديثة وخلق الإنسان الجديد.

المصـــادر:

١ ـ أسرار العربية ـ أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري. تحقيق محمد بهجة البيطار. دمشق ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م.

٢ ـ الأشباه والنظائر في النحو ـ جلال الدين السيوطي. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد. القاهرة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م.

٣ ـ أشتات مجتمعات في اللغة والأدب ـ عباس محمود العقاد. القاهرة ١٩٦٣ م.

٤ ـ الأصول ـ الدكتور تمام حسان. المغرب ـ الدار البيضاء ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

٥ ـ الأصول في النحو ـ أبو بكر بن السراج. تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي. النجف الأشرف ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

٦ ـ أمالي الزجاجي ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة ١٣٨٢ هـ.

٧ ـ الإيضاح ـ جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني. القاهرة.

٨ ـ الإيضاح في شرح المفصل ـ أبو عمرو عثمان بن عمر بن الحاجب. تحقيق الدكتور موسى بناي العليلي. بغداد ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

٩ ـ الإيضاح في علل النحو ـ أبو القاسم الزجاجي. تحقيق الدكتور مازن المبارك ـ بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.

١٠ ـ البرهان في علوم القرآن ـ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م.

١١ ـ البيان والتبيين ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م.

١٢ ـ التركيب اللغوي للأدب ـ الدكتور لطفي عبد البديع. القاهرة ١٩٧٠ م.

١٣ ـ التطور النحوي للغة العربية ـ برجستراسر. طبع بعناية محمد حمدي البكري. القاهرة ١٩٢٦ م.

١٤ ـ الحيوان ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٨ م.

١٥ ـ الخصائص ـ أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق محمد علي النجار. القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م.
١٦ ـ خصائص العربية ومنهجها الأصيل في التجديد والتوليد ـ محمد المبارك. القاهرة ١٩٦٠ م.
١٧ ـ دراسات في علم اللغة ـ الدكتور كمال بشر. القاهرة ١٩٦٩ م.
١٨ ـ دراسات في فقه اللغة ـ الدكتور صبحي الصالح. دمشق ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م.
١٩ ـ دراسات في فقه اللغة العربية ـ الدكتور السيد يعقوب بكر. بيروت ١٩٦٩ م.
٢٠ ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني. تحقيق محمد رشيد رضا. القاهرة ١٣٧٢ هـ.
٢١ ـ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ـ عبد الرحمن السهيلي. تحقيق عبد الرحمن الوكيل. القاهرة.
٢٢ ـ سر صناعة الإعراب ـ أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وإبراهيم مصطفى وعبد الله أمين. القاهرة ١٣٧٤ هـ ـ ١٩٥٤ م.
٢٣ ـ سر العربية ـ أبو منصور الثعالبي (مطبوع مع فقه اللغة). تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م.
٢٤ ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ـ الطبعة الرابعة عشرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م.
٢٥ ـ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م.
٢٦ ـ شرح جمل الزجاجي ـ ابن عصفور الإشبيلي. تحقيق الدكتور صاحب أبو جناح. بغداد ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.
٢٧ ـ شرح المفصل ـ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش. القاهرة.
٢٨ ـ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ـ أحمد بن فارس. تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي. بيروت ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م.
٢٩ ـ ضرائر الشعر ـ ابن عصفور الإشبيلي. تحقيق السيد إبراهيم محمد. بيروت ١٩٨٠ م.

٣٠ - الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر - محمود شكري الألوسي. بيروت (بالتصوير).

٣١ - الضرورة الشعرية - دراسة أسلوبية - السيد إبراهيم محمد. بيروت - الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

٣٢ - طبقات فحول الشعراء - محمد بن سلام الجمحي. تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة ١٩٧٤ م.

٣٣ - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - يحيى بن حمزة العلوي. القاهرة ١٩١٤ م.

٣٤ - فقه اللغة وخصائص العربية - محمد المبارك. بيروت - الطبعة الثانية ١٩٦٤ م.

٣٥ - في بناء الجملة العربية - الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف. الكويت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

٣٦ - في النحو العربي - قواعد وتطبيق - الدكتور مهدي المخزومي. القاهرة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م.

٣٧ - في النحو العربي - نقد وتوجيه - الدكتور مهدي المخزومي. بيروت ١٩٦٤ م.

٣٨ - الكتاب - أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر المشهور بسيبويه. تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م وما بعدها.

٣٩ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - جار الله محمود ابن عمر الزمخشري. القاهرة - الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣ م.

٤٠ - اللغة بين القومية والعالمية - الدكتور إبراهيم أنيس. القاهرة ١٩٧٠ م.

٤١ - اللغة الشاعرة - عباس محمود العقاد. القاهرة ١٩٦٠ م.

٤٢ - اللغة العربية - معناها ومبناها - الدكتور تمام حسان. ١٩٧٣ م.

٤٣ - اللمع في العربية - أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق فايز فارس. الكويت.

٤٤ - ما يجوز للشاعر في الضرورة - أبو عبد الله محمد بن جعفر القزاز. تحقيق المنجي الكعبي. تونس ١٩٧١ م.

٤٥ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - ضياء الدين بن الأثير. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م.

٤٦ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها - جلال الدين السيوطي. تحقيق محمد أحمد

جاد المولى وجماعته. القاهرة ـ الطبعة الثالثة.
٤٧ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ـ ابن هشام الأنصاري. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة.
٤٨ ـ مفتاح العلوم ـ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي. القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م.
٤٩ ـ المفصل في علم العربية ـ أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (وبذيله المفضل لأبي فراس النعساني) ـ بيروت.
٥٠ ـ المقتضب ـ أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة. القاهرة ١٣٨٥ هـ وما بعدها.
٥١ ـ المقرب ـ ابن عصفور الإشبيلي. تحقيق الدكتور أحمد عبد الستار الجواري والدكتور عبد الله الجبوري. بغداد ١٩٧١ م.
٥٢ ـ من أسرار اللغة ـ الدكتور إبراهيم أنيس. القاهرة ـ الطبعة الثانية ١٩٥٨ م.
٥٣ ـ الموفي في النحو الكوفي ـ صدر الدين الكنغراوي الاستانبولي. علق عليه محمد بهجة البيطار. دمشق ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥٠ م.
٥٤ ـ النحو الوافي ـ عباس حسن. القاهرة ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٥ م.
٥٥ ـ نحو وعي لغوي ـ الدكتور مازن المبارك. دمشق ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م.
٥٦ ـ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ـ الأب انستاس ماري الكرملي. القاهرة ١٩٣٨ م.
٥٧ ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ـ جلال الدين السيوطي. تحقيق الدكتور عبد العال سالم مكرم. الكويت ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٥ م وما بعدها.

٣
تنميـة العربيــة

الحقيقــة:

اللغة «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1] وهي مرتبطة بتطور المجتمع والفكر الإنساني ولذلك نجد لغات الشعوب المتطورة متقدمة على غيرها في مفرداتها واستعمالها. واللغة العربية نشأت كغيرها من اللغات لتسدّ حاجة المتكلمين بها وكانت في أول أمرها مقتصرة على الألفاظ الوضعية التي عبَّرت عما أحاط بالعربي في بيئته ثم تطورت بتطوره خلال العصور المختلفة. والكلمة حينما توضع لتدل على شيء تسمى «حقيقة» وهي «فَعيلة» بمعنى «مفعولة» واشتقاقها من «حقّ الشيء يحقّه» إذا أثبته، أو من «حققت الشيء أحقه» إذا كنت منه على يقين. ولـذلك فهي دلالـة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة.

وللحقيقة تعريفات كثيرة في كتب اللغة والبلاغة والأصول منها تعريف أحمد بن فارس الذي قال إنها «الكلام الموضوع موضعه الذي ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخير»[2]. وقال ابن جني: «الحقيقة ما أُقِرَّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة»[3]. وقال عبد القاهر الجرجاني: «كل

(*) نشرت بعنوان «الحقيقة الشرعية وتنمية اللغة العربية» في مجلة المجمع العلمي العراقي (الجزء الأول ـ المجلد ٣٣) سنة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.

(١) الخصائص ج ١ ص ٣٣.

(٢) الصاحبي ص ١٩٧.

(٣) الخصائص ج ٢ ص ٤٤٢.

كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع، وإن شئت قلت في مواضعة ـ وقوعاً لا تستند فيه إلى غيره فهي حقيقة. وهذه العبارة تنتظم الوضع الأول وما تأخر عنه كلغة تحدث في قبيلة من العرب أو في جميع العرب أو في جميع الناس مثلاً أو تحدث اليوم. ويدخل فيها الأعلام منقولة كانت كزيد وعمرو أو مرتجلة كغطفان، وكل كلمة استؤنف لها على الجملة مواضعة أو ادعي الاستئناف فيها»[1]. وهذا تعريفها في المفرد أما حدّها في الجملة فهي «كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه في العقل وواقع منه فهي حقيقة. ولن تكون كذلك حتى تعرى من التأول، ولا فصل بين أن تكون مصيباً فيما أفدت بها من الحكم أو مخطئاً وصادقاً أو غير صادق»[2]. وقال ابن الأثير: «فأما الحقيقة فهي اللفظ الدال على موضوعه الأصلي»[3]. وقال السكاكي: «فالحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع كاستعمال «الأسد» في الهيكل المخصوص. فلفظ: «الأسد» موضوع له بالتحقيق ولا تأويل فيه» ثم قال: «ولك أن تقول: الحقيقة هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة كاستعمال «الأسد» في الهيكل المخصوص»[4]. وقال الخطيب القزويني: «الحقيقة: الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح به التخاطب»[5]، وفسّر هذا التعريف بقوله: «فقولنا «المستعملة» احتراز عما لم يستعمل فإن الكلمة قبل الاستعمال لا تسمى حقيقة. وقولنا: «فيما وضعت له» احتراز عن شيئين:

أحدهما: ما استعمل في غير ما وضعت له غلطاً كما إذا أردت أن تقول لصاحبك: «خذ هذا الكتاب» مشيراً إلى كتاب بين يديك فغلطت فقلت: «خذ هذا الفرس».

والثاني: أحد قسمي المجاز وهو ما استعمل فيما لم يكن موضوعاً له لا

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢٤.
(٢) أسرار البلاغة ص ٣٥٥.
(٣) المثل السائر ج ١ ص ٥٨.
(٤) مفتاح العلوم ص ١٦٩ ـ ١٧٠.
(٥) الإيضاح ص ٢٦٥، التلخيص ص ٢٩٣.

في اصطلاح به التخاطب ولا في غيره كلفظة «الأسد» في الرجل الشجاع.

وقولنا: «في اصطلاح به التخاطب» احتراز عن القسم الآخر من المجاز وهو ما استعمل فيما وضع له في اصطلاح به التخاطب كلفظ «الصلاة» يستعمله المخاطب بعرف الشرع في الدعاء مجازاً». وذكر يحيى بن حمزة العلوي أن أجمع تعريف في بيانها ما ذكره أبو الحسين البصري فإنه قال: «ما أفاد معنى مصطلحاً عليه في الوضع الذي وقع فيه التخاطب»[1]. ولا يخرج تعريف الأصوليين عن هذا المعنى، فالحقيقة عندهم: «اسم لكل لفظ هو موضوع في الأصل لشيء معلوم»[2].

وهذه التعريفات وغيرها تؤدي إلى معنى واحد وهو أن الحقيقة استعمال اللفظة في وضعها الأول بحيث لا يتبادر إلى الذهن غير ذلك حينما تطلق كاستعمال «القلم» للدلالة على آلة الكتابة، واستعمال «القمر» للدلالة على الكوكب المعروف. ويسمى هذا النوع «الحقيقة اللغوية» لأن الألفاظ تستعمل بمعناها الأول أو «الاسم الأصلي»[3] لأنه أصل فيما هو موضوع له.

والنوع الثاني من الحقيقة هو «الحقيقة العرفية» وذلك إذا نقلت الألفاظ من مسماها اللغوي إلى غيره بعرف الاستعمال وذلك العرف قد يكون عاماً كاستعمال «الجن» للدلالة على بعض من يستتر عن العيون و«القارورة» للدلالة على بعض الآنية دون غيرها مما يستقر فيه. وقد يكون خاصاً وهو ما كان جارياً على ألسنة العلماء من المصطلحات التي تخص كل علم، نحو ما يجريه أهل العلوم في كتبهم وما يصطنعه أهل الحرف والصناعات في أعمالهم.

ولكل نوع من هذه الأنواع أهمية في التعبير، فالحقيقة اللغوية هي المعوّل عليها في كلام الناس وكتبهم العامة، والحقيقة العرفية هي أساس

---

(١) الطراز ج ١ ص ٤٧.

(٢) أصول السرخسي ج ١ ص ١٧٠، المستصفى ج ١ ص ٣٤١، فواتح الرحموت ج ١ ص ٢٠٣، نهاية السول ج ١ ص ٢٤٣، مناهج العقول ج ١ ص ٢٤٣.

(٣) أصول السرخسي ج ١ ص ١٧٠.

المصطلحات العلمية في كل فرع من فروع العلم والمعرفة وفيما يتفق عليه في بيئة من البيئات أو في عهد من العهود. أما القسم الثالث فهو «الحقيقة الشرعية» وقد عرّفها البلاغيون والأصوليون بقولهم: «هي اللفظة التي يُستفاد من جهة الشرع وضعها لمعنى غير ما كانت تدل عليه في أصل وضعها اللغوي»[1]. وهذا النوع من أثر الإسلام في اللغة فقد نزل القرآن الكريم على العرب وهم أهل فصاحة وبلاغة ولكنه سحرهم وعجزوا عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. ولم يؤثر القرآن في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فحسب وإنما أثّر في كل جانب من جوانب الحياة، وكانت اللغة أحد تلك الجوانب التي تأثرت بالكتاب العزيز تأثراً كبيراً، وكانت ألفاظه عمدة المتكلمين وزاد المنشئين، قال الراغب الأصفهاني: «فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحِكمهم، وإليها مفزع حذّاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»[2]. وقال أحمد بن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم فلما جاء الله ـ جلّ ثناؤه ـ بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفّى الآخر الأول وشغل القوم بعد المغاورات والتجارات وتطلب الأرباح والكدح للمعايش في رحلة الشتاء والصيف وبعد الإغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبالتفقه في دين الله ـ عز وجل ـ وحفظ سنن رسول الله ـ ﷺ ـ مع اجتهادهم في مجاهدة أعداء الإسلام. فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن، وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دوّن

(١) الطراز ج ١ ص ٥٥، نهاية السول ج ١ ص ٢٥١.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٦، وينظر المزهر ج ١ ص ٢٠١.

وحفظ حتى الآن»[1]. وكان لا بدّ لمثل هذا التطور من أن تستجيب اللغة العربية للجديد وبذلك نقل الإسلام ألفاظاً من مواضع إلى مواضع، وهذا النقل الذي يمسّ الشريعة يسمى «الحقيقة الشرعية» وهو من أسباب نمو اللغة وفتح باب تطور الدلالة وانتقال الألفاظ من معنى معروف إلى آخر يقتضيه الشرع وتتطلبه الحياة الجديدة.

أقسام الحقيقة الشرعية:

الحقيقة الشرعية قسمان:

الأول: أسماء شرعية وهي التي لا تفيد مدحاً ولا ذماً عند إطلاقها كألفاظ أركان الإسلام الخمسة وغيرها من مصطلحات الفقه الإسلامي. وهذا ما اتفق عليه البلاغيون ومعظم الأصوليين غير أن عضد الدين الإيجي قال: «الأسماء الشرعية المستعملة في أصول الدين كالإيمان والكفر والمؤمن والكافر»[2]، وليست هذه أسماءً شرعية وإنما هي أسماء دينية ولذلك قال الإيجي: «والمعتزلة يسمونها أسماءً دينية لا شرعية تفرقة بينها وبين الألفاظ المستعملة في الأفعال الفرعية». وهذا ما استقرت عليه المصطلحات، فالأسماء الشرعية مثل لفظة: «الشهادة» وهي في اللغة: الحضور، والشهيد: الحاضر، والشهادة والمشهد: المجمع من الناس ومحضر الناس[3]، وهي في الشرع الإيمان بالله وبرسوله محمد - ﷺ -. والتشهد في الصلاة قراءة: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله»، ولها معنى آخر في الشرع وهو «الإخبار عن أمر حضره الشهود وشاهدوه إما معاينة كالأفعال نحو القتل والزنا أو سماعاً كالعقود والإقرارات»[4] أو كما قال الشريف الجرجاني: «هي في الشريعة أخبار عن عيان بلفظ الشهادة في مجلس القاضي بحق للغير عن آخر. فالإخبارات ثلاثة: إما بحق للغير على آخر وهو الشهادة، أو بحق

---

(١) الصاحبي ص ٧٨، وينظر المزهر ج ١ ص ٢٩٤.
(٢) المواقف ج ٨ ص ٣٢٢.
(٣) لسان العرب (شهد).
(٤) الاختيار لتعليل المختار ج ٢ ص ١٣٩.

للمخبر على الآخر وهي الدعوى، أو بالعكس وهو الإقرار»[١]. فالشهادة في الشرع اعتراف بخالق الكون وبرسالة نبيه ـ ﷺ ـ، وهي الإقرار أو الاعتراف معاينة أو سماعاً، وهذه غير الدلالة اللغوية الأولى التي تشير إلى الحضور أو المعاينة المطلقة.

والصلاة: وهي في اللغة الدعاء والاستغفار، قال الأعشى:

وصهباء طاف يهوديُّها وأبرزها وعليها ختم
وقابلها الريح في دنّها وصلّى على دنها وارتسم

أي: أنه دعا لها أن لا تحمض ولا تفسد.

والصلاة من الله تعالى: الرحمة، قال عديّ:

صلى الإلّه على امرىء ودّعته وأتمّ نعمتها عليه وزادها

وصلاة الله على رسوله: رحمته له وحسن ثنائه عليه، قال تعالى: ﴿ إنّ اللهَ وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صَلّوا عليه وسلموا تسليماً ﴾[٢]. فالصلاة من الملائكة دعاء واستغفار ومن الله رحمة وبه سميت الصلاة لما فيها من الدعاء والاستغفار. ومن الصلاة بمعنى الاستغفار حديث سودة أنها قالت: يا رسول الله إذا متنا صلى لنا عثمان بن مظعون حتى تأتينا. فقال لها: إن الموت أشدّ مما تقدرين. فقولها: «صلى لنا» أي: استغفر لنا عند ربه[٣]. والصلاة في الشرع: «عبارة عن أركان مخصوصة وأذكار معلومة بشرائط محصورة في أوقات مقدّرة»[٤]. وهذا معنى جديد لم يكن معروفاً قبل الإسلام بهذه الأركان والشرائط وإن كان المعنى القديم ـ وهو الدعاء ـ جزءاً منها. قال ابن الأثير: «وأصلها في اللغة الدعاء فسميت ببعض أجزائها وقيل إن أصلها في اللغة التعظيم، وسميت العبادة المخصوصة صلاة لما فيها من تعظيم الرب تعالى وقوله في التشهد الصلوات لله أي الأدعية التي يراد بها

(١) التعريفات ص ١١٤.
(٢) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.
(٣) لسان العرب (صلا).
(٤) الاختيار ج ١ ص ٣٧، التعريفات ص ١١٧.

تعظيم الله تعالى»[1]. والصوم: وهو في اللغة ترك الطعام والشراب والنكاح والكلام، وهو الصبر أيضاً. والصائم من الخيل: القائم الساكن الذي لا يطعم شيئاً، قال النابغة الذبياني:

خيلٌ صيامٌ وخيلٌ غيرُ صائمةٍ   تحت العجاج وأخرى تعلك اللُّجُما

والصوم: الإمساك عن الشيء والترك له، وقيل للصائم: صائم، لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح، وقيل للصامت: صائم، لإمساكه عن الكلام، وقيل للفرس: صائم، لإمساكه عن العلف مع قيامه[2]. والصوم في الشرع: «عبارة عن إمساك مخصوص، وهو الإمساك عن المفطرات الثلاث بصفة مخصوصة، وهو قصد التقرب من شخص مخصوص وهو المسلم بصفة مخصوصة، وهي الطهارة عن الحيض والنفاس في زمان مخصوص، وهو بياض النهار من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس»[3]. أو هو: «إمساك مخصوص، وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النية»[4]. ويشمل ذلك الصوم في شهر رمضان أو في أي يوم آخر من أيام السنة قضاءً أو تطوعاً مع النية.

والحج: وهو في اللغة القصد، يقال: حج إلينا فلان أي قدم، وحجّه يحجّه حجاً قصده، وحججت فلاناً واعتمدته أي قصدته، ورجل محجوج أي مقصود. وقد حجّ بنو فلان فلاناً إذا أطالوا الاختلاف إليه، قال المنجل السعدي:

وأشهد من عوف حلولاً كثيرة   يحجُّونَ بَيْتَ الزبرقان المزعفرا

أي: يقصدونه ويزورونه. هذا هو الأصل ثم تعورف استعماله في القصد إلى مكة المكرمة والحج إلى البيت الحرام[5]. والحج في الشرع:

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٣ ص ٥٠، لسان العرب (صلا).

(٢) لسان العرب (صوم).

(٣) الاختيار ج ١ ص ١٢٥.

(٤) التعريفات ص ١١٩.

(٥) ينظر الصاحبي ص ٨١، اللسان (حج)، المزهر ج ١ ص ٢٩٥.

«قصد موضع مخصوص وهو البيت بصفة مخصوصة في وقت مخصوص بشرائط مخصوصة»[1]. أي: أنه ليس الحج المطلق الذي كان معروفاً في الجاهلية، وإنما هو الركن الذي أوجبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ على من استطاع إليه سبيلاً من المسلمين، والقيام بشرائط مخصوصة في وقت مخصوص.

ويتصل بالحج أو قصد البيت الحرام العمرة: وهي طاعة الله ـ عز وجل ـ وفي اللغة مأخوذة من الاعتمار وهو الزيادة، ومعنى اعتمر في قصد البيت أنه إنما خصّ بهذا لأنه قصد بعمل في موضع عامر ولذلك قيل للمحرم بالعمرة معتمر. ويقال: اعتمره أي زاره، ويقال: أتانا فلان معتمراً أي زائراً، ومنه قول أعشى باهلة:

وجاشت النَّفْسُ لما جاء فلّهم   وراكب جاء من تثليث معتمر[2]

والعمرة في الشرع هي الطواف بالبيت الحرام والسعي بين الصفا والمروة من غير وقوف في عرفة كما هو في الحج المعروف، أو هي زيارة البيت الحرام بالشروط المخصوصة المعروفة.

والزكاة: وهي في اللغة من الزكاء أي النماء والريع، أو ما أخرجه الله من الثمر، أو الصلاح، أو صفوة الشيء. وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح[3]. وهي في الشرع: «عبارة عن إيجاب طائفة من المال في مال مخصوص لمالك مخصوص. وفيها معنى اللغة لأنها وجبت طهره عن الآثام»[4]. فزكاة المال بهذا المعنى إسلامية الدلالة وهي تطهيره، وإفادة المحتاجين من الناس.

ومثل هذه الألفاظ ما جاء في أبواب الفقه المختلفة من ألفاظ تدل على معانٍ شرعية حدّدها الإسلام ووضع لها شرائط وأهدافاً.

الثاني: أسماء دينية وهي التي تفيد مدحاً أو ذماً، ومن ذلك الإسلام

(١) الاختيار ج ١ ص ١٣٩، وينظر التعريفات ص ٧٢.
(٢) لسان العرب (عمر).
(٣) لسان العرب (زكا).
(٤) الاختيار ج ١ ص ٩٩، التعريفات ص ١٠١.

وهو في اللغة الانقياد، وفي الشرع: «عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد»(١). وقد قال أبو بكر محمد بن بشار: يقال: «فلان مسلم» وفيه قولان:

أحدهما: هو المستسلم لأمر الله.

والثاني: هو المخلص لله العبادة من قولهم: سلّم الشيء لفلان أي خلّصه، وسلّم له الشيء أي خلصه له. وروي عن النبي - ﷺ - أنه قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». قال الأزهري: فمعناه أنه دخل في باب السلامة حتى يسلم المؤمنون من بوائقه(٢).

والإيمان: وهو في اللغة التصديق وضده التكذيب، قال الإمام الغزالي: «الإيمان عبارة عن التصديق» ثم قال: «فموجب اللغة أن الإسلام أعمّ والإيمان أخص فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجزاء الإسلام. فإذن كل تصديق تسليم، وليس كل تسليم تصديقاً»(٣). وقد ورد الشرع باستعمال الإسلام والإيمان على سبيل الترادف والتوارد، وورد على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل، ولكل ذلك موضع تحدث عنه الأصوليون. وقال إمام الحرمين الجويني بعد أن ذكر الآراء: «والمرضي عندنا أن حقيقة الإيمان التصديق بالله تعالى، فالمؤمن بالله مَنْ صدّقه»(٤). وقال عضد الدين الإيجي أن الإيمان هو «التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة»(٥). وعرض الشريف الجرجاني للإسلام والإيمان فقال: «الإسلام: هو الخضوع والانقياد لما أخبر به الرسول - ﷺ - وفي الكشاف أن كل ما يكون الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام؛ وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان. أقول: هذا مذهب الشافعي، وأما مذهب أبي حنيفة فلا فرق بينهما»(٦). وقال:

---

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١١٦.

(٢) لسان العرب (سلم).

(٣) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١١٦.

(٤) الإرشاد ص ٣٩٧.

(٥) المواقف ج ٨ ص ٣٢٣.

(٦) التعريفات ص ١٨.

«الإيمان في اللغة التصديق بالقلب وفي الشرع هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان. قيل: من شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق، ومن شهد ولم يعمل واعتقد فهو فاسق، ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر. والإيمان على خمسة أوجه: إيمان مطبوع، وإيمان مقبول، وإيمان معصوم، وإيمان موقوف، وإيمان مردود، فالإيمان المطبوع هو إيمان الملائكة، والإيمان المعصوم هو إيمان الأنبياء، والإيمان المقبول هو إيمان المؤمنين، والإيمان الموقوف هو إيمان المبتدعين، والإيمان المردود هو إيمان المنافقين»[1].

والكفر: وهو في اللغة نقيض الشكر، أو هو جحود النعمة، والكَفْر ـ بفتح الكاف ـ التغطية، وكفرت الشيء أكفره ـ بالكسر ـ أي: سترته، والكافر: الليل. كفر الليلُ الشيءَ وكفر عليه: غطاه، وكفر الليل على أثر صاحبي: غطاه بسواده وظلمته، وكفر الجهل على علم فلان: غطاه، والكافر: البحر لستره. وسمي الكافر كافراً لأنه ستر نعم الله ـ عز وجل ـ[2]. والكفر في الشرع نقيض الإيمان ورجل كافر جاحد لأنعم الله. قال عضد الدين الإيجي: «الكفر وهو خلاف الإيمان فهو عندنا عدم تصديق الرسول في بعض ما علم مجيئه ضرورة»[3]. فالكافر هو من جحد نعمة الله وسترها، والنعم التي سترها هي الآيات التي أبانت لذوي التمييز أنّ خالقها واحد لا شريك له وإرساله الرسل بالآيات المعجزة والكتب المنزلة والبراهين الواضحة نعمة منه ظاهرة فمن لم يصدق بها وردّها فقد كفر نعمة الله أي: سترها وحجبها عن نفسه.

والنفاق: وهو في اللغة من النفقة والنافقاء وهو جحر الضب واليربوع، وقيل: النفقة والنافقاء: موضع يرققه اليربوع في جحره فإذا أتى به من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج. وسمي المنافق منافقاً لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه فنافق أي: دخل في النافقاء، ومنه اشتقاق المنافق في الدين. والنفاق في الشرع الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من

---

(١) التعريفات ص ٣٤.

(٢) لسان العرب (كفر).

(٣) المواقف ج ٨ ص ٣٣١.

آخر، قال ابن منظور: «مشتق من نافقاء اليربوع، إسلامية. وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسماً وفعلاً، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في اللغة معروفاً»[1]. وكان الجاحظ من قبل قد قال: «وإنما سمّى الله ـ عز وجل ـ الكافر في باطنه المورّي بالإيمان والمستتر بخلاف ما يسرّ بالمنافق على النافقاء والقاصعاء وعلى تدبير اليربوع في التورية عن شيء، قال الشاعر:

إذا الشيطان قصّع في قفاها تنفقناه بالحيل التوأمِ

وهذا الاسم لم يكن في الجاهلية لمن عمل بهذا العمل، ولكن الله ـ عز وجل ـ اشتق لهم هذا الاسم من هذا الأصل»[2].

والفسق: وهو في اللغة من فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، والفسق: الخروج عن الأمر، وقد قال ابن الأعرابي: «لم يسمع قط في كلام الجاهلية ولا في شعرهم فاسق»[3]. والفسق في الشرع: العصيان والترك لأمر الله ـ عز وجل ـ والخروج عن طريق الحق.

فألفاظ الشهادة والصلاة والصوم والحج والعمرة والزكاة وغيرها من الألفاظ التي جاءت في أبواب الفقه من الأسماء الشرعية، والإسلام والإيمان والكفر والنفاق والفسق من الأسماء الدينية أي أنها من «الحقيقة الشرعية» التي تحددت بعد نزول القرآن الكريم ووضع كتب الفقه والأصول. وقد اتضح أن هذه الألفاظ انتقلت من المعاني الحقيقية أو من الحقيقة اللغوية إلى معانٍ أخر لم تكن معروفة بهذا المعنى في الجاهلية، وكان هذا الانتقال إلى دلالات جديدة تطوراً في اللغة العربية وتوسعاً في سبيل القول. ولو أحصيت مثل هذه الألفاظ لوجد الباحث ثروة لغوية كبيرة كان للإسلام والكتاب الخالد أكبر الأثر في ازدهارها. وهذه إحدى وسائل نمو اللغة وتطورها ولو أخذ بها في جوانب

---

(١) لسان العرب (نفق).

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٣) لسان العرب (فسق).

أخرى لنمت العربية وازدهرت، وهي وسيلة يجد المعاصرون فيها خير ما يفتح الطريق أمامهم في عملية التعريب؛ لأن هناك متسعاً في الدلالة وباباً تدخل فيه كثير من المصطلحات: أي أن الباحث يستطيع أن ينقل الألفاظ من معانيها القديمة إلى معانٍ جديدة يتطلبها العصر وتقدّم العلوم والفنون. وقد وعى الأوائل هذه الوسيلة واستعانوا بها وهم يرون القرآن الكريم يخصص بعض الألفاظ ويطلقها على معانٍ إسلامية بعد أن كانت تدل على معانٍ أخر، فالمؤمن والمسلم والكافر والمنافق «مما جاء في الإسلام»[1] وإن كانت لها أصول لغوية في الجاهلية، ولكن الشريعة زادت شرائط وأوصافاً لم تكن معروفة من قبل. وهذا الصنيع يفتح للمعاصرين باب «الحقيقة العرفية» ولا سيما «الخاصة» لتكون اللغة أكثر قدرة على استيعاب متطلبات العصر الحديث، وليس ذلك بالأمر الصعب إن بذلت الجهود واستثيرت الهمم.

تلك وقفة عابرة على بعض الأسماء الشرعية والدينية، وقد أثار الدارسون مسألة «الحقيقة الشرعية» واختلفوا في الأسامي فقال ابن برهان في كتابه في الأصول: «اختلف العلماء في الأسامي هل نقلت من اللغة إلى الشرع؟ فذهبت الفقهاء والمعتزلة إلى أن من الأسامي ما نقل كالصوم والصلاة والزكاة والحج». وقال القاضي أبو بكر: «الأسماء باقية على وضعها اللغوي غير منقولة». ثم قال ابن برهان: «والأول هو الصحيح، وهو أن رسول الله ـ ﷺ ـ نقلها من اللغة إلى الشرع ولا تخرج بهذا النقل عن أحد قسمي كلام العرب وهو المجاز وكذلك كل ما استحدثه أهل العلوم والصناعات من الأسامي كأهل العروض والنحو والفقه وتسميتهم النقض والمنع والكسر والقلب وغير ذلك، والرفع والنصب والخفض، والمديد والطويل». وقال: «وصاحب الشرع إذا أتى بهذه الغرائب التي اشتملت الشريعة عليها من علوم حار الأولون والآخرون في معرفتها مما لم يخطر ببال العرب فلا بدَّ من أسامي تدل على تلك المعاني»[2]. وقال الإمام الغزالي: «والمختار عندنا أنه لا

---

(١) الصاحبي ص ٧٩.

(٢) المزهر ج ١ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩.

سبيل إلى إنكار تصرف الشرع في هذه الأسامي ولا سبيل إلى دعوى كونها منقولة على اللغة بالكلية كما ظنه قوم، ولكن عرف اللغة تصرف في الأسامي من وجهين:

أحدهما: التخصيص ببعض المسميات كما في الدابة فتصرف الشرع في الحج والصوم والإيمان من هذا الجنس، إذ للشرع عرف في الاستعمال كما للعرب.

والثاني: في إطلاقهم الاسم على ما يتعلق به الشيء ويتصل به كتسميتهم الخمر محرمة والمحرم شربها، والأم محرمة والمحرمة وطؤها، فتصرفه في الصلاة كذلك؛ لأن الركوع والسجود شرطه الشرع في تمام الصلاة فشمله الاسم بعرف استعمال الشرع إذ إنكار كون الركوع والسجود ركن الصلاة ومن نفسها بعيد فتسليم هذا القدر من التصرف بتعارف الاستعمال للشرع أهو من إخراج السجود والركوع من نفس الصلاة وهو كالمهم المحتاج إليه إذ ما يصوّره الشرع من العبادات ينبغي أن يكون لها أسامٍ معروفة ولا يوجد ذلك في اللغة إلّا بنوع تصرّف فيه»[1].

ومهما اختلف القدماء في هذه المسألة فإن معظمهم ذهب إلى أن كثيراً من الألفاظ الشرعية منقول عن معناه الأصلي، قال الشيخ أبو إسحاق: «وليس من ضرورة النقل أن يكون في جميع الألفاظ وإنما يكون على حسب ما يقوم عليه الدليل»[2]. وقال يحيى بن حمزة العلوي: «والمختار عندنا تفصيل قد نبهنا عليه في الكتب الأصولية، وحاصله أن الشرع قد نقلها إلى إفادة معانٍ أخر وأنها غير خالية عن الدلالة على معانيها اللغوية وأنها قد صارت حقائق في معانيها الشرعية ويدل على ما قلناه من كونها دالة بحقائقها على هذه المعاني الشرعية أمران:

أحدهما: أن السابق إلى الفهم هو هذه المعاني الشرعية عند إطلاقها

---

(١) المستصفى ج ١ ص ٣٣٠، وينظر نهاية السول ج ١ ص ٢٥١.

(٢) المزهر ج ١ ص ٢٩٩.

وهذه أمارة كون اللفظ حقيقة في معناه. ولهذا فإنه لو قيل: «فلان يصلي» لم يسبق إلى الفهم إلّا هذه الأعمال ومن جملتها الدعاء.

وثانيهما: أنه قد أفادت عند إطلاقها معنىً مصطلحاً عليه في خطاب الشرع كما أفاد قولنا: «فرس» و«إنسان» معانيهما اللغوية عند الإطلاق. فكما قضينا بكون هذه حقائق في دلالتها على معانيها فهكذا حال هذه الألفاظ الشرعية تكون حقائق من غير تفرقة بينهما»[1].

لقد فتح القدماء الطريق لمن يريد أن يتوسع في اللغة ويعطي الألفاظ دلالة جديدة يقتضيها التطور الذي تمرّ به الأمة العربية، وكان القرآن الكريم قد نبههم إلى ذلك لأنه أول من نقل الألفاظ إلى أسماء شرعية وأسماء دينية، وذكر كثيراً من الألفاظ الجديدة مثل: «القرآن»، قال الجاحظ: «وقد سمّى كتابه المنزل قرآناً وهذا الاسم لم يكن حتى كان»[2]، ومثل: «الفرقان» و«اليتيم» وهي من الألفاظ التي لم تكن معروفة بهذا المعنى في الجاهلية. إن قدرة الله ـ سبحانه ـ في اشتقاق الألفاظ فوق قدرة البشر، وقد تمثلت تلك القدرة العجيبة في كتابه المنزل على نبيه محمد ـ ﷺ ـ وأعطى الكتاب الخالد طاقة للغة العربية وإن كان العرب من قبل قد استحدثوا الألفاظ وحددوا الدلالات. فالنابغة الذبياني ـ مثلاً ـ أول من سمّى الأرض التي لم تحفر قط ولم تحرث إذا فعل بها ذلك مظلومة وقال:

إلّا الأواريّ لأياً ما أُبيّنُها   والنُّؤْي كالحوض بالمظلومة الجَلَدِ

وهذه حقيقة لا تنكر، وقد قال الجاحظ وهو يتحدث عن ألفاظ القرآن الكريم: «فإذا كانت العرب يشتقون كلاماً من كلامهم وأسماء من أسمائهم، واللغة عارية في أيديهم ممن خلقهم ومكنهم وألهمهم وعلمهم وكان ذلك منهم صواباً عند جميع الناس، فالذي أعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعة، وكما أن له أن يبتدىء الأسماء فكذلك له أن يبتدئها مما

---

(١) الطراز ج ١ ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) الحيوان ج ١ ص ٣٤٨.

أحب»[1]. وقال: «وإذا كان للنابغة أن يبتدىء الأسماء على الاشتقاق من أصل اللغة كقوله: «والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد» وحتى اجتمعت العرب على تصويبه وعلى اتباع أثره وعلى أنها لغة عربية، فالله الذي له أصل اللغة أحق بذلك»[2].

إن القرآن أطلق الألفاظ وأكسبها دلالة تعبّر عن الحياة الجديدة وأمثلة ذلك كثيرة، فالأسماء المحدثة في الإسلام والمصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية وغيرها تدخل في هذا الباب الواسع ولعل البحث في الحقيقة الشرعية يمثل جانباً من الجوانب الكثيرة التي أظهرها الإسلام ودفع اللغة إلى الازدهار الذي شهدته القرون. والأخذ بهذه القاعدة في تعريب العلوم وفنون الحضارة الجديدة يحلّ كثيراً من المصاعب التي تقف أمام العاملين الذين يبذلون جهوداً مضنية في سبيل تحقيق الذات ورفع راية اللغة العربية بين لغات الأمم المتحضرة. ولن يجد أولئك العاملون صعوبة كبيرة لأن الأساس الذي تقوم عليه الحقيقة الشرعية ينطبق على الحقيقة العرفية وهو نقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى جديد مع ملاحظة الصلة التي تربط بين المعنيين وهي ما سماه البلاغيون العلاقة؛ لأن الحقيقة الشرعية والحقيقة العرفية مجاز، ولكنه حينما يكثر ويستعمله العلماء وأصحاب الحرف والصناعات يصبح مصطلحاً لا ينصرف الذهن إلى غيره بل قد يُنسى فيه الأصل القديم. وخير مثال على ذلك الأسماء الشرعية والأسماء الدينية فإن الذهن لا ينصرف إلى المعنى القديم وإنما إلى المعنى الشرعي الجديد، ولا يعرف الأصل إلا بالرجوع إلى كتب اللغة في كثير من الأحيان. وقد انتبه الأصوليون إلى هذه المسألة وعقدوا فصولاً في بيان ما تترك به الحقيقة، ومن ذلك ما قاله السرخسي: «تترك الحقيقة بدلالة الاستعمال عرفاً؛ لأن الكلام موضوع للإفهام والمطلوب به ما تسبق إليه الأوهام. فإذا تعارف الناس استعماله لشيء عينا كان ذلك بحكم الاستعمال كالحقيقة فيه وما سوى ذلك ـ لانعدام

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٣٤٨.

(٢) الحيوان ج ٥ ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

العـرف ـ كالمهجور لا يتناوله إلّا بقرينة». ثم قال: «وبيان هذا في اسم الصلاة فإنها للدعاء حقيقة، قال القائل: «وصلّى على دنها وارتسم» وهي مجاز للعبادة المشروعة بأركانها، سميت به لأنها شرعت للذكر، قال تعالى: ﴿ وأقمِ الصلاةَ لذكْري ﴾[1]، وفي الدعاء ذكر وإن كان يشوبه سؤال. ثم عند الإطلاق ينصرف إلى العبادة المعلومة بأركانها سواء كان فيها دعاء أو لم يكن كصلاة الأخرس، وإنما تركت الحقيقة للاستعمال عرفاً. وكذلك الحج فإن اللفظ للقصد حقيقة ثم سميت العبادة بها لما فيها من العزيمة والقصد للزيارة فعند الإطلاق الاسم يتناول العبادة للاستعمال عرفاً، والعمـرة والصوم والزكاة وغيرها على هذا فإن نظائر هذا أكثر من أن تُحصى»[2].

إن الوقوف على بعض الأمثلة من الحقيقة الشرعية يمثل طاقة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب العلوم والفنون، وفيما ورد بكتاب الله وجاء به الإسلام قدوة حسنة لمن يريد البحث والاستقصاء وتطوير اللغة العربية في هذا القرن وغيره من الأزمان.

المصـــادر:

١ ـ إحياء علوم الدين ـ الإمام أبو حامد الغزالي. دار المعرفة ـ بيروت.

٢ ـ الاختيار لتعليل المختار ـ عبد الله بن مودود الموصلي. الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م.

٣ ـ الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ـ إمام الحرمين الجويني. تحقيق الدكتور محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد. القاهرة ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٥٠ م.

٤ ـ أسرار البلاغة ـ عبد القاهر الجرجاني. تحقيق ريتر. استانبول ١٩٥٤ م.

٥ ـ أصول السرخسي ـ محمد بن أحمد السرخسي. تحقيق أبو الوفا الأفغاني. القاهرة ١٣٧٢ هـ.

---

(١) سورة طه، الآية ١٤.

(٢) أصول السرخسي ج ١ ص ١٩٠ ـ ١٩١.

٦ ـ الإيضاح ـ الخطيب القزويني. القاهرة.
٧ ـ التعريفات ـ الشريف الجرجاني. القاهرة ١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م.
٨ ـ التلخيص ـ الخطيب القزويني. تحقيق عبد الرحمن البرقوقي. الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٣٥٠ هـ ـ ١٩٣٢ م.
٩ ـ الحيوان ـ الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٨ م.
١٠ ـ الخصائص ـ ابن جني. تحقيق محمد علي النجار. القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م.
١١ ـ الصاحبي ـ أحمد بن فارس. تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي. بيروت ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م.
١٢ ـ الطراز ـ يحيى بن حمزة العلوي. القاهرة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م.
١٣ ـ فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت ـ محمد بن نظام الدين الأنصاري. (مطبوع مع كتاب المستصفى للإمام الغزالي ـ القاهرة ١٣٢٢ هـ).
١٤ ـ لسان العرب ـ ابن منظور.
١٥ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الأثير. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م.
١٦ ـ المزهر ـ جلال الدين السيوطي. تحقيق محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. الطبعة الثالثة ـ القاهرة.
١٧ ـ المستصفى من علم الأصول ـ الإمام أبو حامد الغزالي. القاهرة ١٣٢٢ هـ.
١٨ ـ مفتاح العلوم ـ السكاكي. القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧ م.
١٩ ـ المفردات في غريب القرآن ـ الراغب الأصفهاني. تحقيق محمد سيد كيلاني. القاهرة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م.
٢٠ ـ مناهج العقول ـ محمد بن الحسن البدخشي. القاهرة.
٢١ ـ المواقف ـ عضد الدين الإيجي. القاهرة ١٣٢٥ هـ ـ ١٩٧٠ م.
٢٢ ـ نهاية السول ـ عبد الرحيم الأسنوي. القاهرة.
٢٣ ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ـ أبو السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري. تحقيق طه الزاوي ومحمود الطناحي. القاهرة ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م.

٤
بنائيـة العربيـة



سوسيـــر :

كانت الدراسات اللغوية في مطلع القرن العشرين تنحو منحىً تقليدياً، وكان اهتمام الباحثين العرب كبيراً بكتب النحو ومعاجم اللغة فلم يعرفوا الدراسات المقارنة أو التأريخية كما عرفتها أوربة في القرن التاسع عشر ومطلع هذا القرن، ولم يطلعوا على المناهج اللغوية التي بدأت تأخذ مكانتها في عالم البحث والتأليف إلاّ ما كان من بعض اللمحات التي ظهرت في كتب جرجي زيدان والأب أنستاس ماري الكرملي، فقد كتب الأول «الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية» و «اللغة كائن حيّ»، وألف الثاني «نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها» متأثرين ببعض ما كان سائداً في أواخر القرن التاسع عشر، ولكنهما لم يأتيا بمنهج جديد في دراسة اللغة العربية؛ لأن العهد الذي عاشا فيه كان قليل العناية بالبحوث التي استجدت على أيدي اللغويين الأجانب ومنهم العالم السويسـري فردنـاند دي سـوسير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣ م) الذي يعدّ منهجه الوصفي ثورة في الدراسات اللغوية. وقد كان لهذا المنهج أن يثمر لو التفت إليه العرب منذ عهد مبكر؛ لأنه قريب من منهج عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ أو ٤٧٤ هـ) الذي نظر إلى الكلام من خلال النظم ورأى أنه مجموعة من العلاقات Système de Rapports. ولعل الدكتور محمد مندور كان من أوائل الذين نبهوا إلى الصلة بين العالمين وقرر

(*) نشر بعنوان «عبد القاهر وسوسير» في مجلة الأقلام العدد (١٢) كانون الأول ١٩٨٣ م.

أن منهج عبد القاهر أصحّ ما وصل إليه علم اللغة في أوربة وأحدث ما عرفه الباحثون[1]. ولم تثر هذه الملاحظة اهتمام الدارسين إلّا في السنوات الأخيرة، فقد رجع بعضهم إلى التراث العربي وأخذ يتلمس الملامح العامة لمنهج الرجلين وبذلك بعث عبد القاهر بعد أن نسيه بنو قومه قروناً.

إن الموازنة بين عبد القاهر وسوسير قد تخلق حركة نقدية تعود بأبناء هذا الجيل إلى استشفاف المنابع العربية للنقد بعد أن طغت عليه المناهج الأجنبية وأصبح بعيداً عن الروح العربية وخصائص الأمة الأصيلة. ومما يفتح السبيل أمام الداعين إلى منهج عربي في النقد الأدبي أن أبناء هذا الجيل عرفوا ما ظهر من تيارات نقدية كالبنيوية والألسنية والأسلوبية، وهي مناهج اتخذت من الدراسات اللغوية أساساً. وكان عبد القاهر نحوياً قبل أن يكون بلاغياً ناقداً، وكان لمنهجه النحوي أثر عظيم في وضوح ملامح نظرية النظم عنده، وتعدّ هذه النظرية فلسفة اللغة العربية والمنهج النقدي السديد. والباحث في هذه المسألة لا بدّ من أن يبدأ بسوسير ويقف على أثره في الدراسات الحديثة لأنه شغل بمنهجه الباحثين، ولأنه كان سبب عودة عبد القاهر إلى ميدان النقد واللغة بعد أن نسيه أهلوه، ولأن أهم أسس نظريته أصبحت «جزءاً من التراث اللغوي العربي»[2].

لقد اهتم الأوربيون في القرن التاسع عشر بالمنهج التأريخي المقارن في علم اللغة، وذلك بعد أن كشف سير وليم جونز Sir William Johns اللغة السنسكريتية والعلاقة بينها وبين اليونانية واللاتينية، وكان للنظريات العلمية التي ظهرت في ذلك القرن أثر في مثل تلك الدراسات. ولم يدم هذا الاتجاه فقد «أخذ العلماء ينظرون إلى اللغة على أنها بنية أو نظام عناصره المختلفة يعتمد بعضها على بعض، ووجود هذا النظام مهم بالنسبة لفهم كل من التغير اللغوي واللغة من حيث هي لغة، والدور الذي تقوم به اللغة في المجتمع»[3]. وكان لمحاضرات سوسير التي نشرت عام ١٩١٦م باسم

(١) ينظر النقد المنهجي عند العرب ص ٣٢٦، في الميزان الجديد ص ١٤٧.
(٢) جدلية الخفاء والتجلي ص ١١.
(٣) علم اللغة ـ السعران ص ٣٧٢.

«دروس في علم اللغة العام» أو «مساق علم اللغة العام»[1] Cours de Linguistique Générale أثر كبير في تطور الدراسات اللغوية والمنهج الوصفي، ولذلك يعدّ هذا العالم مؤسس علم اللغة الحديث وصاحب فكرة «المنهج الوصفي» الذي عني به الدارسون في هذا القرن واتخذوه أساساً في دراساتهم اللغوية. وكان سوسير قد وضع في محاضراته منهجاً شكلياً تركيبياً مبنياً على وجهة نظر دوركايم Emile Durkheim (١٨٥٨ ـ ١٩١٧ م) الذي حدّد الوقائع الاجتماعية على أساس أنها أشياء تشبه الأشياء التي تدرس في العلوم الطبيعية وأنها ذات طبيعة عامة، أي أنها ليست فردية. والشيء عنده ينتظم كل موضوعات المعرفة التي لا يمكن إدراكها بالنشاط العقلي الداخلي ولكن بما تقتضيه من الخبرة والملاحظة والتجربة، ويمكن أن تعدّ اللغة شيئاً وهي ليست فردية ولكنها عامة. وكان لهذه الفكرة أثر في سوسير فتحول في الدرس اللغوي عما كان عليه، ونظر إلى اللغة على أنها شيء عام شأنه شأن الوقائع الاجتماعية الأخرى. وقد فرّق بين ثلاثة مصطلحات:

الأول: Le Langage ـ وهو اللغة بمعناها العام المطلق أو الكلام الإنساني بوجه عام.

الثاني: La Langue ـ وهو اللغة المعينة الصالحة للدراسة العلمية كالعربية والإنكليزية والفرنسية والألمانية.

الثالث: La parole ـ وهو الكلام الذي يمارسه الفرد في المجتمع أو الاستعمال الفردي للغة بقصد توصيل رسالة ما.

ولا يمثل المصطلح الأول واقعة اجتماعية نقية لأنه يضم إلى الجوانب الاجتماعية جوانب فردية ومثله المصطلح الثالث لأنه فردي والفردي يقوم على عناصر الاختيار، والاختيار لا يمكن التنبؤ به، وما لا يمكن التنبؤ به لا يمكن دراسته دراسة علمية، أما المصطلح الثاني فهو الذي يمثل الواقعة الاجتماعية. ويتضح من ذلك أن في دراسة اللغة ناحيتين:

---

(١) صدرت ترجمته العربية بقلم الدكتور يوئيل يوسف عزيز في بغداد آذار ١٩٨٥ م باسم «علم اللغة العام» عن دار آفاق.

الأولى: جوهرية موضوعها اللغة المعينة وهي اجتماعية في جوهرها ومستقلة عن الفرد، وهذه الناحية نفسية.

الثانية: فردية تتناول الدور الفردي للغة باعتباره موضوعاً لها وهو الكلام المكوّن من أصوات، وهذه نفسية وعضوية معاً.

وفرّق سوسير بين علم اللغة الخارجي والداخلي، فالأول يقوم بتجميع المواد والتفاصيل من غير حاجة إلى صبّها في قالب معين، ويستطيع الدارس أن يذكر ما يتصل بانتشار أية لغة خارج حدودها الأصلية أو يبحث العوامل التي أدّت إلى تكوين لغة أدبية مقابل لهجات شعبية، والثاني يقوم بدراسة العلاقات في اللغة ونسقها الخاص. وقد شبّه سوسير ذلك بلعبة الشطرنج، فإن دراسة نشأة هذه اللعبة وانتقالها من الشرق إلى الغرب يعدّ أمراً خارجياً، ودراسة نظامها وقوانينها تعدّ شيئاً داخلياً، ولو غيرت قطع الشطرنج الخشبية بأخرى من العاج لم يتبدل نظام اللعب، أما لو زيد عليها أو قلّل عددها لأثّر ذلك في قواعد اللعب وغيّر من قوانينه. وهذا التشبيه يؤكد أن اللغة نظام أو نسق له قواعده الخاصة وأن مكونات هذا النسق مترابطة فيما بينها، وإن المهم في دراسة اللغة هو نسقها أي التنظيم الداخلي لا تأريخها ونشأتها أو مراحل تطورها.

وكانت العلامات Signes مهمة في هذا المنهج، فقد عدّ اللغة نظاماً من العلامات التي تتكون من شيء مسموع ومن تصوّر مرتبط بها ارتباطاً لا انفصام له ولذلك لا يكون للكلمة قيمة إلّا من خلال نظمها أو تركيبها، أي أن هذه العلامات اعتباطية تكتسب أهميتها عن طريق التقابل وإن كانت هناك بعض العناصر المسببة مثل المحاكاة الصوتية وغيرها. وهذه العلامات مزدوجة أي أنها اتحاد لصورة صوتية هي الدالّ بتمثل ذهني أو تصور هو المدلول. وتتحقق الدلالة من ائتلاف هذين العنصرين اللذين لا يمكن الاستغناء عن واحد منهما فهما كوجه الورقة وظهرها ولا يمكن تمزيق الأول من غير تمزيق الثاني فإذا ذهب الدالّ ذهب المدلول أي أن أي تغيير في الصورة السمعية يؤدي إلى تغيير في التصور، وأي تغيير في التصور يؤدي إلى تغيير في الصورة السمعية.
ولا تشمل العلامة الألفاظ وحدها وإنما تشمل كل ما يمكن تمييزه كالجمل

والعبارات والكلمات والأصوات. ودعا سوسير إلى أن يكون علم اللغة مستقلاً وكان يقول: «إن موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة ذاتها ومن أجل ذاتها» أي أن تدرس دراسة موضوعية تستهدف الكشف عن حقيقتها لا لتحقيق أغراض تربوية أو لأجل ترقيتها، وإنما لوصفها وتحليلها.

هذه أهم أسس نظرية سوسير[1]، ويتضح منها:

١ ـ أن سوسير كان متأثراً بآراء دور كايم في اتجاهه إلى دراسة اللغة باعتبارها واقعة اجتماعية.

٢ ـ أنه اتخذ المنهج الوصفي أساساً في دراسة اللغة.

٣ ـ أنه فرق بين اللغة والكلام مع اعترافه بتلازمهما.

٤ ـ أنه درس اللغة على أساس أنها نظام من العلامات.

٥ ـ أنه جعل البنية أي التركيب الداخلي أهم مميزات اللغة.

٦ ـ أنه نظر إلى اللغة باعتبارها علماً مستقلاً بذاته.

ولا تزال أسس هذا المنهج عمدة الدرس اللغوي على الرغم من الانتقادات التي وجهت إليه من تلميذه شارل بالي Charles Balley الذي رأى أن أستاذه بالغ في إعطاء اللغة الصبغة الذهنية بجعلها العقلي الجمعي، أو من غيره من علماء اللغة المعاصرين.

وكان لهذا المنهج أثر في ظهور البنيوية، وقد عدّ سوسير أباً لها، قال

---

(١) للاطلاع على منهج سوسير يراجع كتابه المشهور وكتب اللغة الأخرى مثل: مناهج البحث في اللغة ص ٣١، ٣٧، علم اللغة للسعران ص ٥١، ٥٣، ٣٢٧، ٣٧٢، التركيب اللغوي للأدب ص ٩٩، في علم اللغة العام ص ٢٩، اللغة بين العقل والمغامرة ص ١٥٦، النحو العربي والدرس الحديث ص ٢٤، ٣٢، اللغة والتطور ص ٥٩، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ص ١٠٦، الأسلوبية والأسلوب ص ١٥٢، ١٨٢، تقديم الدكتور مراد كامل لكتاب الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ص ٩، أسس علم اللغة ص ١١٥، دور الكلمة في اللغة ص ٢٩، ٣٢.

وتنظر كتب البنيوية مثل: البنيوية فلسفة موت الإنسان ص ٢٤، نظرية البنائية في النقد الأدبي ص ٢١، مشكلة البنية ص ٤٧، البنيوية لجان بياجيه ص ٦٣، البنيوية لجان ماري وآخرين ص ٣٠، ٦٣، ٢٢٧، الأنثروبولوجيا البنيوية ص ٤٩ وما بعدها.

جان بياجيه Jean Piaget: «نشأت البنيوية اللغوية حين بيّن فردينان دي سوسير بأن سياق اللغة لا يقتصر على التطورية Diachronie وبأن تأريخ الكلمة مثلاً لا يعرض معناها الحالي. ويكمن السبب في وجود النظام ـ لم يكن سوسير يستعمل لفظة بنية ـ بالإضافة إلى وجود التأريخ، وفي أن نظاماً كهذا يرتكز على قوانين توازن تؤثر على عناصره وترتهن كل حقبة من التأريخ بالنظام اللغوي المتزامن Synchronie بالفعل. فالعلاقة الأساسية التي تدخل في نطاق اللغة هي عبارة عن تطابق بين الشارة Signe والمعنى. ومن الطبيعي أن تؤلف مجموعة المعاني نظاماً يرتكز على قاعدة من التمييزات والمقابلات إذ إن هذه المعاني تتعلق ببعضها كما تؤلف نظاماً متزامناً إذ إن هذه العلاقات مترابطة»[1]. وعدّت البنيوية طريقة في الرؤية واتخذها بعض الباحثين منهجاً لهم، وظهرت الدراسات الاجتماعية واللغوية والنقدية تحمل هذا الاتجاه، وتعصّب لها بعضهم وعدّها الدكتور كمال أبو ديب «ثالث حركات ثلاث في تأريخ الفكر الحديث يستحيل بعدها أن نرى العالم ونعاينه كما كان الفكر السابق علينا يرى العالم ويعاينه مع ماركس ومفهومي الجدلية والصراع الطبقي بشكل خاص أصبح محالاً أن نعاين المجتمع كما كان يعاينه الذين سبقوا ماركس، ومع الفن الحديث وبعد أن رسم بيكاسو كراسيَّه ـ كما يعبر روجيه غارودي ـ أصبح محالاً أن نرى كرسياً كما كان يراه الذين سبقوا بيكاسو، ومع البنيوية ومفاهيم التزامن والثنائيات الضدية والإصرار على أن العلاقات بين العلامات لا العلامات نفسها هي التي تعني، أصبح محالاً أن نعاين الوجود ـ الإنسان والثقافة والطبيعة ـ كما كان يعاينه الذين سبقوا البنيوية»[2].

عبـــد القاهـــر:

إن هذا الاهتمام بالبنيوية التي أخذ نجمها يأفل وأصبحت «فلسفة موت الإنسان» نبّه إلى عبد القاهر الذي أقام البلاغة على العلاقات بين الألفاظ أي النظم، وبذلك عاد منهجه النقدي وشُغل به الدارسون. لقد ألف هذا العبقري

---

(١) البنيوية ص ٦٤.

(٢) جدلية الخفاء والتجلي ص ٧ ـ ٨.

كتباً كثيرة في النحو ودراسات القرآن الكريم[1] ولكن أهم كتبه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، وقد سعى في الأول إلى إثبات أن بلاغة الكلام تكون فيما بين ألفاظه من ائتلاف وإن كتاب الله معجز بالنظم. وألف كتابه الثاني لغاية بلاغية ووضع الأصول وبيان الأقسام ولكنه لا ينفصل عن الكتاب الأول فكلاهما ينتظمان في فكرة واحدة هي النظر إلى الكلام من خلال نسقه وعلاقة ألفاظه فيما بينها لأن النظم عند عبد القاهر تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض أي أنه ليس سوى حكم من النحو أو «توخي معاني النحو»[2]. قال: «اعلم أن ليس النظم إلّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ بشيء منها»، ثم قال: «هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلّا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له. فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلّا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه»[3].

والفرق بين العبارات ليس في الحركات الإعرابية وما يطرأ على الكلمة من بناء أو إعراب، وليس في الألفاظ من حيث هي ألفاظ مفردة، وإنما الفضيلة وخلافها تثبت لها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ. وضرب عبد القاهر أمثلة وضح فيها هذه الفكرة وقال: «ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظة «الأخدع» في بيت الحماسة:

---

(١) تنظر في كتاب عبد القاهر الجرجاني ـ بلاغته ونقده ص ٢٥ ـ ٤٧.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٨٢، ٣١٧، ٤٠٤، المقتصد ج ١ ص ٩٣.

(٣) دلائل الإعجاز ص ٦٤ ـ ٦٥.

تلفَّتُ نحـو الحيِّ حتى وجـدتني وجعت من الإصغـاء ليتاً وأخـدعا

وبيت البحتري:

وإني وإنْ بلَّغْتني شَـرَفَ الغنى واعتقت من رِقّ المطامع أَخْدعي

فإن لهذا في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يـا دهر قَـوِّمْ من أخـدعيـك فقـد أضججت هـذا الأنام من خُـرقك

فتجد لها من الثقل على النفس والتنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة. ومن أعجب ذلك لفظة: «الشيء» فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع وضعيفة مستكرهة في موضع وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة:

ومن مـالىءٍ عينيه من شيء غيـره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وإلى قول أبي حيّة النميري:

إذا مـا تقـاضى المـرءَ يـومٌ وليلةٌ تقـاضـاه شيء لا يمـلّ التقـاضيـا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول. ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لـو الفلك الـدوّار أبغضت سعيـه لـعـوّقـه شـيء عـن الـدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم. وهذا باب واسع فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلماً بأعيانها ثم ترى هذا قد فرع السماك وترى ذاك قد لصق بالحضيض. فلو كانت الكلمة إذا حسنت حسنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت إما أن تحسن أبداً أو لا تحسن أبداً»[1]. ومن سر هذا الباب أن اللفظة قد تستعار في عدة مواضع فيكون لها في بعض ذلك ملاحة ليست في الباقي، مثال ذلك لفظة: «الجسر» في قول أبي تمام:

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٨ ـ ٤٠.

لا يطمع المرء أن يجتاب لُجَّتَهُ بالقول ما لم يكن جِسْراً له العَمَلُ

وقوله:

بصرت بالراحة العظمى فلم ترها تنال إلّا على جسر من التعب

فيكون لها في الثاني حسن ليس في الأول، ثم ينظر إليها في قول ربيعة الرقي:

قولي نعم ونعم إن قلت واجبة قالت عسى وعسى جسر إلى نعمِ

فيكون لها لطف وخلابة وحسن ليس الفضل فيه بقليل[1]. وسرّ ذلك أن النظم اختلف فتغيرت مواقع الألفاظ وكان لها في كلٍ موقع قيمة مختلفة. فعبد القاهر يربط بين الفنون البلاغية والنظم ويرى - مثلاً - أن التشبيهات إذا غيّرت أو أصابها التقديم والتأخير فقدت كثيراً من مزاياها، وخير مثال على ذلك تعليقه على بيت بشار:

كأنَّ مثارَ النقْع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبه

فالنظم بين كلمات هذا البيت هو الذي أخرجه هذا المخرج، ولو غيّرت الألفاظ عن موضعها لفسد التشبيه، لأن الشاعر لم يرد أن يشبه النقع بالليل على حدة والأسياف بالكواكب على حدة، ولكنه أراد أن يشبه النقع والأسياف تجول فيه بالليل في حال ما تتساقط الكواكب وتتهاوى فيه. فكان للبيت ما كان من الحسن حينما توخى فيه هذا النظم ووضعت أجزاء التشبيه فيه هذا الوضع الدقيق[2].

وأرجع عبد القاهر الفضل في الاستعارة إلى النظم، فالمزية في قوله تعالى: ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾[3] ليس للاستعارة وحدها ولكن لنظم العبارة ومجيء «الرأس» فاعلاً و«الشيب» تمييزاً، ولو قيل: «اشتعل شيب الرأس» أو «الشيب في الرأس» لذهبت تلك المزية[4]. وانتهى إلى أن الاستعارة والكناية

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٢.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣١٤ - ٣١٨.

(٣) سورة مريم، الآية ٤.

(٤) دلائل الإعجاز ص ٨٠ - ٨١.

والتمثيل وسائر ضروب المجاز من «مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخَ فيما بينها حكم من أحكام النحو. فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره»[1].

إن نظرته إلى نسق الكلام وارتباط بعضه ببعض جعلته يتخذ النظم أساساً في نقد الكلام ولذلك كانت الألفاظ عنده رموزاً للمعاني المفردة التي تدل عليها هذه الرموز أو مجرد علامات للإشارة إلى شيء ما وليست للدلالة على حقيقته، والإنسان يعرف مدلول اللفظ المفرد أولاً ثم يعرف هذا اللفظ الذي يدلّ عليه ثانياً. قال: «إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد، وهذا علم شريف وأصل عظيم. والدليل على ذلك إنا إن زعمنا أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة إنما وضعت ليعرف بها معانيها في أنفسها لأدى ذلك إلى ما لا يشك عاقل في استحالته، وهو أن يكونوا قد وضعوا للأجناس الأسماء التي وضعوها لها لتعرفها بها حتى كأنهم لم يكونوا قالوا: «رجل» و «فرس» و «دار» لما كان يكون لنا علم بمعانيها وحتى لو لم يكونوا قالوا: «فعل» و «يفعل» لما كنا نعرف الأمر من أصله ولا نجده في نفوسنا، وحتى لو لم يكونوا قد وضعوا الحروف لكنا نجهل معانيها فلا نعقل نفياً ولا نهياً ولا استفهاماً ولا استثناءً. وكيف والمواضعة لا تكون ولا تتصوّر إلّا على معلوم فمحال أن يوضع اسم أو غير اسم لغير معلوم، ولأن المواضعة كالإشارة فكما أنك إذا قلت: «خذ ذاك» لم تكن هذه الإشارة لتعرف السامع المشار إليه في نفسه ولكن ليعلم أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي تراها وتبصرها، كذلك حكم اللفظ مع ما وضع له»[2]. وقال: «لأن اللغة تجري مجرى العلامات والسمات ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه وخلافه، فإنما كانت «ما» ـ مثلاً ـ علماً للنفي؛

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٠.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٤١٥ ـ ٤١٦.

لأن ههنا نقيضاً له وهو الإثبات، وهكذا إنما كانت «مَنْ» لما يعقل لأن ههنا ما لا يعقل»[1]. وقال: «وليت شعري هل كانت الألفاظ إلّا من أجل المعاني؟ وهل هي إلّا خدم لها ومصرّفة على حكمها؟ أو ليست هي سمات لها وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها؟ فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقبل أن كانت. وما أدري ما أقول في شيء يجرّ الذاهبين إليه إلى أشباه هذا من فنون المحال ورديء الأحوال»[2]. إن الألفاظ علامات للمعاني وإشارات إليها، وهي اعتباطية لم توضع لمطابقة بينها وبين مدلولاتها وإنما تكتسب ذلك بالاستعمال ووضعها في التراكيب.

ووقف عبد القاهر عند حروف الكلمة وترتيبها ورأى أنها لا تدل على شيء قبل وضعها وكان بوسع الواضع أن يضع أية كلمة على أية صورة، قال: «إن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتفٍ في ذلك رسماً من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال: «رَبَض» مكان «ضَرَبَ» لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد»[3]. وليس الأمر كذلك في نظم الكلم لأنه يُقتفى في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس فهو «نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضهم مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. وكذلك كان عندهم نظيراً للنسيج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح»[4]. ووقف عند حروف الكلمة الداخلية وقال إنها لا تؤثر في قيمة الكلمة أو فصاحتها، فليست لفظة: «الشَمْع» ـ بفتح الميم ـ أفصح منها بإسكانه، إذ ليس تفيد الفتحة شيئاً في

(١) أسرار البلاغة ص ٣٤٧.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٢٠.
(٣) دلائل الإعجاز ص ٤٠.
(٤) دلائل الإعجاز ص ٤٠.

الذي سمي به»[1]. أي أن وضع الكلمات أو حركات حروفها لا يستند إلى قانون إلا ما كان من صيغ استقرت بعد وضعها وحددتها أبنية الصرف وأصول الاشتقاق.

وفرّق عبد القاهر بين اللغة والكلام، فاللغة تخصّ الكلمات المفردة ومعانيها، قال: «العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علماً باللغة وبأنفس الكلم المفردة وبما طريقه الحفظ دون ما يستعان عليه بالنظر ويوصل إليه بإعمال الفكر»[2]. وقال: «إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ولكن لأن يُضم بعضها إلى بعض»[3]. والكلام هو ما يؤدي به الإنسان أغراضه ومراميه لأنه وسيلة التعبير عما في مكنون الضمير، قال: «اعلم أنّ الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها ويبين مراتبها ويكشف عن صورها ويجني صنوف ثمرها ويدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائرها، وبه أبان الله ـ تعالى ـ الإنسان من سائر الحيوان ونبّه فيه على عظم الامتنان»[4]. ولم يبحث اللغة في كتابيه «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة» لأن ذلك لم يكن من شأنه ولأن معرفتها طريق التوقيف ولا يتفاوت فيها الناس، وإنما كان وكده أن يبحث في الكلام وبلاغته ويظهر روعة القرآن وإعجازه. والكلام هو الذي يقع فيه التفاوت بين المتكلمين، قال: «وجملة الأمر أنه إنما يتصور أن يكون المعنى أسرع فهماً منه لمعنى آخر إذا كان ذلك مما يدرك بالفكر وإذا كان مما يتجدد له العلم به عند سمعه للكلام، وذلك محال في دلالات الألفاظ اللغوية لأن طريق معرفتها التوقيف والتقدم بالتعريف»[5]. وقال: «وقد علمنا علماً لا تعترض معه شبهة أن الفصاحة فيما نحن فيه عبارة عن مزية هي بالمتكلم دون واضع اللغة. وإذا كان كذلك فينبغي لنا أن ننظر إلى المتكلم هل يستطيع أن يزيد من عند نفسه في اللفظ

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٥٢.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٠٣.
(٣) دلائل الإعجاز ص ٤١٥.
(٤) أسرار البلاغة ص ٢.
(٥) دلائل الإعجاز ص ٢٠٦.

شيئاً ليس هو له في اللغة حتى يجعل ذلك من صنيعه مزية يعبر عنها بالفصاحة. وإذا نظرنا وجدناه لا يستطيع أن يصنع باللفظ شيئاً أصلاً ولا أن يحدث فيه وصفاً، كيف وهو إن فعل ذلك أفسد على نفسه وأبطل أن يكون متكلماً لأنه لا يكون متكلماً حتى يستعمل أوضاع لغة على ما وضعت هي عليه. وإذا ثبت من حاله أنه لا يستطيع أن يصنع بالألفاظ شيئاً ليس هو لها في اللغة وكنا قد اجتمعنا على أن الفصاحة فيما نحن فيه عبارة عن مزية هي بالمتكلم البتة وجب أن نعلم قطعاً وضرورة أنهم وإن كانوا قد جعلوا الفصاحة في ظاهر الاستعمال من صفة اللفظ فإنهم لم يجعلوها وصفاً له في نفسه ومن حيث هو صدى صوت ونطق لسان ولكنهم جعلوها عبارة عن مزية أفادها المتكلم، ولما لم تزد إفادته في اللفظ شيئاً لم يبق إلا أن تكون عبارة عن مزية في المعنى»[1]. فمعاني الكلمات في اللغة معروفة ولكن المتكلم هو الذي يعطيها قيمة من خلال العلاقات التي ينشئها بينها، وقد بنى عبد القاهر على ذلك موقفه من السرقات وربطها بالنظم، ولذلك لم يحكم عليها بالمعاني العامة أو بأخذ الألفاظ وإنما بترتيب الكلام وإخراجه على صورة جديدة. وإضافة الكلام إلى صاحبه ليس في الألفاظ وإنما في النظم، لأن اللغة مشتركة بين أصحابها. وهذا الرأي ينبع من موقفه من اللغة والكلام والتفريق بينهما[2].

الموازنة:

العودة إلى كلام سوسير وعبد القاهر تظهر التشابه في ثلاث مسائل:

الأولى: أن اللغة مجموعة من العلاقات وليست ألفاظاً مفردة.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٠٨.

(٢) تنظر السرقات في كتاب عبد القاهر الجرجاني ـ بلاغته ونقده ـ ص ١٨٣ وما بعدها. للأستاذ عبد القادر المهيري دراسة جيدة بعنوان «مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة» نشرها في «حوليات الجامعة التونسية» العدد (١١) سنة ١٩٧٤ م ص ٨٣ـ ١٢٤، وأهم ما فيها الحديث عن اللغة والكلام.

الثانية: أن الكلمات علامات اعتباطية وأنها تكتسب معناها من العلاقات التي بينها.

الثالثة: أن التفاوت لا يقع في اللغة وإنما في الكلام الذي هو مجال الدراسة والتحليل.

وليس معنى هذا الالتقاء أن منهج السويسري امتداد لنظرية النظم أو صورة لها؛ لأن هناك فروقاً واضحة بينهما:

الأول: أن سوسير اتخذ المنهج الوصفي في دراسة اللغة سبيلاً، وكان ذلك ثورة على المناهج السائدة في زمانه كالمنهج التأريخي الذي وحده لا يخدم اللغة ولا يظهر حقيقتها لأنها مجموعة علاقات تتخذ من البنية الداخلية مساراً لها، ولذلك كان إقحام أية دراسة فيها أو السعي إلى هدف معين يفسد علم اللغة الذي ينبغي أن يكون موضوعه الصحيح والوحيد هو اللغة ذاتها ومن أجل ذاتها. ولم يتخذ عبد القاهر هذا المنهج له سبيلاً؛ لأن العربية وصفت منذ عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي وتلاميذه ووضعت قواعدها وقوانينها، ولذلك كان اعتماد عبد القاهر على أصول النحو وقواعده، ولا تخرج نظرية النظم عن توخي معاني النحو.

الثاني: أن المنهج الوصفي الذي سار عليه سوسير يجعل اللغة المنطوقة أساس الدراسة اللغوية ولم يتخذ عبد القاهر هذه السبيل منهجاً له لأن هدفه ليس وصف اللغة ولا الوقوف على اللغة المنطوقة وإنما كان هدفه الأول الوقوف على روعة كلام الله وإعجازه وهو كلام مكتوب حفظه القرآن منذ نزوله على النبي محمد ـ ﷺ ـ والاهتمام بكلام العرب الذي كان معظمه مدوناً أو مكتوباً، ولذلك اختلف منهج الرجلين لأن هدفيهما مختلفان، فالأول يريد وصف اللغة والثاني يريد أن يقف على إعجاز القرآن الكريم ويظهر روعة كلام العرب.

الثالث: أن هدف سوسير كان دراسة اللغة لذاتها، وكان هدف عبد القاهر إظهار روعة القرآن وإعجازه، وقد انتهى إلى أن كتاب الله معجز بنظمه لا بالصرفة أو بتخير المفردات وحركات الكلمات أو الوزن وسهولة اللفظ.

الرابع: أن سوسير كان يهتم بوضع الصيغة، وهذا منهج اللغويين الذين اتخذوا الوصف منهجاً لهم؛ لأن الذي يعنيهم هو التركيب نفسه أو الصيغة نفسها قبل عنايتهم بما تؤديه التراكيب والصيغ من فروق أو معان مختلفة، ولم يكن هدف عبد القاهر ذلك وإنما كان يسعى إلى ما تؤديه العبارة من معنى والبحث عن المعاني الثواني أو «معنى المعنى». أي أنه كان لا يلتفت إلى الشكل الخارجي أو قواعد النحو المجردة لأن تلك مرحلة أولاها النحاة أهمية كبيرة ودرسها عبد القاهر نفسه في كتبه النحوية.

الخامس: انتهى عبد القاهر في نظرية النظم إلى الصورة وهي عنصر الكلام الرائع عنده وهي سبيل التفاوت بين كلام وكلام. وكان لإيضاح الصورة يكثر من الأمثلة وتحليلها ويكثر من التشبيه ليقرب الفكرة ويجعلها جليّة، ومن ذلك ربطه النظم بالصياغة والتصوير والوشي والنسيج والتحبير والبناء وتكراره للأفعال «نسج» و«صاغ» و«وشّى» وغيرها. وهذه خطوة أبعد مما أراد سوسير في دراسته للغة، وبذلك يكون عبد القاهر من علماء الأسلوب وتكون نظريته امتداداً لكلام الجاحظ على الصورة وتطويراً لها.

لقد أظهرت الموازنة بين الرجلين أنهما متفقان في بعض الوجوه ومختلفان في وجوه أخرى، واختلافهما أكثر من اتفاقهما؛ لأن سوسير كان لغوياً يعنيه وصف اللغة وملاحظة العلاقات بين الألفاظ وتحليلها وفق منهج البحث الذي سار عليه، وكان عبد القاهر نحوياً تهمه قضية إعجاز القرآن ولذلك لم يكن شكلياً وإنما كان يغوص إلى الأعماق ليكشف روعة الكلام وجماله ويظهر تأثيره في النفوس. ومن هنا يتفرد وإن كان مذهبه لغوياً كمذهب سوسير، ولكن المنهج والهدف وواقع اللغة فرضت على كل منهما طريقاً ولوّنت دراساتهما بما يلائم المنهج ويحقق الأهداف.

التقـويـم:

إن الكلام على هذين العالمين لا يراد منه التأريخ أو الموازنة بين رجلين عاشا في زمنين متباعدين وبيئتين متفاوتتين وثقافتين مختلفتين، وإنما ما أثاره كل منهما من نشاط فكري. أما عبد القاهر فقد كان له الفضل الكبير

في ظهور تفسير «الكشاف» للزمخشري واستقلال علم المعاني عن فنون البلاغة الأخرى. وكان أثره كبيراً في الدراسات النقدية ولكن ذلك الأثر لم يستمر لأن الرجل جاء والشمس تجنح إلى المغيب فتوقفت نظريته وأصابها الجمود على يد السكاكي والقزويني وشراح التلخيص. وأما سوسير فقد ظهر منهجه في مطلع القرن العشرين وكان العالم يومذاك يحث الخطى نحو التطور والإبداع، وقد تلقف منهجه كثير من اللغويين والنقاد والأدباء وعلماء الاجتماع وظهرت البنيوية التي شغلت الباحثين في النصف الثاني من هذا القرن فتطور منهج سوسير ودخل عوالم جديدة ومنها عالم البحث والتأليف عند العرب فتعصب له من تعصب وأصبح النقد العربي «غريب الوجه واليد واللسان».

إن النظرة الواعية في معظم ما نشر خلال القرن العشرين من دراسات أدبية ونقدية تظهر أن العرب وقعوا في خضم التيارات الفكرية والأدبية المتصارعة حيناً والمتغيرة حيناً آخر. وقد كانت الهيمنة في النصف الأول من هذا القرن للاتجاهات الفكرية ولذلك ظهرت المذاهب النقدية كالإتباعية والإبداعية والتأثرية والواقعية والنفسية. وكان لكل مذهب أنصار يذودون عنه ويكفرون من لا يؤيدهم وأصبح النقد في ضوء هذه التيارات تلخيصاً للمذاهب وعرضاً للآراء بعد أن تركت الجوانب الفنيّة وأصبح التمييز بين أدب وأدب ضعيفاً إن لم يكن معدوماً. ثم سادت مناهج أخرى في النصف الثاني من هذا القرن وطغت البنيوية والألسنية والأسلوبية على دراسة النقد وطبقت كثير من القواعد الصارمة على الأدب. وقد أدى ذلك إلى إهمال الأفكار والمعاني والصور وتحويل النقد إلى رسوم هندسية ومعادلات رياضية وعدسات مقعرة أو محدبة ورموز فيزياوية وتفاعلات كيمياوية. والنقد الأدبي ليس عرضاً للفكرة أو تحليلاً لجوانب النص الأدبي التأريخية أو الاجتماعية أو السياسية أو النفسية وحدها وإنما هو عملية متكاملة تشمل ذلك وتشمل دراسة النص باعتباره تركيباً لغوياً. والنقد العربي إذا ظل مرتبطاً بالتيارات المتغيرة والمناهج المتناحرة وبقي بعيداً عن واقع اللغة العربية والفكر القومي ومتخلفاً عن الثقافة الشاملة والنظرة الواعية والذوق الرفيع ـ لن يؤثر في تطور الحركة الأدبية وصبغها بالصبغة القومية. وهذا النقد الذي يسعى إليه المخلصون لا ينبغي أن يهمل

الأسلوب أو أن يترك الأفكار والمعاني؛ لأن الأسلوب هو الصورة المميزة للمبدع، ولن يعدّ أديباً من أسفّ في لغته وهبط في تعبيره وقصّر في تصويره، فكثيراً ما تكون «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»[1]. وهذا ما شغل عبد القاهر الذي أقام روعة الكلام وجماله وتأثيره على النظم أو الصورة التي يحدثها توخي معاني النحو أي الأسلوب الذي يظهر فيه تفاوت أديب عن آخر وتمايز كلام على كلام كما يقع التفاوت بين إنسان وإنسان أو سوار وسوار، قال: «واعلم أن قولنا: «الصورة» إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا. فلما رأينا البينونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة فكان بين إنسان من إنسان وفرس من فرس بخصوصية تكون في صورة هذا لا تكون في صورة ذاك، وكذلك كان الأمر في المصنوعات فكان بين خاتم من خاتم وسوار من سوار بذلك. ثم وجدنا بين المعنى في أحد البيتين وبينه في الآخر بينونة في عقولنا وفرقاً عبرنا عن ذلك الفرق وتلك البينونة بأن قلنا: «للمعنى في هذا صورة غير صورته في ذلك». وليس العبارة عن ذلك بالصورة شيئاً نحن ابتدأناه فينكره منكر بل هو مستعمل مشهور في كلام العلماء ويكفيك قول الجاحظ: «وإنما الشعر صناعة وضرب من التصوير»[2]. وهذا منطلق حسن في الدراسات النقدية يصدر عن بلاغة عبد القاهر التي نبعت من اللغة العربية وهي تمثل روح الأمة وأدبها المعطاء. وإذا كان منهج سوسير قد غيّر الدراسات الحديثة فلماذا لا يغيّر منهج عبد القاهر الدراسات العربية ويسمها بطابع أصيل؟ ولماذا يظل النقاد العرب يركضون وراء التيارات الغربية وأمامهم خير زاد وأقوم سبيل؟ إن البلاغة بفنونها المختلفة تسعى إلى هدف واحد هو إظهار روعة الكلام وأثره في النفوس وأنها خطوة تأتي بعد التحليل اللغوي أو النحوي للنص لأنها ليست منهجاً شكلياً وإنما هي أداة الكشف وتبيان ما في

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ١٣١ - ١٣٢.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٨٩.

الكلام من روعة وسحر وجمال. وقد دعا بعض الباحثين إلى إلغاء البلاغة أو اقتطاع جزء منها وهو «علم المعاني» وإعادته إلى النحو، قال إبراهيم مصطفى: «آن لمذهب القاهر أن يحيا وأن يكون سبيل البحث النحوي»[1] ونسي ـ رحمه الله ـ أن عبد القاهر أقام نظرية النظم على دراساته النحوية الواسعة وأن هذه النظرية كانت فلسفة العربية لا النحو وحده وأنها ضمّت إلى موضوعات علم المعاني فنون البيان وألوان البديع. يضاف إلى ذلك أن هناك فروقاً واضحة بين العلمين، فالنحو يبدأ بالمفردات وينتهي بالجملة المفردة وعلم المعاني يبدأ بالجملة المفردة ويصل إلى الجمل والعبارات أي أن «النحو ينظم الأبواب في جملة وأن علم المعاني ينظم الجمل في أسلوب كلام متصل»[2]، وأن النحو تحليلي والثاني تركيبي، وأن هدف كل منهما مختلف، فالنحو يقف في حكمه عند الصحة والخطأ ولا يُعنى بما في الكلام من جمال وأثر نفسي، وعلم المعاني يُعنى بالأمرين ويقيم الحكم على التحسس بمواطن الجمال موظفاً الذوق في تقويم الكلام، ولذلك وضع السكاكي البلاغة بعد الأصوات اللغوية والحروف والنحو، وهذا منهج علمي دقيق تقره الدراسات اللغوية الحديثة.

ودعا بعضهم إلى ضم البلاغة إلى علم اللغة، فعلم المعاني يُبحث في علم التراكيب، والحقيقة والمجاز في تطور الدلالة، وبعض فنون البديع في المشترك اللفظي. وقد انتهى الدكتور تمام حسان إلى «أن علم المعاني يتناول المعنى الوظيفي، وأن علم البيان يتناول المعنى المعجمي، وأن علم البديع يتناول صنعة فنية لا يتحتم فيها أن تتصل بالمعنى»[3] أي أن البلاغة لا تتناول المعنى الاجتماعي تناولاً مقصوداً وإن قدّمت لدراسته فكرتين تعدّان اليوم من أنبل ما وصل إليه علم اللغة الحديث في بحثه عن المعنى الاجتماعي الدلالي

---

(١) إحياء النحو ص ٢٠.

(٢) الأصول ص ٣٤٢.

(٣) اللغة العربية ـ معناها ومبناها ـ ص ٢٠٠، وينظر دلالة الألفاظ ص ١٢٣، في العربية ودراستها ص ٢٤٢ وما بعدها.

وهما: «فكرة المقال» Speech Event و«فكرة المقام» Context Situation فقالوا: «لكل مقام مقال»[1].

والبلاغة ـ وإن كانت مرتبطة بالدراسات النحوية واللغوية ـ مرحلة أبعد هدفاً وأوسع مدى؛ لأنها ليست تحليل الجملة تحليلاً شكلياً أو تعليم الناشئة صياغة الجمل وصحة التعبير وإنما هي دراسة الأساليب وتفاوتها ومعرفة خصائصها وأثرها والموازنة بينها وإظهار قيمتها في الإبداع الفني وجمال التصوير، ولذلك كانت الدعوة إلى إلغائها أو دمجها بالدراسات اللغوية مفسدةً وقضاءً على روح العربية، وكان تطبيق المناهج اللغوية الحديثة لوناً من إقحام ما لا يخدم اللغة. ويتجلى ذلك من وجوه:

الأول: إن لكل لغة سمات خاصة وما يصدق على لغة لا يصدق على غيرها وإن كانت من مجموعة واحدة.

الثاني: إن المناهج اللغوية الحديثة كانت ثورة على النحو التقليدي الذي قام على أسس اليونانية واللاتينية، وصدر النحو العربي من اللغة العربية وأخذ عنها أصوله وقواعده.

الثالث: إن المناهج الحديثة ولا سيما المنهج الوصفي تهتم باللغة المنطوقة وباللهجات العامية واللغات التي لم توضع لها قواعد كلغات الهنود الحمر أو لغات أقوام المجاهل والغابات، وعلوم العربية تُعنى باللغة المكتوبة واللغة المنطوقة التي لا تخرج على أصول اللغة وقواعد النحو ومقاييس البيان.

الرابع: إن المناهج الحديثة سريعة التغير أي أنها موجات شهد القرن العشرون كثيراً منها وكان آخرها منهج تشومسكي Noam Chomsky الذي عاد إلى اللغويين القدماء وأدخل عنصر المعنى في استنباط القواعد بعد أن أهمله أنصار المنهج الوصفي. وتغيرت البنيوية إلى تحويلية، قال جان بياجيه: «من الأهمية بمكان الملاحظة بأن شكل البنيوية اللغوية بدأ يأخذ منذ زمن س. هاريس وخاصة مع تشومسكي اتجاهاً توليدياً واضحاً على صعيد بنية علم

---

(١) ينظر اللغة العربية ص ٢٠، ٣٣٧، الأصول ص ٣٣٣.

النحو رغم الأسباب القوية التي تربط البنيوية اللغوية باعتبارات النظام المتزامن»[1].

الخامس: إن هذه المناهج تجعل العربية عرضة لمهب الريح وهي اللغة المرتبطة بكتاب الله وبالأمة العربية ورسالتها الخالدة.

السادس: إن معظم هذه المناهج اهتمت بظاهر اللغة وأهملت المعنى، والنحو عند العرب دراسة تركيب العبارة وما يقدم من معنى.

السابع: إن المناهج الحديثة لم تفد اللغات كثيراً ولم تيسر سبل تدريسها لأنها بقيت نظريات ينقصها التطبيق.

الثامن: إن معظم الدراسات اللغوية الحديثة لا تزال بعيدة عن أصحاب اللغة لصعوبتها وانصراف الكثيرين عنها، فكيف تصلح للغة العربية وينتفع بها الباحثون العرب خير انتفاع؟.

لقد كادت هذه المناهج وما تولّد منها تزعزع كيان اللغة العربية لأنها طبقت قسراً ولم تستلهم استلهاماً، ومن ذلك البلاغة التي هي روح الأدب ولون من الأساليب التي ينبغي أن يكون لها دور في تقويم النتاج الأدبي بعد أن تطور لتكون ملائمة لروح العصر. والبلاغة العربية ليست فرعاً من فروع علم اللغة التي كثرت مناهجها وتشعبت مسالكها وأصبح توحيدها صعباً، بل ليس هناك من فائدة يمكن أن تتحقق بإدماج «الفروع في فرع واحد له منهج واحد واصطلاحات واحدة بعد أن أثبت دي سوسير أنها فروع متعددة وميادين منفصلة، وأن كل فرع من فروع علم اللغة سواء الوصفي أو التأريخي أو الجغرافي له مشاكله الخاصة وموضوعاته الخاصة ومنهجه الخاص واسمه الخاص. وقد انبثقت جميعها بعد تأريخ طويل من الأخذ والرد والخطأ والصواب وهي الآن قد بدأت تستقر وتأخذ شكلاً مناسباً لكل فرع»[2]. فكيف تلغى البلاغة أو تدمج في النحو أو اللغة بعد أن ظهر أثرها وتجلت قدرتها على الإبداع؟. إن الدراسات البلاغية أساسية ولكنها ليست كل شيء في

---

(١) البنيوية ص ٦٧.

(٢) أسس علم اللغة ص ٢٤٢.

العمل النقدي لأنها تمثل الأسلوب وتحليله، والأسلوب مهم بل هو «العبقرية»[1] ولكنه لا يغني في النقد فهناك الأفكار والمعاني والأهداف، وهناك تحليل لجوانب النص التأريخية أو الاجتماعية أو السياسية أو النفسية. وهذا كله مهم لا ينبغي أن يهمل، على أن لا يصبح النقد معادلات علمية وجداول بيانية، وكان لانسون قد حذّر من ذلك قبل سنوات وأشار إلى وقوع كبار النقاد والباحثين في هذا الخطأ فأفسدوا الأدب وحولوه عن مساره[2]. ووقع كثير من نقاد العرب في مثل ما وقع فيه نقاد فرنسة وأصبح النقد نوعاً من الغيبيات أو التقليد المقيت واستحال كلاماً مبهماً لا يكشف عن معنى ولا يوضح هدفاً ولا ينير سبيلاً، وأصبح بعض النقاد يتكلم بما لا يفهم وأصبح القارىء كذلك الأعرابي[3] الذي وقف على مجلس الأخفش فسمع كلام أهله في النحو وما يدخل معه فحار وعجب وأطرق ووسوس فقال له الأخفش: «ما تسمع يا أخا العرب؟»، قال: «أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا».

وصفوة القول: إن النقد العربي ينبغي أن تكون له ملامح متميزة ومن ذلك أن يصدر عن روح اللغة العربية وتراثها وأن يهتم بالتحليل اللغوي ويعنى بالأسلوب الذي هو من أدق ما يتميز به أديب عن أديب بل هو العبقرية والإبداع، وأن يمثل الفنون الأدبية الملتزمة بقضايا الأمة ومصير الإنسان العربي. وقد استطاع النقد العربي القديم أن يكوّن صورة صادقة للأدب وأن يستمد أصوله منه، ولو قدّر له أن يتطور بعد القرن الرابع للهجرة لكان له شأن عظيم، والنقد الحديث أكثر قدرة على ذلك بعد النهضة التي شملت الوطن العربي والثقافة التي عمت البلاد. ولعل العودة إلى ما ترك الأقدمون والإفادة من التجارب الجديدة يخلق نقداً عربياً متميزاً يقرأه العربي فيشعر بروعته ويطّلع عليه الأجنبي فيقول: هذا نقد عربي أصيل. وفي بنائية العربية ما يعين

---

(١) ينظر في فلسفة اللغة ص ٣٠٦، الألسنية والنقد الأدبي ص ٥ وما بعدها.

(٢) ينظر منهج البحث في الأدب واللغة ص ٣١ وما بعدها.

(٣) ينظر الإمتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٣٩.

على ذلك على أن لا يقع النقد فيما وقع فيه وإنما يهتم بالمعنى والفكرة، ويعنى بالأسلوب ودلالته، ولعلّ نظرية عبد القاهر في النظم تكون منطلقاً لمثل هذا اللون من الدراسات فقد نظر إلى النص نظرة بنيوية ولكنه أعطى المعنى أهمية وغاص في الأعماق وكشف عن «معنى المعنى» وفي ذلك إنارة للسبيل.

المصـــادر:

١ - إحياء النحو - إبراهيم مصطفى. القاهرة ١٩٥١ م.
٢ - أسرار البلاغة - عبد القاهر الجرجاني. تحقيق هـ - ريتر. استانبول ١٩٥٤ م.
٣ - أسس علم اللغة - ماريو باي. ترجمة الدكتور أحمد مختار عمر. طرابلس - ليبيا ١٩٧٣ م.
٤ - الأسلوبية والأسلوب - الدكتور عبد السلام المسدي. الطبعة الثانية - تونس ١٩٨٢ م.
٥ - الأصول - الدكتور تمام حسان - الدار البيضاء ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
٦ - أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة - الدكتور نايف خرما. الكويت ١٣٧٩ هـ - ١٩٧٨ م.
٧ - الألسنية والنقد الأدبي في النظرية والممارسة - الدكتور موريس أبو ناضر. بيروت ١٩٧٩ م.
٨ - الإمتاع والمؤانسة - أبو حيان التوحيدي - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين - القاهرة.
٩ - الأنثروبولوجيا البنيوية - كلود ليفي شتروس - ترجمة الدكتور مصطفى صالح - دمشق ١٩٧٧ م.
١٠ - البنيوية - جان بياجيه - ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري - بيروت ١٩٧١ م.
١١ - البنيوية - جان ماري أوزياس وآخرون - ترجمة ميخائيل إبراهيم مخّول - دمشق ١٩٧٢ م.
١٢ - البنيوية فلسفة موت الإنسان - روجيه غارودي - ترجمة جورج طرابيشي - بيروت ١٩٧٩ م.
١٣ - التركيب اللغوي للأدب - الدكتور لطفي عبد البديع - القاهرة ١٩٧٠ م.
١٤ - جدلية الخفاء والتجلي - الدكتور كمال أبو ديب - بيروت ١٩٧٩ م.

١٥ ـ الحيوان ـ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ القاهرة ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٨ م.
١٦ ـ دلائل الإعجاز ـ عبد القاهر الجرجاني ـ الطبعة الخامسة ـ القاهرة ١٣٧٢ هـ.
١٧ ـ دلالة الألفاظ ـ الدكتور إبراهيم أنيس ـ القاهرة ١٩٥٨ م.
١٨ ـ دور الكلمة في اللغة ـ ستيفن أولمان ـ ترجمة الدكتور كمال محمد بشر ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ١٩٧٢ م.
١٩ ـ عبد القاهر الجرجاني ـ بلاغته ونقده ـ الدكتور أحمد مطلوب ـ بيروت ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م.
٢٠ ـ علم اللغة ـ مقدمة للقارىء العربي ـ الدكتور محمود السعران ـ القاهرة ١٩٦٢ م.
٢١ ـ الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية ـ جرجي زيدان ـ الطبعة الرابعة ـ القاهرة ١٩٦٩ م.
٢٢ ـ في علم اللغة العام ـ الدكتور عبد الصبور شاهين ـ الطبعة الثالثة ـ بيروت ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.
٢٣ ـ في فلسفة اللغة ـ الدكتور كمال يوسف الحاج ـ بيروت ١٩٦٧ م.
٢٤ ـ في اللغة ودراستها ـ الدكتور محمد عيد ـ القاهرة ١٩٧٤ م.
٢٥ ـ في الميزان الجديد ـ الدكتور محمد مندور ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة.
٢٦ ـ اللغة بين العقل والمغامرة ـ الدكتور مصطفى مندور ـ الإسكندرية ١٩٧٤ م.
٢٧ ـ اللغة العربية كائن حي ـ جرجي زيدان ـ دار الهلال ـ القاهرة.
٢٨ ـ اللغة العربية ـ معناها ومبناها ـ الدكتور تمام حسان ـ القاهرة ١٩٧٣ م.
٢٩ ـ اللغة والتطور ـ الدكتور عبد الرحمن أيوب ـ القاهرة ١٩٦٩ م.
٣٠ ـ مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة ـ عبد القادر المهيري. (بحث نشر في حوليات الجامعة التونسية العدد (١١) سنة ١٩٧٤ م).
٣١ ـ مشكلة البنية ـ الدكتور زكريا إبراهيم ـ القاهرة ١٩٧٦ م.
٣٢ ـ المقتصد في شرح الإيضاح ـ عبد القاهر الجرجاني ـ تحقيق الدكتور كاظم بحر المرجان ـ بغداد ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.
٣٣ ـ مناهج البحث في اللغة ـ الدكتور تمام حسان ـ القاهرة ١٩٥٥ م.

٣٤ ـ منهج البحث في الأدب واللغة ـ لانسون ومابيه ـ ترجمة الدكتـور محمد مندور ـ بيروت ١٩٤٦ م.
٣٥ ـ النحو العربي والدرس الحديث ـ الدكتور عبده الراجحي ـ بيروت ١٩٧٩ م.
٣٦ ـ نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ـ الأب أنستاس ماري الكرملي ـ القاهرة ١٩٣٨ م.
٣٧ ـ نظرية البنائية في النقد العربي ـ الدكتور صلاح فضل ـ القاهرة ١٩٧٨ م.
٣٨ ـ النقد المنهجي عند العرب ـ الدكتور محمد مندور ـ القاهرة.

٥

لغة نازك الملائكة

الاهتمام باللغة:

اهتم العرب بلغتهم كثيراً وتحدثوا عن لغة الكتاب والشعراء فقال ابن رشيق: «وللشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا أن يستعمل غيرها، كما أن الكتاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها إلاّ أن يريد شاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي فيستعمله في الندرة وعلى سبيل الخطرة»[1]. ونبهوا إلى ما يكرر الأديب أو المتحدث من ألفاظ فقال الجاحظ: «ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون، فلا بدّ من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بعينها ليديرها في كلامه وإن كان واسع العلم، غزير المعاني، كثير اللفظ»[2]. وعقدوا فصولاً للألفاظ وكان مقدّراً لتلك البحوث أن تبقى مزدهرة لولا ما أصاب اللغة العربية من جمود في العهود المتأخرة فانحصر البحث اللغوي في المعاجم أو في المقدمات التي كانت تعرض للفصاحة في كتب البلاغة المتأخرة.

(*) نشر في الكتاب التذكاري الذي أصدرته نخبة من الأساتذة في الكويت عام ١٩٨٥ م بعنوان «نازك الملائكة ـ دراسات في الشعر والشاعرة».

(١) العمدة ج ١ ص ١٢٨.

(٢) الحيوان ج ٣ ص ٣٦٦.

وأولى العلماء في مطلع القرن العشرين النقد اللغوي أهمية كبيرة ولكن النقد حينما تأثر بالفكر الغربي وأخذت التيارات الأجنبية تصطرع أصبح ذلك النقد في الظل وصار النقاد لا يعرضون لأحكامه إلّا في بعض الأحيان ولا يلتمسونه إلّا حينما يتحدثون عن الفصاحة وشروط اللفظة المفردة وهو ما وقف عليه البلاغيون جهودهم في القديم، وليس ذلك بصحيح؛ لأن النقد اللغوي من أهم ما ينبغي الالتفات إليه. وأثار ذلك العزوف الباحثين وتحدثوا عنه وذكروا إهمال المعاصرين له[١]، وكانت الشاعرة نازك الملائكة من أكثرهم حماسة للعناية باللغة، وكتبت بحثاً عن «الناقد العربي والمسؤولية اللغوية» قالت في مطلعه: «تتجلى لمن يراقب النقد العربي المعاصر ظاهرة خطيرة شائعة فيه، ملخصها أن النقاد يتغاضون تغاضياً تاماً عن الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية فلا يشيرون إليها ولا يحتجون عليها وكأنهم بذلك يفترضون أن من حق أي إنسان أن يمزق القواعد الراسخة وأن يصوغ الكلمات على غير القياس الوارد وأن يبتدع أنماطاً من التعابير الركيكة التي تخدش السمع المرهف، وكأنّ من واجب الناقد أن يوافق على ذلك كله موافقة تامة فلا يشير إلى الأخطاء ولا يحاول حتى أن يعطي تلك الأخطاء تخريجاً أو مسامحة. ولقد أصبح هذا التغافل هو القانون النافذ في كل نقد تنشره الصحف الأدبية حتى لقد يتصدى الناقد إلى نقد ديوان شعر مشحون بالأغلاط المخجلة فلا يزيد على أن يكيل كلمات الإعجاب للشاعر على تجديده وإبداعه مهملاً التعليق ولو بكلمة زجر عابرة على فوضى التعابير والأخطاء. أفلا ينطوي هذا الموقف من النقاد على تشجيع واضح للجيل كله على الاستهانة باللغة العربية والاستخفاف بقواعدها الرصينة؟ وإلى أي مدى ينبغي أن يعد الناقد نفسه مسؤولاً عن لغة الشعر المعاصر؟»[٢]. وترى أن ازدراء الناقد للجانب اللغوي ليس إلّا صورة من ازدراء الشاعر نفسه للغته وقواعدها، فقد استقر في أذهان الشبان أن الاهتمام باللغة والحرص على

---

(١) ينظر النقد الأدبي الحديث في العراق ص ١١٥ وما بعدها.

(٢) قضايا الشعر المعاصر ص ٣٢٥ - ٣٢٦.

قواعدها يدلان على جمود فكري ولذلك أخذ بعضهم يزدري اللغة ويهمل المقاييس اللغوية. ونازك حينما تدعو إلى صحة اللغة وسلامتها لا تريد التمسك بقواعد اللغة لذاتها ولا تحب أن تنصب مشانق أدبية لكل من يستعمل لفظة استعمالاً يهبها حياة جديدة أو يدعو ألى الاستغناء عن بعض شكليات النحو البالية بل تؤمن إيماناً عميقاً بالتجديد المبدع وتعتقد أن هذا التجديد لا يتم إلاّ على أيدي الشعراء والكتاب والنقاد المثقفين الموهوبين. تقول: «إن الشاعر بإحساسه المرهف وسمعه اللغوي الدقيق يمدّ للألفاظ معاني جديدة لم تكن لها، وقد يخرق قاعدة مدفوعاً بحسه الفنّي فلا يسيء إلى اللغة وإنما يشدّها إلى الأمام. الشاعر أو الأديب إذن هو الذي تتطور على يديه اللغة أما النحوي واللغوي فلا شأن لهما به. النحوي واللغوي عليهما واجب واحد هام، واجب الملاحظة واستخلاص قواعد عامة من كلام المرهفين من الكتاب والشعراء. على أن الأديب الذي سنتفق على تسميته مرهفاً لا بدّ أن يملك ثقافة عميقة تمتد جذورها في صميم الأدب المحلي قديمه وحديثه من اطلاع واسع على أدب أمة أجنبية واحدة على الأقل بحيث يتهيأ له حسّ لغوي قوي لا يستطيع معه إن هو خلق إلا أن يكون ما خلق جمالاً وسمواً، فإذا خرق قاعدة أو أضاف لوناً إلى لفظة أو صنع تعبيراً جديداً أحسسنا أنه أحسن صُنْعاً وأمكن لنا أن نعدّ ما أبدع وخرق قاعدة ذهبية»[1].

إن الشاعرة نازك ناقدة لغوية، وهي لا تريد أن تنحدر لغة الأدب المعاصر ولذلك وجهت عنايتها إلى هذا الجانب منذ عهد مبكر وفي مقدمة ديوانها «شظايا ورماد» شيء من ذلك ثم برزت عنايتها في كتاب «قضايا الشعر المعاصر» وكتاب «الصومعة والشرفة الحمراء» ومن آرائها أن «اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت» وإن «اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء التي تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التي تملأ أنفسنا اليوم. إنها قد كانت يوماً لغة موحية تتحرك وتضحك وتبكي وتعصف ثم ابتليت بأجيال من الذين يجيدون التحنيط وصنع التماثيل فصنعوا من ألفاظها نسخاً جاهزة

---

(١) مقدمة شظايا ورماد ـ الديوان ج ٢ ص ٧ ـ ٨.

ووزعوها على كتّابهم وشعرائهم دون أن يدركوا أن شاعراً واحداً قد يصنع للغة ما لا يصنعه ألف نحوي ولغوي مجتمعين»[١]. ودعت إلى أن يدخل الأديب المرهف «تغييراً جوهرياً على القاموس اللفظي المستعمل في أدب عصره فيترك استعمال طائفة من الألفاظ التي كانت مستعملة في القرن المنصرم ويدخل مكانها ألفاظاً جديدة لم تكن مستعملة، وذلك لأن الألفاظ تخلق كما يخلق كل شيء يمرّ عليه إصبع الاستعمال في هذه الحياة المتغيرة، وهي تكتسب بمرور السنين جموداً يسبغه عليها التكرار فتفقد معانيها الفرعية شيئاً فشيئاً ويصبح لها معنى واحد محدد يشكل عاطفة الأديب ويحول دون حرية التعبير»، ثم «إن الأذن البشرية تملّ الصور المألوفة والأصوات التي تتكرر وتستطيع أن تجردها من كثير من معانيها وحياتها، وخير مثال لهذا أننا ننفر الآن بطبيعتنا من استعمال ألفاظ كهذه: «عمبر، كافور، غصن بان، قدّ، هلال، صدغ، عود، نرجس، لؤلؤ» وهي ألفاظ كانت في بعض العصور السالفة تبدو رقيقة شعرية وربما كانت يوماً مما لا يستعمله إلّا المجددون من الشعراء»[٢]. وقد بذلت نازك جهداً لكي لا تستعمل مثل هذه الألفاظ ولا سيما لفظة: «البدر» التي تؤثر عليها لفظة: «القمر» التي تكررت في شعرها تسعاً وتسعين مرة، ولم تستعمل لفظة: «البدر» ولكنها استعملت «الهلال» الذي أنكرته وجمعه «الأهلة» أربع مرات[٣]، واستعملت «العنبر» مرتين في «للصلاة والثورة» مرة صفة للمساجد فقالت:

وتمطر فيها السماء خشوعاً تصلي الفصول
ويركع سنبلها تتهجد فيها الحقول
وعبر مساجدها العنبرية أسرى الرسول.

ومرة اسماً فقالت:
البحر منسكب أمامك عنبراً

---

(١) مقدمة شظايا ورماد ـ الديوان ج ٢ ص ٧.
(٢) مقدمة شظايا ورماد ـ الديوان ج ٢ ص ٩ ـ ١٠.
(٣) الديوان ج ١ ص ٣١٧، للصلاة والثورة ص ٦١، ١٤٢.

عسلاً ومدّاً من رشاش[١].

وست مرات في «يغير ألوانه البحر»[٢]، أي أن الشاعرة عادت إلى اللفظة في مرحلتها الشعرية الجديدة بعد أن رأتها نافرة. واستعملت «البخور» مرة واحدة في «للصلاة والثورة» و«النرجس» و«النرجسة» في «شظايا ورماد» و«يغير ألوانه البحر» وكان للؤلؤ واللآلى حضور في «شجرة القمر» و«للصلاة والثورة» و«يغير ألوانه البحر» وذكرت الياقوت والعقيق والشذر والزبرجد والحناء والزعفران والهيل والمرمر والرخام[٣]. وهذه من الألفاظ التي أنكرت كثيراً منها ولكن عودتها إليها في دواوينها الأخيرة يرتبط بالموضوعات التي نظمت فيها والأجواء التي تنمّ عليها فالعقيق والعنبر والبخور والحناء والزعفران مما يرتبط بالبيئة العربية التي عادت جديدة تتحدى ضراوة الغزاة وحقد الشعوبيين، وقد كانت نازك في أول حياتها الشعرية تجنح إلى الخيال وتعبّر عن الألم وتصوّر الأحلام فأنكرت مثل هذه الألفاظ ولكنها حينما عادت إلى الواقع وأخذت تلتزم بقضايا الأمة استعملتها لدلالتها الإيحائية الجديدة. واستعملت ألفاظاً أخرى أنكرتها مثل: «الغمائم» فقالت: «غمائم من لهيب سائل»[٤] وكانت تفضل لفظة: «الغيوم» كما في قولها:

يداك للمس النجوم

ونسج الغيوم.

وقالت عند تغييرها إلى «الغمائم» في قولها:

يـداك للمس النجـوم الـوضـاء ونسـج الغمـائم مـلء السمـاء

«ألم تنقلب اللفظة الحساسة «الغيوم» إلى مرادفتها الثقيلة «الغمائم» وهي على كل حال لا تؤدي معناها بدقة». وأنكرت «الوضاء» فقالت: «ألم

---

(١) للصلاة والثورة ص ٤٢، ٩٥.

(٢) يغير ألوانه البحر ص ٥٠، ٨٦، ١٢٩، ١٧٧، ١٨١، ١٨٨.

(٣) للصلاة والثورة ص ٧٣، ٩٤، ٩٨، ١٣٣، يغير ألوانه البحر ص ١٥، ٢٠، ٢٢، ٤٩، ٥٦، ٥٨، ٧٤، ٨٤، ٩٤، ٩٧، ١١٥، ١٢٨، ١٥٨، ١٦٥، ١٦٧، ١٧٧، ١٨٠، وغيرها.

(٤) يغير ألوانه البحر ص ١٢٦.

نلصق لفظ «الوضاء» بالنجوم دونما حاجة يقتضيها المعنى إتماماً للشطر بتفعيلاته الأربع»[١]. ولكنها عادت إلى ما أنكرته فقالت:

النجوم الوضاء لا تبعث السحر   إذا لم يسْدَل ستار الظلام[٢]

والكوكب يضيء والكواكب بيضاء ولكن الشاعرة قالت:

وخلف حيرة العطاش كوكب أضاء.

وقالت:

في غابة في شرف الكواكب البيضاء[٣].

ومثل ذلك لفظة: «مليكي» التي ظهرت في ديوانها الأخير وتريد به الله ـ تعالى ـ لا ما أراده القدماء وبعض المعاصرين[٤].

إن القيد الذي وضعته نازك في مرحلتها الشعرية الأولى بدأ ينكسر؛ لأن اللغة لا تحدّها قاعدة وقد قالت منذ عام ١٩٤٩ إن «الألفاظ ستتسع حتى تشمل آفاقاً جديدة من قوة التعبير»[٥]. وقالت في عام ١٩٥٧: «إن الشعر لا يقوم على الألفاظ بمعانيها القاموسية وحدها وإنما يستغل معاني أخرى خلفها، ويزيد فيحمل الألفاظ أحاسيس تجارب خاصة مرّت بها الأمة ومن ثم فهي تدركها إدراكاً غير واعٍ. والشاعر وهو يكتب يستفيد من هذه الخبرات التي تغذي اللغة وتمدّها إلى جهات لا تصلها حتى أدق القواميس، ثم إنه فوق استغلاله لهذه الحمولة التعبيرية في اللغة يجمع ألفاظه على صورة تخلق جواً إيحائياً عاماً يوحده تجاور الألفاظ وعلاقاتها ببعضها، وهذه صفات كل شعر عظيم»[٦]. فالشاعر والناثر يستعملان لغة واحدة ولكن الشاعر يضع «ألفاظ النثر في سياق شعري وذلك باستعمال الصور الحسّية وإضفاء غلالة من

---

(١) الديوان ج ٢ ص ١٢.

(٢) الديوان ج ١ ص ١٢٠.

(٣) يغير ألوانه البحر ص ٣٦، ٤٤.

(٤) يغير ألوانه البحر ص ١٩٩.

(٥) مقدمة شظايا ورماد ـ الديوان ج ٢ ص ٢٦.

(٦) مقدمة رباعيات الخيام ص (ط ـ ي).

الخيال واستثارة الأصداء البعيدة في الألفاظ وخلق الجو وإحاطة العبارات بأجواء نفسية متشابكة»[1]. ولغة القصيدة بعد ذلك عنصر أساسي في كفاءة هيكلها ولذلك «ينبغي أن تحتوي على كل ما تحتاج إليه لكي تكون مفهومة، وهذا هو السبب في نفورنا اليوم من استعمال الألفاظ القاموسية غير المألوفة في لغة العصر، وذلك أن هذا يحتفظ بجزء من معنى القصيدة في خارجها، في القاموس، وهذا في صميمه يتعارض مع التعبير ومع لحظة الإبداع عند الشاعر»[2]، أي أن على الشاعر الحديث «أن يعبر بلغة عصره وإلاّ ولد شعره ميتاً»[3]. وليس معنى ذلك أن الشاعرة تزدري اللغة وقواعدها ولا ترتبط بالتراث بل إنها عزت عرقلة مسيرة الشعر الحر إلى ازدراء بعض شعرائه للغة العربية وقواعدها وتحقيرهم للتراث[4]. والناقد الذي يتناول اللغة وينبه إلى ما فيها من الغلط والخروج ليس ناقداً رجعياً لا يفهم الأدب الحديث ومذاهب النقد الغربي، وإن «الشاعر العربي يخسر خسارة فادحة عندما يعتنق هذا الاستهتار باللغة، وهل الشعر في واقعه إلاّ مقدرة الشاعر على استعمال اللغة بحيث تشع ألفاظها المعاني والظلال والانفعالات؟ وإذا كان الشاعر لا يعترف بالأساليب والقواعد الرصينة فكيف يصون شعره من ركاكة الفوضى وضعف الروح بحيث يرقى إلى مستوى الشاعرية»[5]. ومن ذلك انطلقت في إبداء آرائها النقدية فتحدثت عن إيحاء الفعل «تنظّر» في بيت علي محمود طه:

وتنظّرته حياة فأعياني دبيب الحياة في مخلوقي[6]

وقالت: «الفعل «تنظّر» أكثف من الفعل «انتظر» ويوحي بفترة انتظار أطول وأمر، وهذه هي حالة الشاعر الذي أضاع عمره في صنع تمثاله الفذّ آملاً أن تدبّ فيه الحياة وقد طال به انتظاره وعبث به الأمل وبدأ يثقل عليه»[7].

---

(١) الصومعة والشرفة الحمراء ص ١٨٢.

(٢) قضايا الشعر المعاصر ص ٢٣٧.

(٣) للصلاة والثورة ص ٢٢.

(٤) للصلاة والثورة ص ٢٤.

(٥) الصومعة والشرفة الحمراء ص ٢٢١.

(٦) ليالي الملاح التائه ـ ديوان علي محمود طه ص ٣١٦.

(٧) قضايا الشعر المعاصر ص ٢٥٣.

وقالت عن لفظة: «المحرر» في بيت نزار قباني:

أجمعي شعرك الغزير يخيف الليل هذا المحرر المجنون[1].

«وأما لغة القصيدة فإن لها من عناصر القوة ما يدل على قدرة الشاعر على اختيار اللفظة التي تختزن طاقة إضافية من المعنى. فمن ذلك وصفه لشعر هذه المرأة بأنه محرر، فإن هذه الكلمة موحية تنطوي على شبه مشهد كامل فيه حركة وحياة، فإن «المحرر» هو الذي حرر بعد أن شدّ وأسر، واللفظة توقظ في الذهن صورة للفتاة وشعرها مربوط تليها صورة لها وهي تحرر هذا الشعر. وما من لفظة أخرى تؤدي هذا المعنى مثل: «محرر» فلو قال: «المسترسل» أو «المنطلق» أو «المنثال» لفقد مجهود صاحبة الشعر وجمدت الصفة جموداً يفقدها الكثير من تعبيريتها، وإنما مقصد الشاعر التلميح إلى أن زائرته قد تزيّنت للقائه زينة مبتذلة»[2].

وتجلت عناية نازك بالنقد اللغوي في كتابها عن علي محمود طه الذي سمته «الصومعة والشرفة الحمراء» وفيه تحدثت عن الألفاظ الموحية والقوية والتقابل والركة في التعبير ووعورة اللغة والموسيقى اللفظية والتناغم بين الحروف والتقسيم والترصيع والجناس وتوالي الأفعال الماضية وتكرار الحروف وصلة اللفظ بالمعنى والمناسبة وردّ العجز على الصدر والمترادف وألفاظ العلم[3].

لقد اهتمت نازك باللغة إلى جانب اهتمامها بالشعر، ودارس شعرها لن يعثر على الألفاظ الجاسية والنافرة أو على الغموض المفضي إلى الإبهام، لكنه يجد شعراً رقيقاً سليم اللغة صافي الأسلوب واضح الأهداف. ولغتها الشعرية تعبر عن حياتها الفكرية والوجدانية وتصوّر مشاعرها وأحاسيسها وتكشف عن ثقافتها وترصد مراحل التطور التي مرّت بها منذ صدور أول دواوينها وهو «عاشقة الليل» سنة ١٩٤٧ م.

---

(١) هذه رواية الطبعة الأولى من طفولة نهد ص ١١٥، أما في الطبعة الثامنة ص ١٤٩ فهو: اجمعي شعرك الطويل يخيف الليل هذا المبعثر المجنون.

(٢) الصومعة والشرفة الحمراء ص ٥٢.

(٣) ينظر الصومعة والشرفة الحمراء ص ٥٢ ـ ١٨٤.

الهيـــام بالطبيعـــة:

وأوضح ظاهرة في شعر نازك هيامها بالطبيعة واستعمال الألفاظ الدالة عليها للتعبير عن مشاعرها وأحاسيسها. وقد تكررت لفظة: «الطبيعة» في شعرها، وتريد بها عدة معانٍ، فهي الدنيا وهي مظاهر الكون وهي الحياة. وكان من أثر ذلك الهيام أن ألقت بنفسها في أحضانها ودعت إلى ارتيادها والعيش في ظلالها لأنها ملاذ الإنسان في هذا العالم الرهيب. وكانت الصورة الشعرية عندها هي الطبيعة فإذا تبعثرت جزئياتها اختلت الصورة وإذا اتسقت زهت الألوان أي أن ألفاظ الطبيعة كانت الأداة الأولى في تركيب تلك الصور، ولا يكاد موضوع من موضوعات شعرها يخلو من ألفاظ الطبيعة الحزينة أو المشرقة ففي مراثي أمها تلجأ إلى تلك الألفاظ وتقول:

إنها زهـرتنـا الـوسنى الحـزينـه أمسنا في لـونهـا ما زال لَـذْنـا
فمنحنـاهـا مـآقينـا الـسخينـه وحملنـاها مـع الذكـرى وعُدْنـا[1]

وفي تحيتها لمولد الجمهورية العراقية تقول:

فرح الأيتام بضمّة حب أبويّه
فرحة عطشان ذاق الماء
فرحة تموز بلمس نسائم ثلجيّه
فرح الظلمات بنبع ضياء
فرحتنا بالجمهوريّــه[2].

ويبدو في «مأساة الحياة» الالتجاء إلى مظاهر الطبيعة وتكرار الألفاظ الدالة عليها، ويتجلى ذلك في «عاشقة الليل» أيضاً؛ لأن الشاعرة كانت تنظم الملحمة في الوقت الذي كانت تنظم فيه قصائد الديوان، ولكنها كانت في الملحمة تمزج واقعها النفسي بما كـان يسود العـالم في أثناء الحـرب العالميةالثانية، وكادت تخلص لنفسها في الديوان إلاّ في بعض القصائد مثل:

---

(١) الديوان ج ٢ ص ٣٢٢.

(٢) الديوان ج ٢ ص ٤٤٩.

«مرثية غريق» و «سياط وأصداء» و «المقبرة الغريقة» وهي في هذه القصائد لم تبعد كثيراً عن ذاتها. وقد لخصت موقفها وأحاسيسها في هذا الديوان بقولها:

أعبّر عما تحسّ حياتي ... وأرسم إحساس روحي الغريب
فأبكي إذا صدمتني السنين ... بخنجرها الأبديّ الرهيب
وأضحك مما قضاه الزما ... ن على الهيكل الآدمي العجيب
وأغضب حين يداس الشعـ ... ـور ويسخر من فوران اللهيب[1]

وألفاظ الطبيعة ومظاهرها في هذا الديوان لا تبعد كثيراً عن «مأساة الحياة» وإن كانت الشاعرة تكثر فيه من ألفاظ «الزورق» و «المجداف» و «المعبد» فقد ذكرت اللفظة الأولى ثمانياً وعشرين مرة وذكرتها ست مرات في الملحمة، ولم تذكرها في «شظايا ورماد» و «قرارة الموجة» وذكرتها مرة واحدة في «شجرة القمر» ومرة في «للصلاة والثورة» وثماني مرات في «يغير ألوانه البحر». وذكرت «المعبد» سبع عشرة مرة في «عاشقة الليل» وكأنها تريد أن تذوب فيه لتنجو من الحياة وشقاء البشر. وتقلّ ألفاظ الطبيعة في «شظايا ورماد» وتبقى الألفاظ الدالة على الزمن واضحة مع بعض ألفاظ الأنواء والطبيعة، وسبب ذلك أن الشاعرة بدأت تقترب من واقع الحياة والتعبير عن المشاكل الإنسانية بعيداً عن الطبيعة ملاذ الهاربين من ألم الحياة. ولا يختلف ديوانها «قرارة الموجة» كثيراً عن سابقه، ولكن الشاعرة حينما تصل إلى «شجرة القمر» تنصرف إلى القضايا العامة وتلتزم بقضايا أمتها ووطنها، ولكنها ـ مع ذلك ـ احتفظت بقدر كبير من ألفاظ الطبيعة ومظاهرها وازدادت ألفاظ المياه والبحار والأنهار وهي علامة الخصب والأمل، وظهر الاتجاه واضحاً نحو الطبيعة الحيّة كالغابات والمروج والورد والزهر. وتكاد الشاعرة تخلص للتفاؤل في ديوانيها «للصلاة والثورة» و «يغير ألوانه البحر» فقد قلّت كثيراً ألفاظ الطبيعة الحزينة أو الكئيبة مثل «الصقيع» و «الثلج» و «الجليد» و «الأعاصير» و «العواصف» وحلّت مكانها ألفاظ الإشراق كالشمس والقمر

---

(١) عاشقة الليل ـ الديوان ج ١ ص ٤٦٩، والأبيات من قصيدة «تهم» التي ذكرتها في «شظايا ورماد» ـ الديوان ج ٢ ص ١٧٦.

والنجوم والمياه والأنهار والمروج والحدائق والورد والزهر، وجاءت ألفاظ لم تذكرها في دواوينها الخمسة السابقة وهي «المرجان» و «الياقوت» و «العقيق» و «الشذر» و «الزبرجد» وظهرت بوضوح ألفاظ الأشجار والأثمار والنبـاتات الذكية كالزعفران والهيل والحناء والتوابل وألفاظ العـطر والشذا والأريـج والبخور والرحيق والعبير والعنبر، وكثرت ألفاظ الأزهار كالزنبق والنرجس والبنفسج والفل والليلك والسـوسن والقرنفـل والشقائق والنسـرين والآس والأقحوان، وقلّت ألفاظ الحيوانات والطيور والحشـرات واختفى بعضها، واختفت لفظة: «الخريف» ولم ترد إلّا مرة واحدة في ديوان «يغير ألوانه البحر» وظهرت في الديوانين الأخيرين لأول مرة ألفاظ: «الـدوالي» و «البيارات» و «البيادر» لأن فيهما قصائد عن فلسطين وهي بيئة عرفت بتلك الأشياء التي اتخذها كثير من الشعراء رموزاً.

لقد انتقلت نازك من دور إلى دور في تجاربها الشعرية فبعد أن كانت عاشقة الليل تذوب في الطبيعة وتهيم في زورقها أو تلجأ إلى المعبد باحثة عن حياة هانئة أخذت تقترب من واقع الحياة وبدأت تعبر عما حولها، ولكنها لم تتخلص كثيراً من ذاتها إلّا في ديوانيها الأخيرين حينما التزمت كل الالتزام بقضايا أمتها العربية وعقيدتها الإسلامية، وقد سمّت ديوانها السادس «للصلاة والثورة» وقالت في مقدمته: «وأول ما أحب أن أتحدث عنه في هذه المقدمة عنوان المجموعة «للصلاة والثورة» فهو يمثل في نظري جانبي الإنسان الكامل في هذا العصر، أما الصلاة فهي رمز الجانب الروحي فينا، هي الورود التي تنبت في النفس الإنسانية من أثر اتصالها بالمنابع الأزلية الجميلة منابع الله، وهي تشمل كل ما لا تفسير له من حياة الإنسان الغامض الممعن في الغموض كالأحلام التي تكشف لنا أحياناً المستقبل كشفاً لا يمكن تعليله علمياً، ومثل انكشاف الغيب للإنسان في لحظات التجلي والكثافة الروحية، ومثل أثر الصلاة والدعاء في تحقيق رغباتنا ومثل الإحساس الغامض في القلب الإنساني بأن الموت ليس فناءً وإنما وراءه حياة لا بدّ منها وسوى هذا من غيبيات لا يمكن تعليلها بالمحسوس. هذا كله عن الصلاة أما الثورة الجانب الثاني من العنوان فهو عندي رفض الإنسان المكتمل لكل زيف وفساد وعبودية

وشر وطغيان وقبح وظلم في الحياة الإنسانية. والثورة مرتبطة أشد الارتباط بالصلاة، فالإنسان الذي يصلي لله صلاة كاملة الأبعاد شاسعة التطلعات هو الإنسان الذي يعرف الرفض الحق والثورة على كل ما يهين كمال الإنسانية، لا بل إن الصلاة عندي هي نفسها الثورة، وقد عبّرت عن هذا بالنص:

متى نصلي؟ إنما صلاتنا انفجار
صلاتنا ستطلع النهار
تسلّح العزّل، تعلي راية الثوار
صلاتنا ستشعل الاعصار
ستزرع السلاح والزنبق في القفار
تحوّل اليأس إلى انتصار
صلاتنا ستنقل الجدب إلى اخضرار
وتطعم الصغار
فاكهة الصمود والإصرار
يا قبّة الصخرة من صلاتنا سيرتوي آذار
وتنبت الرايات والثمار
صلاتنا تفجّر الأنهار
وتبعث الفناء والليمون والأحرار
تعيدنا للوطن المسروق تمحو العار.

فالصلاة هنا معادل حيّ للقيم الثورية والقيم الجمالية والقيم الإنسانية، وهي تربية للروح والجسم وإكمال لإنسانية الإنسان. ولهـذا سميت هذه المجموعة «للصلاة والثورة» داعية الإنسان العربي إلى أن يرتفع بالجناحين الاثنين: جناح الروح وجناح القتال، وهما الجناحان اللذان سلّح بهما الإسلام هذا الإنسان في كل زمان ومكان ليرتفع إلى أعلى ذرى إنسانيته فيدرك أبعاد الروح ويحقق حريته وحرية أمته ويمتلك الأرض التي استخلفه الله عليها»[1].

وأبدعت نازك في هذه المرحلة ونظمت كثيراً من قصائد الثورة والإيمان

(١) للصلاة والثورة ص ٨ ـ ١١.

ففي «للصلاة والثورة» قصائد «سوسنة اسمها القدس» و«الهجرة لله» و«سبت التحرير» و«شمس للقاهرة» وفي «يغير ألوانه البحر» قصائد «الماء والبارود» و«زنابق صوفية للرسول» و«دكاكين القرائين الصغيـرة» و«مرايـا الشمس» و«السفر في المرايا الدامية» وهي قصائد ملتزمة بقضايا الأمة العربية ووحدتها وبالقيم الإسلامية الرفيعة. وقد بدأ هذا الالتزام في «شجرة القمر» فهناك «أغنية للأطلال العربية» و«ثلاث أغنيات عربية» و«حدود الرجاء» و«الوحدة العربية». وهذه القصائد وغيرها تدل على مرحلة جديدة من حياة نـازك الشعرية، وكان التحول الواضح بعد انحراف الحكم في أواخر عام ١٩٥٨ فقد رأت الشاعرة ما حلّ بالقيم العربية والإسلامية في العهد الشعوبي ولم تطق أن تحتمل الوضع فهاجرت إلى بيروت وقضت عاماً كاملاً (١٩٥٩ - ١٩٦٠ م) وخلال ذلك واصلت نشر إنتاجها القومي في مجلة «الآداب»[1]. وأدّت تلك الأحداث الدامية ونضج الشاعرة وإيمانها القوي بالله إلى أن تكون ملتزمة في أدبها وأن تقول عن نفسها: «نحن أنصار الشعر الملتزم»[2]. وأين هذه المرحلة من المرحلة الأولى التي كانت الشاعرة فيها منطوية على نفسها منعزلة في معبدها تعزف على عودها أنغام الحزن والأسى بعيدة عن هموم أمتها متشككة بدينها الحنيف، تقول: «إنني مررت بفترة إلحاد وتشكك فظيع ما بين ١٩٤٨ و١٩٥٥ م»[3] ولذلك حارت في أمر هذا الكون وعجزت عن حلّ طلاسمه فلجأت إلى الطبيعة هاربة لعلها تروي ظمأها وتكشف لها عن الحقيقة[4]. ومن هنا جاء الاختلاف بين لغة «مأساة الحياة» و«عاشقة الليل» و«شظايا ورماد» و«قرارة الموجة» وهي شعر المرحلة الأولى، ولغة «شجرة القمر» و«للصلاة والثورة» و«يغير ألوانه البحر» وهي شعر المرحلة الثانية.

---

(١) لمحات من سيرة حياتي وثقافتي ص ١٢.
(٢) للصلاة والثورة ص ١٣.
(٣) لمحات من سيرة حياتي وثقافتي ص ١٩.
(٤) نقول ذلك ونحن نعرف أن للشاعرة مشاركات في الأحداث العامة قبل المرحلة الثانية فقد نظمت قصائد في حركة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ م ولم تنشرها. (تنظر مجلة الآداب البيروتية سنة (١٩٧١ م) العدد الثامن ص ٣١).

ولكن هل الالتزام بقضايا الأمة العربية والإيمان بالإسلام جعل الفرق واضحاً بين المرحلتين؟.

المؤثـــرات:

يجد الباحث أسباباً أخرى غير الالتزام والإيمان ومن أوضحها:

الأول: سبب ذاتي وهو وضع المرأة العراقية في مطلع القرن العشرين ونشأة الشاعرة في بيئة محافظة جعلاها تنطوي على نفسها وتلجأ إلى الطبيعة هاربة من شقاء الحياة، وقد كانت «كئيبة كآبة ملحوظة في فترة المراهقة» وتعدّ «الكآبة فضيلة تلازم أهل الفكر» وكانت تدلل كآبتها وتحبها[1]، فشاعت في دواوينها الأولى مسحة من الحزن والألم وصارت تهيم بالليل الذي يرمز عندها إلى الشعر والخيال والأحلام المبهمة وجمال النجوم وروعة النجوم وروعة القمر والتماع دجلة تحت الأضواء[2]. وكان للبيت الذي ولدت فيه وقضت بعض سنوات عمرها أثر في ذلك الجو الكئيب الذي يحيط بها، ووصفت تلك الدار فقالت: «كنا نعيش في منزل ضخم شاهق عتيق يقوم في ناحية من بغداد القديمة، وقد انحدر إلينا من الآباء والأجداد وهو أمر كنا نحسه حتى في طفولتنا، فقد كان القدم يخلق حول البيت جواً من الرهبة الغامضة والعظمة الصامتة التي تركت في حياتنا حتى اليوم آثاراً شديدة في العمق. وكانت أبرز صفات هذا المنزل أن أماسيه موحشة مظلمة، فما تكاد الظهيرة تنصرم حتى تلقي الجدران العالية ظلالاً دكناء معتمة وتروح نوافذ الغرف والسراديب والأقباء والأواوين تقذف ظلاماً مخيفاً وتسود المنزل وحشة وكآبة، ولم نكن نستطيع تجنب الإحساس بها»[3]. وأثر هذه الوحشة والكآبة واضح في المرحلة الأولى، وتسمية الشاعرة لديوانيها «مأساة الحياة» و«عاشقة الليل» ينمّ على ذلك وعلى ما فيهما من قصائد تدل على الحزن والقلق والغربة والشجن مثل «كآبة الفصول الأربعة» و«أحزان الشباب» و«ذكريات ممحوّة» و«بين

---

(١) لمحات ص ١٧.

(٢) لمحات ص ٣.

(٣) مقدمة رباعيات الخيام ص (ب ـ ج).

فكي الموت» و «أشواق وأحزان» و «قلب ميت» وغيرها.

وامتزجت بالبيت الأول الدارُ الثانية التي كانت بعيدة عن الناس حيث السواقي والنخيل والأشجار والحيوانات الضارية، وكوّنت هذه الدار ذخيرة نازك الشعرية وهي اللجوء إلى الطبيعة والتعبير بألفاظها الدالة عن مشاعرها وأحاسيسها. وقد وصفت تلك الدار وصفاً يلقي الضوء على تلك المرحلة فقالت: «في سنة ١٩٣٠ م انتقل أبي بنا نحن أفراد أسرته إلى ضاحية الكرادة الشرقية وكانت إذ ذاك تتألف من بساتين وحقول كثيرة متراصة وأغلبها خالٍ من البيوت إلاّ في مناطق قليلة غير منطقتنا... وكان منزلنا هذا يقع مباشرة في شارع بين بستانين كثيفين مليئين بالأشجار الباسقة من نخيل وتوت وبرتقال ونارنج ومشمش وإجاص وتين وسوى ذلك. وكان شارعنا نفسه بستاناً.... وكان في شارعنا نهر يخترقه من أوله حتى بيتنا... وعلى مسافة صغيرة من بيتنا يمتد نهر دجلة العظيم الذي أثّر تأثيراً عميقاً في شعري وحياتي. إلى هذه البقعة السحرية جاء بنا أبي وكان عمري إذ ذاك سبع سنوات ولم يكن لبيتنا سياج في أول الأمر ولا كانت لنا حديقة، وإنما تمتد أمام البيت بقعة أرض صغيرة فيها تلال من الرمال الرطبة فكنت أقضي الوقت جالسة على التل ألعب بالرمال وأبني بيوتاً ومدناً وأحلم. وقد وصفت تل الرمال هذا في شعري في «عاشقة الليل» وفي «مأساة الحياة» و «أغنية للإنسان». ولقد سعدت سعادة عميقة بالمعيشة في هذا البيت المحوط بالبساتين والأدغال وكنت ألعب مع إخوتي وأطفال الجيران بين الأشجار طيلة النهار ومن هنا نشأت لي معرفة واسعة بالأشجار والورود والأدغال والحشائش... هذه هي المنطقة التي عشت فيها وكانت فوق كثافة أشجارها وخضرة حقولها مملوءة بقطعان من الحيوانات المتوحشة مثل ابن آوى على الخصوص، ولم تكن تخلو من الذئاب»[١]. وكان لهذه البيئة أثر في شعر المرحلة الأولى التي كثرت فيها ألفاظ الماء والسواقي والجرف والطين والرمال والتراب والناعور والمنجل والمحراث والأحراش والشوك وأشجار الصفصاف والسرو والبرتقال والكروم

---

(١) لمحات ص ١٤ وما بعدها.

والنخيل والورد والزهر والغنم والذئاب وابن آوى والأفاعي والحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت والفراش. وظلت هذه البيئة تؤثر في حياة الشاعرة ولم تتخلص منها إلّا حينما خرجت تطوف العالم وتراقب الأحداث. وقد بلورت سفراتها ودراساتها الواسعة حياتها الجديدة فابتعدت عن اللغة الأولى وأوغلت في لغة تعبر عن الثورة والإيمان والحب والأمل والتفاؤل والإقدام.

الثاني: تأثرها بالشعر العربي الذي تبنّى الحركة الرومانتيكية، وكان لعلي محمود طه أكبر الأثر في مرحلتها الشعرية الأولى وظلت تكنّ له كل تقدير وألفت عنه كتاب «الصومعة والشرفة الحمراء»(١) تقول: «رأيت أن أكتب عن الشاعر علي محمود طه الذي أعجبت به في أوائل حياتي الشعرية وكنت قد عشت مع شعره سنوات كثيرة من صباي فأنا أعرفه معرفة موسعة»(٢)، وتقول: «فعكفت على تأليف كتاب عن الشاعر المبدع علي محمود طه الذي كنت تأثرت بشعره خلال فترة الصبا يوم كنت طالبة في فرع التمثيل بمعهد الفنون الجميلة»(٣). ويرجع إلى تأثرها بهذا الشاعر هيامها بالطبيعة واللجوء إليها في بثّ أحزانها وهمومها، فقد كان هذا الشاعر كثير الاهتمام بالطبيعة وترددت في قصائده ألفاظها الدالة عليها، وكانت المرحلة الأولى من شعره أكثر التصاقاً بها وديوانه الأول «الملاح التائه» الذي أعجبت به نازك كثيراً أكثر دواوينه اهتماماً بالطبيعة، وقراءة قصيدة واحدة منه تظهر ذلك بوضوح، فقصيدة «ميلاد شاعر» وهي بداية الديوان تزخر بألفاظ الطبيعة كالأرجوان والريحانة والماء والسماء والخمائل والرياض والطيور والربيع والجدول والربوة والنجوم والقمر والفراش والندى والشاطىء والغدير. ولا يكاد بيت يخلو من تلك الألفاظ إن لم يجمع كثيراً منها كقوله:

ربوة عند جندل عند روض   عند غيض وصخرة عند ماءِ(٤)

---

(١) صدرت طبعته الأولى باسم «محاضرات في شعر علي محمود طه».

(٢) الصومعة والشرفة الحمراء ص ٥.

(٣) لمحات ص ١٢.

(٤) ديوان علي محمود طه ص ١٤.

وهناك كثير من مظاهر التأثر بعلي محمود طه، من ذلك «المعبد» الذي يكرّره كثيراً بقوله:

معبدي معبدي دجا الليل إلاّ رعشة الضوء في السراج الخفوقِ[1]

وقد ذكرت نازك «المعبد» ثماني مرات في «مأساة الحياة» وسبع عشرة مرة في «عاشقة الليل» وثلاث عشرة مرة في دواوينها الأخيرة. ومن ذلك «الملاحن» ويريد الشاعر بها الألحان وهي مما لم يستعمل قبل هذا العصر بهذا المعنى لأن «الملاحن» جمع «لحن» وهو استعمال الكلمة وإرادة معانٍ أخر، أو هو «التعريض بالشيء من غير تصريح أو الكناية عنه بغيره»[2] أو هو اللغز، ولابن دريد كتاب سماه «الملاحن» ذهب فيه هذا المذهب، ولكن المحدثين أطلقوه على الألحان فقال علي محمود طه:

شاق الطبيعة من قديم ملاحني أصداؤك الحيرى على الآكامِ

وقال:

سلي القيثار بين يديك أيّ ملاحن غنّى[3]

وقالت نازك:

أرنو ولا شيء يروق لناظري وأصيح أين ملاحني وملاحمي

وقالت:

كم رحت أرقب كل نجم عابر وأصوغ في غسق الظلام ملاحني[4]

ومن ذلك «حنانك» في قوله:

حنانك الآن فلا تنكري سبيله في ليلك العابس[5]

وقولها:

حنانك بوذا على الأعين الساهدة[6]

---

(١) المصدر نفسه ص ٣١٦.
(٢) البرهان في وجوه البيان ص ١٣٣.
(٣) ديوان علي محمود طه ص ٥٥، ٣٤٣، وتنظر ص ١٣٠، ١٥٦.
(٤) الديوان ج ١ ص ٥٣١، ٤٩٩.
(٥) ديوان علي محمود طه ص ٨٧، وتنظر ص ٨٩.
(٦) الديوان ج ٢ ص ٣٩٩.

ومنها «كأس» في قوله:

كـأسنـا متـرع وليلتنـا غـادة من مضـارب العـربِ

واستعمل اللفظة مؤنثة فقال:

ومـا هـذه رعشـة في يـديـك أم الكـأس ترجف من ذكـرهـا[1]

واستعملتها الشاعرة مؤنثة ومذكرة عدة مرات[2]، واستعملت «كأسة» فقالت:

ثم ذاق الشبـاب كـأسـة دمعي مـا لـحيّ عـلى قـذاهـا يـدانِ

وقالت:

ستذوب لتسقي صدى الظامئين

كأسة ولتكن ملئت بالأنين.

وقالت:

آه فاملأ كأستينا كلمات[3].

وعزا الدكتور إبراهيم السامرائي ذلك إلى أنها اضطرت إلى استعمالها لكي يسلم الوزن[4] واستعمل الشاعر لفظة: «أبيد» كثيراً واستعملتها الشاعرة أيضاً[5]، وأكثر من استعمال «الغبين» و«المغبون» فأكثرت الشاعرة منهما[6]، وتكررت صيغة النداء في شعره فقال:

أخـطأ الشيـطان مسـراهـا فيـا ضلة الشيطان في تلك الموامي[7]

وكررتها الشاعرة فقالت: «يا للأمنية» و«يا للغرور» و«يـا للازدراء»

---

(١) ديوان علي محمود طه ص ٢٦٥، ٢٦٨.

(٢) الديوان ج ١ ص ٣١٧، ٤٢٣، ٤٥٢، ٤٩٣، ٥٨١، ج ٢ ص ٩٤، ٢١٦.

(٣) الديوان ج ٢ ص ١٤٣، ٤٩٤.

(٤) لغة الشعر ص ١٩٠.

(٥) ديوان علي محمود طه ص ٢١٢، ٧٦٦، الديـوان ج ١ ص ٢١٣، ٤٧٤، ٤٧٦، ج ٢ ص ٨١.

(٦) ديوان علي محمود طه ص ٢٣٣، ٤٢٢، ٥٣١، ٦٣١، الديوان ج ١ ص ٦٩، ٨٤، ١١٨، ١٢٤، ١٥٨، ١٦٧، ١٩٧، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٦، ٤٠٠، ٥٧٧، ٦٦٠، ٦٧٩، ٦٩٨.

(٧) ديوان علي محمود طه ص ٥٤٦.

و «يا للخرافة» و «يا لسخرية الخيال»[1].

وتأثرت بمحمود حسن إسماعيل تقول: «فقد لاح عليَّ منذ مرحلة الثانوية التأثر بالشعر الحديث، شعر محمود حسن إسماعيل وبدوي الجبل وأمجد الطرابلسي وعمر أبو ريشة وبشارة الخوري وأمثالهم»[2]. وكان محمود حسن إسماعيل ممن جدّد في مضمون القصيدة العربية[3]، ولذلك اتجه الشبان إلى شعره منذ عهد مبكر وكانت دواوينه الأولى «أغاني الكوخ» و «هكذا أغني» و «أين المفر» بين أيديهم، وكان لا بدّ من أن يتأثروا به ما داموا به معجبين. ومن ألفاظه التي شاعت «الغنوة» كما في قوله:

غنوتي الحيرى لكم طارت هياماً فوق موجك[4]

وأدخلتها نازك في شعرها فقالت: «غنوة الأمواج» و «تنهيدة غنوة» و «في غنوة»[5]. واستعمل «الملاحن» كما استعملها علي محمود طه[6] ولفظة: «هوّم» فقال:

هوّمت في الفؤاد تزجيه للحيرة والسحر والأسى والعناءِ

وقالت نازك:

جهل الحقائق في الحياة فلم يطق عن زيفها هرباً وعاش مهوّما[7]

قال الدكتور إبراهيم السامرائي: «وفصيح العربية لا يثبت هذا ولكنه استعمال جديد طرأ في شعر السياب والحيدري وغيرهم من شعراء هذا الجيل»[8]. وكان شعراء هذا الجيل قد تأثروا بمحمود حسن إسماعيل في

---

(١) الديوان ج ١ ص ٤٠٠، ٤٧٣، ج ٢ ص ٨٥، ٨٧، ٩٠.
(٢) لمحات من سيرة حياتي وثقافتي ص ٢.
(٣) الصومعة والشرفة الحمراء ص ٢٩.
(٤) أغاني الكوخ ص ١٤٨، هكذا أغني ص ٢٠١، أين المفر ص ١٣١.
(٥) للصلاة والثورة ص ١٥٧، يغير ألوانه البحر ص ٣٩، ١٧٨.
(٦) ينظر أغاني الكوخ ص ٤٦، هكذا أغني ص ١٤، ٢٤، ٦٦، ٩٠، ١١٦، ١٦٨.
(٧) الديوان ج ١ ص ٥٧٢.
(٨) لغة الشعر ص ١٧٢.

نشأتهم الشعرية وبعلي محمود طه وبإبراهيم ناجي الذي استعمل لفظة: «هوّم» في ديوانه الأول و «وراء الغمام» فقال:

تعال فلم يعد في الحيّ سارٍ   وهوّمت المنازل بعد وَهْنِ[1]

الثالث: اتصالها بالشعر الإنكليزي ولا سيما شعر الرومانتيكيين أمثال شيلي وبايرون ووردزورث وجون كيتس وتوماس جري، تقول: «أما الأدب الإنكليزي فقد بدأت عنايتي به وأنا طالبة بدار المعلمين العالية يوم كنا نقرأ شكسبير «السونيت» ومسرحية «حلم منتصف ليلة صيف»، وقد ترجمت إلى الشعر العربي إحدى سونيتات شكسبير إذ ذاك. وأقبلت بعد ذلك على قراءة شعر بايرون وشيلي»[2]. وكان هؤلاء من شعراء الطبيعة الذين هاموا في غاباتها وحقولها وجداولها وأصغوا إلى العنادل والطيور. وكان من إعجابها يشعر هؤلاء تحيتها للشاعر كيتس[3]، وترجمتها إحدى سونيتات شكسبير و «البحر» لبايرون و «مرثية في مقبرة ريفية» لتوماس جري[4]. وفي هاتين القصيدتين تبدو ملامح الطبيعة جلية، وتظهر الألفاظ الدالة عليها كالبحر والأمواج والأثباج والماء والأنواء والعباب والشط والرياح والأجواء والحصى والتراب والرمال والأحجار والقطيع والسهوب والأطيار والقمرية والغصون والأشجار والسرو وسنابل القمح والحقول والثلج والأشواك. وهذه من الألفاظ التي كررتها نازك في «مأساة الحياة» و «عاشقة الليل».

لقد حددت هذه المنابع الثلاثة لغة الشاعرة في دواوينها الأربعة الأولى فجاءت متشابهة، وحدّد التزامها بقضايا أمتها وعقيدتها الدواوين الثلاثة الأخيرة ولكنها لم تترك الطبيعة بل حددت اتجاهها نحو الظواهر التي تبعث على التفاؤل وتفتح طريق الأمل للسائرين في سبيل تحرير أمتهم ووحدتها. ويتضح ذلك في قصائدها «سوسنة اسمها القدس» و «الهجرة إلى الله» و «القنابل

---

(١) ديوان إبراهيم ناجي ص ١٤١.

(٢) لمحات ص ٨.

(٣) الديوان ج ١ ص ٦٥٠.

(٤) الديوان ج ١ ص ٦٧٠، ٦٧٨.

والياسمين» و«للصلاة والثورة» و«عن السلام والعدل» و«الماء والبارود» و«زنابق صوفية للرسول» و«دكان القرائين الصغيرة» و«السفر في المرايا الدامية» وغيرها من قصائد ديوانيها الأخيرين: «للصلاة والثورة» و«يغير ألوانه البحر».

توظيــف الألفــاظ:

لم تقف نازك الملائكة عند المعنى المعجمي لألفاظ الطبيعة وإنما وظفتها في ثلاثة اتجاهات:

الأول: الرمز وقد استعملته لأنه يلقي ظلالاً على المعنى ويلفه بغموض محبب، والشاعرة لا تحبذ التعمية التي وقع فيها كثير من المعاصرين ولكنها تعجب بالغموض الشفاف. تقول متحدثة عن محاولة بعضهم الإغراب وإثارة الدهشة على حساب العقل الإنساني: «ومن أبرز هذه الظروف المعرقلة ما أسميه بالتعمية ولا أقول الغموض؛ لأن الغموض ستار جميل فني يشف ولا يحجب في حين أن التعمية مأخذ فني وعيب ينتقص القيمة الجمالية للقصيدة»[1]. فالشاعرة لا تقرّ الإغراب والإبهام بل تعنى بالصورة التي تشف بخفر وحياء ولذلك ظلت مرتبطة بالتراث العربي والنزعة العربية والواقع الاجتماعي والفكري الذي تحياه، أي أنها لم تغرب كما أغرب كثير من الشعراء المتأثرين بالأدب الغربي أو المتنكرين لأمتهم وتراثها الخالد. وكل ما فعلته أنها شخصت الطبيعة وجعلت الجامد حياً متحركاً أو ناطقاً أو فرحاً مسروراً أو حزيناً كئيباً. واستعملت كثيراً من ألفاظ الطبيعة رموزاً مثل: «السمكة» في قولها:

طافية فوق الموجة ميتة والشاطىء في إشفاق[2].

وقد رمزت بها للزمن أو بلادته[3]. و«الأفعوان» الذي يرمز إلى

---

(١) للصلاة والثورة ص ٢٤.

(٢) الديوان ج ٢ ص ٢٤٧.

(٣) الديوان ج ٢ ص ٢٢١، وينظر اتجاهات الشعر العربي المعاصر ص ٩٣، ٩٧، ونازك الملائكة الموجة القلقة ص ٣٠، وظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة ص ١٠٩ ـ ١١١.

الجبروت والمطاردة أو المجهول الظالم والقدر الغشوم أو القـوة القاهـرة الخفية[1]. تقول:

أين أمشي مللت الدروب
وسئمت المروج
والعدوّ الخفي اللجوج
لم يزل يقتفي خطواتي فأين الهروب
الممرات والطرق الذاهبات
بالأغاني إلى كل أفق غريب
ودروب الحياة
والدهاليز في ظلمات الدجى الحالكات
وزوايا النهار الجديب
جبتها كلها وعدوّي الخفي العنيد
صامد كجبال الجليد
في الشمال البعيـد[2].

و «البحر» و «النهر» يرمزان إلى الحياة والتدفق و «الشواطىء» إلى الواقع المر، و «الزورق» و «السفينة» إلى النجاة أو الهروب و «النجوم» و «الأشرعة» إلى الآمال و «الرياح» و «الغيوم» و «العواصف» و «الزوابع» إلى الصعاب أو إلى الأهواء و «المعبد» إلى الحب أو البيت أو الهروب من واقع الحياة و «الصفصاف» إلى الحزن والبكاء و «المنجل» إلى الموت الحاصد و «الثلج» إلى الهمود والفراغ و «الظلال» إلى الأوهام و «السرو» إلى الموت و «الرماد» إلى الأوهام و «الغلام» إلى الشاعر أو الفنان[3]. وقد تريد الشاعرة بها غير

---

(١) اتجاهات الشعر ص ٩٧، الشعر العربي الحديث وروح العصر ص ١٢٣، نازك الملائكة ـ الشعر والنظرية ص ١٠٠، ظاهرة الحزن ص ١٠٩، نسمات وأعاصير ص ١٦٧.

(٢) الديوان ج ٢ ص ٧٥.

(٣) الديوان ج ٢ ص ٤١٥، اتجاهات الشعر ص ٩٨، نازك الملائكة والتجربة الشعرية ص ١٠٣، المراجع السابقة أيضاً.

ذلك، وقد يفسر بعض الرموز تفسيراً حقيقياً أو أسطورياً، والناقد هو الذي يستشف الصورة الشعرية من خلال علاقة الألفاظ وتركيبها وواقع الحياة من غير أن يذهب بعيداً في التأويل. وقد أحسنت نازك حينما فسرت بعض رموز علي محمود طه تفسيراً قريباً من واقع اللغة العربية والحياة الفكرية فقالت: إن «الشرق» يرمز إلى الحرير والألوان و«طائر الفجر» إلى الزمن كله لا لمجرد الفجر القريب و«رحيل القافية» و«المحيط» و«البحر» إلى الحياة والتيه[1]. وهذا تفسير تتحمله قصائد الشاعر وليس فيه إغراب وإبهام.

الثاني: الدلالة فقد نقلت الشاعرة الألفاظ من معانيها الحقيقية إلى معانٍ مجازية أو متخيلة جديدة ولكنها لم تغرب أو تبهم بل ظلت العلاقات القائمة بين الألفاظ تشف عن المعاني. وكانت دلالات الألفاظ قد بدأت تأخذ سبيلاً جديداً عند الشعراء المجيدين أمثال علي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل الذي كان أوضح الشعراء في هذا الاتجاه وقد قالت نازك عنه: «كان وما زال شاعراً تتصوّف تعابيره وتتبتل صوره»[2] وعرف الشاعر بهذا التصوف والتبتل منذ دواوينه الأولى «أغاني الكوخ» و«هكذا أغني» و«أين المفر». وتأثرت نازك وغيرها بهذا الشاعر وبتلك الدواوين واعتمدت على «أين المفر» في كتابها «قضايا الشعر المعاصر». وصور الشاعر في هذه الدواوين وغيرها تجنح إلى الغموض وتأخذ الألفاظ فيها دلالات جديدة، ومن ذلك قوله:

تشهق الريح حوله فهي في الأفق بكاء من عالم الغيب مُرُّ
وهو نَوْحُ الرماد قَبْضُ حواشيه سكونٌ ومسُّ جنبيه جَمْرُ

وقوله:

النهر جبار عصاك فلاح محموماً تلوّى
والعطر زنديق يذيع عذابه ويقول سلوى

---

(١) الصومعة والشرفة الحمراء ص ٧١، ٨٦ - ٨٧، ٩٧، ٣٦٢.
(٢) الصومعة والشرفة الحمراء ص ٣٠.

والطير مجروح الغناء ويلبس الآهات صفوا
والريح جنّ آثم وخزته زلّته فدوّى[1]

وكان علي محمود طه مفتوناً بمثل هذه الصور والدلالات الجديدة للألفاظ وهي كثيرة في شعره، من ذلك قوله:

وانتحينا من جانب البحر مجرى مطمئن الأمواه شاجي الخرير
نزلت فيه تستحم النجوم الزهر في جلوة المساء المنير
راقصات به على هزج الموج عرايا مهدلات الشعور
وعلى صدره الخفوق طوينا الليل في زورق رخيّ المسير[2]

وكان إبراهيم ناجي يجنح إلى مثل هذه الدلالات الجديدة، فالرحيق يمشي، والنور يضحك، والأيام تنوح، والحب يرى، والفرحة تثب، والكواكب تضيق ذرعاً، والظلام يأتمر، وللزمن أقدام، وللوحدة خطى، وللمحن وادٍ، وغير ذلك من الصور التي ظهرت في ديوانه الأول «وراء الغمام» الذي صدر عام ١٩٣٤ م. ومن صوره:

مرّت الساعة كالحلم السعيد ومشت نشوتها مشي الرحيق

وقوله:

دار أحلامي وحبي لقيتنا في جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهي كانت إن رأتنا يضحك النور إلينا من بعيد

وقوله:

ومشينا في طريق مقمر تثب الفرحة فيه قبلنا[3]

وكان لهؤلاء الشعراء الثلاثة أكبر الأثر في نازك ولكنها لم تقف عند صورهم وإنما تأثرت بالشعر الإنكليزي وخلقت صوراً جديدة وأعطت للألفاظ دلالات بديعة. وهذه الدلالات والصور كثيرة في شعرها، ولكن أهمها

---

(١) أين المفر ص ٦٢، ٧٤.

(٢) ديوان علي محمود طه ص ١٥١.

(٣) ديوان إبراهيم ناجي ص ١٤، ٢١ - ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٢٩، ٣٥، ٦٩، ٩٣، ١٤٢.

ما يتصل بالطبيعة وظواهرها، ومن ذلك قولها: «قبضة الإعصار» و«ضفاف الأفراح» و«شاطىء الفن» و«مدامع الورد» و«نبع الأحزان» و«قدم التل» و«تنهيدة الريح» و«وجه الطبيعة» و«مسمع الصفصاف» و«حزن الأشجار» و«قلب النسيم» و«شفاه النار» و«يد الريح» و«ثورة الدجى» و«خدود الضياء» و«عطش اللحن» و«حضن المياه» و«جراح السهاد» و«جبين القمر» و«عطر الضياء» و«عيون السنين» و«شفة الريح» و«أعناب الدموع» و«وساد الريح» و«صوف الصقيع» و«شفة الغيم» و«شراع الجفن» و«جناح الأغنية» وغيرها من مئات الدلالات الجديدة. والأسرار عند الشاعرة تمض و«الظلمات تلهو» و«السر يجرح» و«القمر يصاد» و«الظلام يحصد» و«الأنجم تشرب» و«العطر يحترق» و«الجمال يؤكل» و«المياه تحرث» و«العدم يعض» و«الأمواج ترى» و«العجلات تغزل» و«الرؤى تصاد» و«الأعمدة تتوجع» و«الظلمة تعلك» و«الفصول تصلي» و«السنبل يركع» و«الحقول تتهجد» و«الأزاهير تتهود» و«اللون يلذع» و«النجم يمطر» وغير ذلك من المجازات. وليس في هذه الدلالات إغراب وإبهام؛ لأن بعضها مرتبط بالتراث وبعضها مما ألفته الأذن واستساغه الذوق، وبعضها مما يفسره سياق الكلام أو المعنى العام أو الصورة الشعرية بعد استيفاء جزئياتها. ومن أمثلة هذه الصور قولها:

كيف تحيا الأشواك والزهر الفاتن يذوي في قبضة الإعصار
كيف تمضي إلى الفناء الأناشيد وتبقى سخرية الأقدار

وقولها:

أين شعر الوجود؟ أسفر عن شيء طوى سرّه ذبول الرمادِ
كل شيء قد عاد أشبه بالقبر رهيباً ملفعاً بالسوادِ

وقولها:

وطاف الصدى بجناحيه حول الجبار وطار
إلى عربات النجوم وحيث ينام النهار

وقولها:

ويسيل نسغ الضوء في أعنابها الشقر النديّه

وقولها:

وفي ذات يوم سرت ألسن النار في بيتنا
مضت تمضغ الباب تشعل لين الستائر
يدور اللهيب دوائر(١)

ومثل هذه الصور والدلالات الجديدة كثير في شعر نازك وهي ليست غريبة كل الغرابة وإنما تقترب من الواقع اللغوي والفكري وإن استجدت علاقات بين الألفاظ في الصياغة والتركيب.

الثالث: القافية، وكان العرب قد اهتموا بها وقال المرزوقي: «وأما القافية فيجب أن تكون كالموعود به المنتظر يتشوفها المعنى بحقه واللفظ بقسطه وإلّا كانت قلقة في مقرها مجتلبة لمستغن عنها»(٢). ولم يخرج الشعراء من وحدة القافية إلّا في بعض ألوان الشعر، ولكن العصر الحديث شهد خروجاً عليها وكان شعراء المهجر المتأثرون بالشعر الغربي من أوائل الذين نادوا بطرحها، وكانت نازك قد دعت إلى تنويعها ليتحرر الشاعر من القيود وينطلق إلى آفاق رحيبة، فالقافية هي «ذلك الحجر الذي تلقمه الطريقة القديمة كل بيت»(٣) ولكنها لا تتخلى عنها فهي «ركن مهم في موسيقية الشعر الحر لأنها تحدث رنيناً وتثير في النفس أنغاماً وأصداءً، وهي فوق ذلك فاصلة قوية واضحة بين الشطر والشطر، والشعر الحر أحوج ما يكون إلى الفواصل خاصة بعد أن أغرقوه بالنثرية الباردة»(٤). وزاد تمسكها بالقافية بعد أن رأت الخلل يأخذ سبيله إلى الشعر فقالت في مقدمة «شجرة القمر»: «ومما أحب أن أعلن أسفي له أنني في شعري الحر لم أعن عناية كبيرة بالقافية فكنت أغيّر

---

(١) الديوان ج ١ ص ٢٥، ٢٥٧، ج ٢ ص ٤٣٢، للصلاة والثورة ص ٩٦، يغير ألوانه البحر ص ١٨.

(٢) شرح ديوان الحماسة ج ١ ص ١١.

(٣) الديوان ج ٢ ص ١٥.

(٤) قضايا الشعر المعاصر ص ١٩٢.

القافية سريعاً وأتناول غيرها، وهذا يضعف من الشعر الحر لأنه يقوم على أبيات تتفاوت أطوال أشطرها وبذلك ينقص رنينها وموسيقاها فلو زاد الشاعر القافية غنى ولم يغيرها سريعاً لأضفى على الوزن موسيقى تمسكه وتمنعه من الانفلات. ولهذا بتّ أدعو إلى أن يرتكز الشعر الحر إلى نوع من القافية الموحدة ولو توحيداً جزئياً فبذلك نزيده موسيقى وجمالاً ونحميه من ضعف الرنين وانفلات الشكل»[١]. وأرجع عبد الجبار البصري هذه العودة إلى القافية إلى الانتماء القومي الذي التزمت به نازك في شعرها[٢]. وقد يكون ذلك صحيحاً وإن كانت الشاعرة لم تنسَ أمتها في شبابها، ولكن تجاربها الكثيرة وممارستها الطويلة للشعر دفعها إلى هذا الاهتمام بعد أن رأت انفراط عقد الشعر الجديد على الرغم من التزامها به وميلها إلى تنويع القافية في معظم قصائدها.

واستغلت الشاعرة ألفاظ الطبيعة في القافية استغلالاً واضحاً فهي تضع «الرمال» بعد «الجبال» في قولها:

ولنعش للصفاء يفتن دنيانا غناء الرعاة عند الجبالِ
ونشيد تديره شفتا طفل يغني على تلول الرمالِ[٣]

و «الغيوم» بعد «النسيم» في قولها:

وقطيع الأغنام في المرج تحت الظل والفجر والندى والنسيمُ
وليالي الحصاد والقمر السحريّ والطيف والصدى والغيومُ[٤]

و «البلوط» بعد «الشطوطِ» في قولها:

حدثوني عن الربيع إذا مرَّ على هذه القرى والشطوط
حدثيني عن الحصاد ومجنى الزهر والبرتقال والبلوط[٥]

---

(١) الديوان ج ٢ ص ٤٢٢ - ٤٢٣.
(٢) نازك الملائكة ص ١٧٩.
(٣) الديوان ج ١ ص ٩٣.
(٤) الديوان ج ١ ص ٩٤.
(٥) الديوان ج ١ ص ٩٨.

و «الجبال» بعد «التلال» في قولها:

وليحب الغيوم والفجر والنهر ويُمضي الأيام بين التلالِ
يتغنى فيعشق الزهر موسيقاه عند الهُوَى وفوق الجبال[1]

و «الجنوب» بعد «السهوب» في قولها:

والحمام الجميل قد هجر الأعشاش سأمان من وجوم السهوبِ
وطيور الكنار آثرت الهجرة والعيش في حقول الجنوب[2]

و «الضفاف» بعد «الصفصاف» في قولها:

لست أصغي إلاّ إلى ضجّة الإعصار بين النخيل والصفصافِ
واصطفاق الأمواج في شاطىء النهر ووقع الأمطار فوق الضفاف[3]

وتعكس القافية فتضع «الصفصاف» بعد «الضفاف» في قولها:

عندما يخرج الرعاة إلى الوادي بأغنامهم وتزهو الضفاف
عندما يزهر البنفسج والخبّاز والبرتقال والصفصاف[4]

وقولها:

والقماريّ تستحم وتلهو بين زهر الخباز فوق الضفاف
وتغني للنهر أعذب ألحان الأماني في مسمع الصفصاف[5]

و «الأوراد» بعد «واد» في قولها:

وتذوب الثلوج في القمم العليا فتجري السيول في كل وادِ
ويعود البط الجميل إلى الشاطىء بين الأعشاب والأوراد[6]

و «الكروم» بعد «النسيم» في قولها:

---

(١) الديوان ج ١ ص ١٣٦.
(٢) الديوان ج ١ ص ١٦٣.
(٣) الديوان ج ١ ص ١٦٧.
(٤) الديوان ج ١ ص ١٧٠.
(٥) الديوان ج ١ ص ١٧٢.
(٦) الديوان ج ١ ص ١٧١.

وزهــور السفــوح تضحــك للنحـل وتحني رؤوسهــا للنسيم
وقطيع الأغنام يمرح والـراعي يقضّي النهار تحت الكـروم[1]

و «الضباب» بعد «السراب» و «السحاب» و «التراب» في قولها:

هنـالـك طـوّفت ذات مسـاء وكـان معي هيكـل كـالسـراب
أحسّ خطاه على الرمل لكن أرى غير شيء وبعض سحاب
وكنت أحسّ بجسمي حيـاة تـطيـر بـروحيَ فـوق التـراب
وكــان أمــامي ممــرّ غــريب تغلفــه دفقــات الضبــاب[2]

وكررت هذه الألفاظ فقالت:

وجاء غـد ثم ولّى ومــات وعــاد ضــبــابــا
فــأين «غداً نلتقي» يـا حيـاة أعــادت تــرابــا[3]

وقالت:

ضاع في وادي السراب
في الضباب[4].

وتضع «السراب» بعد «الذئاب» و «الغيوم» بعد «النجوم» في قولها:

زمان شديد السواد ولون النجوم
يذكرني بعيون الذئاب
وضوء صغير يلوح وراء الغيوم
عرفت به في النهاية لون السراب
ووهم الحياه
فواخيبتاه[5].

و «الثلج» بعد «الموج» في قولها:

---

(1) الديوان ج ١ ص ١٧٢
(2) الديوان ج ٢ ص ٣٩.
(3) الديوان ج ٢ ص ٧٢.
(4) الديوان ج ٢ ص ٩٣.
(5) الديوان ج ٢ ص ١٠٠.

نـرقـرق في دواة الحبـر بعض تحـرق المــوج
ونـنجي خشـب المـكـتـب من بــرد ومـن ثلج[1]

و «الخليج» بعد «المروج» و «الأريج» في قولها:

إنــه الـفجــر فـهـبّي يــا مــلايـين ومــوجي
احملي أغنيــة الصحــو إلى خضـر الـمــروج
ووعــوداً مــورقــات عــربـيــات الأريــج
نبضت بيـن المـحيط المتــرامي والخـليــج[2]

و «الذباب» بعد «التراب» في قولها:

وتنمــو الخشـونــة حيث يـلامس وجــه التـراب
وتـنبـت أقــدامــه طـحـلبـاً لــزجـاً وذبــاب[3]

و «الأحراش» بعد «الفراش» في قولها:

ضنّ أن تسبح العصــافيــر فيــه وأهــان الضحى وصدَّ الفــراشــا
وورودي لمّت رحـيقـاً عـبيـريـاً وآلـت لا تـمـنـح الأحــراشــا[4]

و «السيول» بعد «التلول» و «الحقول» في قولها:

سيسألنا الله يوماً فماذا نقول؟

نعم قد مُنحنا الذرى والسواقي ومجد التلول
وهدب النجوم وشعر الحقول
ولكننا لم نَصُنْها
ولم ندفع الريح والموت عنها
فباتت كزنبقة في هدير السيول[5].

---

(١) الديوان ج ٢ ص ٤٧٥.
(٢) الديوان ج ٢ ص ٤٩٧.
(٣) الديوان ج ٢ ص ٥٤٢.
(٤) الديوان ج ٢ ص ٥٥٠.
(٥) للصلاة والثورة ص ٤١.

و «الخنازير» بعد «الأعاصير» و «العصافير» و «النواعير» و «الأزاهير» في قولها:

وما لك ذلك البستان قد شرّد في تيه الأعاصير
فلا تذكره إلّا العصافير
ولا تبكي عليه غير أخشاب النواعير
يرى تربته مسبيّة يبصر تهويد الأزاهير
وبلور سواقيه مباح للخنازير[1].

و «الماء» بعد «الصحراء» و «الجداول» بعد «السنابل» في قولها:

من أين يا رب لنا بالماء
من كف أعدائكمو سوف يسيل الماء
ويخصب الصحراء
نيرانهم تخضرّ في حضن معسكراتكم مشاتلا
وقصفهم ينبت في جراحكم سنابلا
يملأ راحاتكمو بالماء
يسيل ما بين خيامكم
جداولاً جداولا[2].

و «الصبّير» بعد «الطير» في قولها:

فقلت للحب صباحي أغنيات
ضفتا نهر، سماء، طير
وقال لي العذاب محزوناً: مساء الخير
فقلت للعذاب: قلبي قبرات رحلت
وأغنيات هطلت
وغابة يسكنها الطحلب والصبّير[3].

(١) للصلاة والثورة ص ٧٩.
(٢) يغير ألوانه البحر ص ٤٠.
(٣) يغير ألوانه البحر ص ١٤٢.

إن الهيام بألفاظ الطبيعة ظاهرة واضحة كل الوضوح في شعر نازك، وقد لوّن هذا الهيام القوافي وأكسبها حياة بعد أن أعطت نازك الألفاظ كثيراً من الدلالات الجديدة. ولكن مثل هذه القوافي كان يجرها أحياناً إلى المزج بين أشياء متباعدة فقد اقتضتها «الشطوط» إلى أن تضع «البلوط»[1] وأدى ذلك إلى عطفه على «البرتقال» وهما من بيئتين مختلفتين. وكان لا بدّ للشاعرة من أن تأتي بلفظة: «الأثباج» بعد أن جاءت بلفظة: «الداجي» في قولها:

أي قبر أعددت لي أهو كهف ملء أنحائه الظلام الداجي
أم ترى زورقي سيغرق بي يوماً فأثوي في ظلمة الأثباج[2]

وألجأتها لفظة: «السراب» إلى أن تأتي بالتراب وهي زيادة فقالت:

في ذلك الوادي الخصيب التراب
قوافل الظامئين
يلتمسون السراب[3].

ومثل ذلك في غير ألفاظ الطبيعة قولها:
هل فهمت الحياة كي أفهم الموت وأدنو من سرّه المكنون[4]

وهل يكون السر غير مكنون؟ وجاءت بلفظة: «النكال» من أجل «الضلال» فقالت:

وضعاف الطيور في ظلل الأغصان تلقى منهم صنوف النكالِ
وزهور الخباز في رحبة الحقل يدوسونها فيا للضلالِ[5]

وعلى الرغم من أن «النكال» لفظة قرآنية[6] غير أن إضافتها إلى

---

(١) الديوان ج ٢ ص ٩٨، وقد تقدم البيتان: حدثوني عن الربيع...
(٢) الديوان ج ١ ص ٣٥٩.
(٣) الديوان ج ٢ ص ١٥٦.
(٤) الديوان ج ١ ص ٢٦.
(٥) الديوان ج ١ ص ٢٣١.
(٦) سورة البقرة، الآية ٦٦، وسورة المائدة، الآية ٣٨.

«صنوف» أكسبها ثقلاً، ولو قالت: «صنوف العذاب» و«فيا للثياب» لكان أحسن. وقادتها لفظتا: «النعاج» و«الكلاب» إلى أن تقول:

أما في ديار العروبة كلب فينبح
أما من نعاج فتنطح[1].

ولكن الشاعرة نازك مبدعة في ألفاظها وقوافيها وكثيراً ما تأتي القافية معبرة عن المعنى الذي تريد أن تبرزه كما في قصيدتها «لعنة الزمن» التي أولها:

كان المغرب لون ذبيح
والأفق كآبة مجروح
والأشباح الغامضة اللون تجوس الظلمة في الآفاق
والنهر ظنون سوداء
والريح مراوح نكراء
والضفة أرض جرداء
تمضغها الظلمة في استغراق
كانت خطوات الظلمة ترطم جو الشاطىء في استغراق
والصمت يفكر في الأحداق[2].

الملامح:

إن دراسة لغة نازك الملائكة أهم ما ينبغي الالتفات إليه في إيضاح اتجاهاتها الفكرية والثقافية، لأنها ـ كما اتضح ـ مفتاح شخصيتها وملامح تطورها خلال رحلتها الشعرية الطويلة. وهناك جوانب أخرى غير ما سبق تتضح في شعرها وتدل على مسيرتها وتكوّن خصائص جلية السمات لأسلوبها وإن كان بعض الشعراء يشترك معها في قدر كبير. ومن تلك الملامح البارزة ذوقها في اختيار الصيغ والعبارات واستعمال الكلمات الدالة على الموقف

(١) للصلاة والثورة ص ١٣٣.
(٢) الديوان ج ٢ ص ٢٤٢.

وتأكيدها على بعض الصيغ مثل تكرارها لكلمة «عبثاً» في دواوينها الأولى كقولها:

عبثاً تحلمين شاعرتي ما من صباح لليل هذا الوجودِ
عبثاً تسألين لن ينكشف السر ولن تنعمي بفك القيودِ[1]

ويعزو الدكتور إبراهيم السامرائي هذه الظاهرة إلى التأثر بالأساليب الأجنبية التي زخرت بها العربية الحديثة[2]، وكان علي محمود طه قد قال:

عبثاً أنشد البقاء لعهدٍ   يفلت اليوم من يدي ويفر[3]

ومن ذلك «أبداً» كقولها:

أبداً تنظرين للأفق المجهول حيرى فهل تجلّى الخفيّ
أبداً تسألين والقدر الساخر صمت مستغلق أبديّ[4]

وكان محمود حسن إسماعيل قد استعمل «أبداً» هذا الاستعمال فقال:

أبداً أجنّ إذا تحدّر طيفها   من عرشه السامي على محرابي

وقال:

روحي عليكم أبداً حائمٌ   يرقب للأوطان بذل الجهود[5]

ومن ذلك «أسفاً» كقولها:

أسفاً يا فتاة لن تفهمي الأيام فلتقنعي بأن تجهليها[6]

---

(١) الديوان ج ١ ص ٢١، وتنظر الأمثلة الأخرى في ٦١ - ٦٢، ٧٠، ٨٣، ٢٦٨، ٣٥٥، ٣٩٢، ٣٩٣، ٥١٣، ٥٥١، ٥٧٣، ٦٣٤ - ٦٣٧، ٦٤٤ ٦٤٨، ٦٥٨، ج ٢ ص ٩٥، ٢٧٣.

(٢) لغة الشعر ص ١٦٨، ١٩٨.

(٣) ديوان علي محمود طه ص ٢١، وتنظر ص ٣٤، ١٧٨.

(٤) الديوان ج ١ ص ٢٢ وتنظر ص ٢٦، ٣١، ٥٧، ٥٩، ٦٦، ٧٣، ٨٨، ١١٢، ١٢٣، ١٢٦، ١٣٤ - ١٣٥، ١٦٨، ١٨٣، ٣٥٦، ٣٦٠، ٤٥١، ٤٨٢، ٤٩٣ - ٤٩٤، ٥١٤، ٥١٧، ٥٦٩، ٥٧٨، ٥٩٢، ٦٤٨، ٦٩٥، ج ٢ ص ٥٦، ٧٩، ٣٨٠.

(٥) أغاني الكوخ ص ٥٠، هكذا أغني ص ٥٧.

(٦) الديوان ج ١ ص ٢٢ وتنظر ص ٤٤، ٤٧، ٥١، ٥٩، ٩٩، ١٧٥، ٣٥٦، ٣٩٠، ٤٢١، ٤٧٩، ٤٩٠، ٥٨١، ٦٠١، ٦١٠، ج ٢ ص ٥٧.

وقال علي محمود طه:

أسفاً للحياة أصلى لظاها   وأراها وريفةً العذبات[1]

ومنها «عجباً» كقولها:

عجباً ما الذي ساق هذا الكون للموت والأذى والدمار[2]

و «طالما» كقولها:

طالما قد سألت ليلي لكن   عزّ في هذه الحياة الجواب[3]

و «هكذا» كقولها:

هكذا ما يريده القدر المحتوم لا ما تريده آمالي[4]

و «حيث» كقولها:

حيث تقضي الأغنام أيامها غرثى ولا عشب في جديب المراعي[5]

و «حسب» كقولها:

حسبنا أننا دفعنا إليها   ثمن العيش حيرة ودموعا[6]

واستعملت «لا» النافية كثيراً كما استعملها فلاسفة المسلمين فقالت: «اللاانتهاء» و «اللاشيء» و «اللاشعور» و «اللاأمس» و «اللاغد» و «اللاكيان» و «اللازمن» و «اللاحدود» و «اللابشر» و «اللالون» و «اللامرئية» وغيرها[7] مما دخل في لغة العلوم هذه الأيام واستعمله الشعراء المعاصرون.

---

(١) ديوان علي محمود طه ص ١٩، وتنظر ص ٢١١.

(٢) الديوان ج ١ ص ٥٦، وتنظر ص ٨٢، ١١٨.

(٣) الديوان ج ١ ص ٢٦، وتنظر ص ٣٠، ٦٦، ٧٦، ١١١، ١٦٢ - ١٦٤، ٣٦٠، ٣٦٤، ٦٧٧، ٦٩٤ - ٦٩٦.

(٤) الديوان ج ١ ص ٢٨ وتنظر ص ٤٨، ٥٠، ٥٨، ١٢٣، ١٣٨، ١٢٩ - ١٣٠، ١٣٥، ١٧٤، ١٧٦، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٦٢، ٣٨٣، ٥٨٧، ٥٩٣.

(٥) الديوان ج ١ ص ٧٣، وتنظر ص ٧٤، ٨١، ٤٠٣.

(٦) الديوان ج ١ ص ٣٨، وتنظر ص ٣٩ وغيرها.

(٧) الديوان ج ١ ص٢٤٦، ٢٧١، ٤٣٦، ٦٧٦، ج ٢ ص ٥، ٢٢، ٦٤، ١٠٨، ١٧٤، ٢٣٧، ٣٦٧ وغيرها كثير في دواوينها.

ومن ألوان أداء نازك استعمال لفظة: «السنين» مثل: «حين» ولم تلجأ إلى الواو إلّا عند اقتضاء القافية كقولها:

ومتى ينتهي الشقاء متى يرتاح كون تقسو عليه السنونا

لتنسجم مع «الصارخون» في البيت الأول وهو:

يا دويّ النواح في الأرض أيان يكف الباكون والصارخونا[1]

وقولها:

فهي تسري كما تشاء المقادير وتُصحي كما تشاء السنونا

لتنسجم مع «يدركونا» في البيت الأول وهو:

أم ترى سنّة الوجود ترى ما ليس يدري الأحياء أو يدركونا[2]

وقولها:

فهو ما زال جمالاً ونقاءً سوف تمضي في التسابيح سنوه

لتنسجم مع الأبيات الأخرى التي جاءت فيها «يفهموه» و«سحقوه» و «ألفوه»[3].

إن الشاعرة تميل إلى استعمال «السنين» مثل: «حين» لأنها تمقت حالة الرفع بالواو ولا تطيقه[4]، ولم تكن بدعاً في ذلك فقد استعمل هذه الصيغة النبي العربي محمد ـ ﷺ ـ فقال: «اللهم اجعل علينا سنيناً كسنين يوسف» واستعملها فصحاء العرب، ولم ترد في القرآن الكريم إلّا منصوبة ومجرورة. واستعملها المعاصرون كعلي محمود طه[5] ومحمود حسن إسماعيل[6] وإبراهيم ناجي في ديوانه الأول «وراء الغمام»[7].

---

(١) الديوان ج ١ ص ٧١.

(٢) الديوان ج ١ ص ٢٢١.

(٣) الديوان ج ١ ص ٤٩٣.

(٤) الصومعة والشرفة الحمراء ص ١٩ ـ ٢٠، يغير ألوانه البحر ص ٢٠٠.

(٥) ديوان علي محمود طه ص ٤٣.

(٦) هكذا أغني ص ١٧٥، أين المفر ص ١٠٢، نار وأصفاد ص ٢٢، ١١٥.

(٧) ديوان إبراهيم ناجي ص ٣٥، ١٦٧.

ومن ملامح أسلوب نازك في التعبير «التكرار» وهو أسلوب عربي قديم، ولكن المعاصرين أكثروا منه، وقد استَقْرَت الشاعرة هذه الظاهرة في الشعر الحديث ودرستها بعمق ظاهر[1]. والتكرار حالة شعورية يقتضيها الموقف ولذلك يلجأ إليها الشاعر بوعي أو بغير وعي، وقد جاء هذا الأسلوب في شعر نازك وأغلبه تكرار كلمة، ولم يقتصر على الشعر ذي الشطرين ولكنه دخل الشعر الحر، أي أنه لم يكن زينة أو عكازاً تلجأ إليه الشاعرة وإنما هو حاجة نفسية ومعنوية. وذكر الدكتور جليل كمال الدين أنها تلتقي في ذلك بالشاعر الناقد أليوت[2]، وهو التقاء لم يكن عن تأثر بذلك الشاعر الذي لم تعرفه نازك معرفة ظاهرة تفتح لها باب التأثر إلاّ بعد حين. إن للتكرار في شعر نازك صلة بالمعنى أو برسم الصورة النابضة بالحياة، ففي قصيدة «الماء والبارود»[3] كررت الشاعرة لفظة: «الماء» كثيراً لتعطي صورة العطش الشديد الذي كان إسماعيل ـ عليه السلام ـ يشعر به بعد أن تركه أبوه في وادٍ غير ذي زرع، وتربط تلك الصورة بحالة الجيش المصري في صحراء سيناء وكان أفراده صائمين وحان موعد الإفطار وليس معهم ماء فراحوا يتضرعون إلى الله فجاءت طائرات إسرائيلية وقصفت المعسكر فتفجر الماء من الأرض وفاض حياةً وارتـواءً. ومن ذلك تكرار كلمة «البحر» في قصيدة «ويبقى لنا البحر»[4] فإن الموضوع يدفع إلى التكرار ليضفي صورة البحر على القصيدة. وهناك كثير من التكرار الذي وقفت فيه نازك لأنه جاء وسيلة من وسائل ربط القصيدة أو وجهاً من وجوه الإيقاع أو الإلحاح على المعنى وإبرازه ولكن هناك تكراراً جاء لإقامة الوزن وهو قليل، ومن ذلك قولها:

وانقضى عـامـان ملعـونـان من أعـوام حبـي
مـزّقـت روحي أظـفـارهمـا روحـي وقـلبـي[5]

(١) قضايا الشعر المعاصر ص ٢٦٣ وما بعدها.

(٢) الشعر العربي الحديث وروح العصر ص ١٦٨.

(٣) يغير ألوانه البحر ص ٢٥.

(٤) يغير ألوانه البحر ص ١١.

(٥) الديوان ج ٢ ص ٥٦.

أليس تكرار «روحي» جاء لإقامة الوزن؟ وكقولها:

فاتركوا نعشه على الأرض حيناً قبل أن تقبروه تحت اللحود[1]

والمعنى ينتهي بالفعل «تقبروه» ولكن الوزن والقافية جاءا بلفظة: «اللحود» ليتم الارتباط بقافية البيت الثاني:

ربما كان خائفاً من دجى القبر حريصاً على جمال الوجودِ

ومن ذلك حشو لفظة: «قط» في قولها:

كلّ شيء تلفّه ظلمة أعمق من أن ينيرها - قط - ضوء[2]

وحشو «هكذا رووا» في قولها:

شعرها - هكذا رووا - باركته من قنان الأولمب أيدٍ خفيّه[3]

وكلمة «السماء» في قولها:

وعند ينابيعها تستحم نجوم السماء[4]

وعبارة «ليس لها وجود» في قولها:

وفجرنا عنقاء ليس لها وجود[5]

ولفظة: «العنقاء» تغني ولكن الوزن والقافية جاءا بالعبارة ليتم الإيقاع.

ومن طرائق التعبير الاستناد إلى «ترى» كثيراً[6] وهو أسلوب عرف قديماً فقال بعضهم:

أترى القاضي أعمى أم تراه يتعامى
سرق العيد كأنّ العيد أموال اليتامى[7]

---

(١) الديوان ج ١ ص ١٩٨.
(٢) الديوان ج ١ ص ٢٤٦.
(٣) الديوان ج ١ ص ٣٣٣.
(٤) الديوان ج ٢ ص ٤٢٥.
(٥) للصلاة والثورة ص ٩٠.
(٦) ينظر الديوان ج ١ ص ٢٥ - ٢٦، ٣٢، ٧١، ١٠٣، ١٠٩، ٢٢٠، ٢٣٣، ٤٠١، ٤٨١ - ٤٨٢، ٥١٨، ٦٩٢، يغير ألوانه البحر ص ١٢.
(٧) تحرير التحبير ص ٤٤٤.

واستعمله علي محمود طه[1] ومحمود حسن إسماعيل[2] وإبراهيم ناجي[3]، وليس في تكرار هذا الفعل ما يقدم جديداً أو يرسم صورة بديعة، ومن ذلك قول الشاعرة:

كل شيء حلو فأين ترى السكانُ أين الفلّاح والقطعان؟
فيم لا يملأون عالمهم لهواً وأين الآمال والألحان[4]؟

وقولها:

سألت عن البحر هل تتغير ألوانه؟
وهل تتلون أمواجه؟ هل ترى تتبدل شطآنه[5]

وتكثر نازك من الأسلوب المستحدث «لم أعد» كما في قولها:
لم أعد أستطيع أن أكتم الشوق فأين يا ضفاف وصولي[6]

وقولها:

وجعلنا رملها كحلاً لأهداب العيون العربيه
لم نعد تحت سماها غرباء[7].

وقد تكرر هذا الأسلوب كثيراً في دواوينها الأولى وسرى شيء يسير منه إلى دواوينها الأخيرة وهو مما لا يحتاج إليه الشاعر بعد أن يمارس الشعر طويلاً. وتستعمل «حتى» استعمالاً لم يرد في أساليب العرب وهو كثير من ذلك قولها:

لم يكن ينطق حتى الرغبات الآدميّه

---

(١) ديوان علي محمود طه ص ٤٩، ١٠٤، ١٩٢، ٤١٦، ٤٩٩، ٥٨٨، ٦٦١.
(٢) هكذا أغني ص ١٣٦.
(٣) ديوان إبراهيم ناجي ص ٢٧.
(٤) الديوان ج ١ ص ٩٦.
(٥) يغير ألوانه البحر ص ١٢.
(٦) الديوان ج ١ ص ٢٩.
(٧) للصلاة والثورة ص ١٦٧.

غير صوت رنَّ في سمعي وذابا
لحظة لم أدرِ حتى أين غابا.

وقولها:
ليلة يرجف في أجوائها حتى الجليد[1].

وقولها:
وعرّشت فيه العناقيد بعثرت فيه الثمر
ولوّنت حتى الحجر[2].

وقولها:
ويغتال حتى شباب البيادر[3].

وكان علي محمود طه قد استعمل «حتى» مثل هذا الاستعمال فقال:
وكفّ عن الهمس حتى النسيم وأمسك عن لعب ماؤها[4]

وذكرت الشاعرة كثيراً من الأعلام الأجنبية مثل كيوبيد وتاييس وأبولو وأدونيس ويوثوبيا والأولمب وآريس وبلاوتس وميداس وروما وكرومول وملتن وهامدن وديانا ونرسيس ومدوزا وبوذا وموسكو وبرجنيف ونكسن وفينوس وغيرها[5]، وكانت هذه الظاهرة قد شاعت في شعر المعاصرين. وأدخلت أسماء المقام في قصيدتها «رحلة على أوتار العود»[6] وهي: الرست والنهاوند والصبا واليكاه والدوكاه والسيكاه.

وهناك استعمالات لغوية كثيرة منها تذكير لفظة: «الروح» وتأنيثها[7]

---

(١) الديوان ج ٢ ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٢) للصلاة والثورة ص ٤٠.
(٣) يغير ألوانه البحر ص ١٩.
(٤) ديوان علي محمود طه ص ٤٤٧.
(٥) ينظر الديوان ج ١ ص ٥٤، ٦٨، ٨٣، ٩٥، ١١٦، ١٢٧، ٣٣٠، ٣٥٢، ٤١٨، ٥٢٤، ٥٦٥، ٦٨٨، ج ٢ ص ٣٥، ٨٠، ١٤٧، ٣٤٧، ٣٦٦، ٤٣٧، للصلاة والثورة ص ١٢٦، ١٢٨ ـ ١٣٠، ١٦٩، يغير ألوانه البحر ص ١١٥، ١٧٥، ١٨٠، ٢٠١.
(٦) للصلاة والثورة ص ٨٤.
(٧) ينظر الديوان ج ١ ص ٤٧٧، ٥٢٦.

واستعمال «العنكبوت» مذكراً كما في قولها:

ذلك العنكبوت ذو الأرجل الفظة هل منه مهرب أو ملاذ[1]؟

وجاءت الضمائر والإشارات بعد ذلك مذكرة فقالت:

إنه من دمائهم يتغذى وهو من قلب أمسهم أفلاذ
إنه حبهم يعود إليهم ينسج الذكريات والأهواءا
لا تطيق الأسوار ردَّ خطاه فهو قد خالط الرؤى والدماءا

ولفظة: «العنكبوت» مؤنثة في الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾[2]، ولا عبرة بما جاء في شوارد الشواهد أو شعر بعض المعاصرين كمحمود حسن إسماعيل[3].

ومن ذلك استعمال «تفتأ» استعمالاً قرآنياً كقولها:

أسفاً لم أجدك في الشاطىء الصخريّ حيث المياه تفتأ تبكي[4]

وغير قرآني كقولها:

راقداً تحت حافة القبر لا يفتأ يشكو إلى الصَّبا والغيوم[5]

واستعملت في ديوانيها الأخيرين لفظة: «النهور» جمعاً للنهر وهو نادر لا يكاد يستعمل الآن[6]. ولم تكن موفقة في «امرّغ» كقولها:

في ضباب الأحلام والشعر مرّغت غرامي ونشوتي وصبايا

وقولها:

وأنا لم أزل أمرّغ أحلامي وأبني لكم قصور رمال[7]

---

(١) الديوان ج ١ ص ٣٤٨، وتنظر ص ٢٦٨، ٣٢٥، ٣٤٩، ج ٢ ص ٣٩٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية ٤١.
(٣) قاب قوسين ص ٣٢، ١٩٨، نار وأصفاد ص ٢٥، ٣١.
(٤) الديوان ج ١ ص ٤٠٢، وتنظر ص ٧٢.
(٥) الديوان ج ١ ص ١٤٢.
(٦) للصلاة والثورة ص ٧٨، ١١٥، يغير ألوانه البحر ص ٤٦، ٥٠، ١٠٤، ١٣٥، ١٨٣، ١٨٨.
(٧) الديوان ج ١ ص ٢٥٥، وتنظر ص ٢٨١، ٢٨٩، ج ٢ ص ٥٥٢، ٥٦٧.

واستعمال «دورق» في قولها:

ما أنت يا دورق الضياء ويا كواكباً في الظلام منصهره[1]

وقولها:

ويريق دوارق عسل يسقيها بيداً وحقولاً[2]

ولفظة: «دلق» في قولها:

إلّهي تعلم أنت وتعلم ماذا صنعنا
بوردتنا قد نزعنا نزعنا
وريقاتها ودلقنا شذاها الخجول[3].

و «مشوار» في قولها:

أم مشاوير فصول أربعه

وقولها:

وشمعي وتسابيحي ومشواري[4].

و «سرر الأمراض» في قولها:

وارحم الصارخين في سرر الأمراض بين الأحزان والأدواء[5]

و «مجاري الجداول» في قولها:

ههنا تنطق العرائش بالشعر وتحنو على مجاري الجداول[6]

واستعملت «أن» بعد «كاد» و «لا» بعد «قد»[7] وأدخلت اللام على «وحدي» فقالت:

---

(١) الديوان ج ٢ ص ٤٨٢.
(٢) يغير ألوانه البحر ص ١٧٧.
(٣) للصلاة والثورة ص ٤٢ ـ ٤٣.
(٤) يغير ألوانه البحر ص ١٢٤، ١٣٢.
(٥) الديوان ج ١ ص ٤٥.
(٦) الديوان ج ١ ص ٩٦.
(٧) الديوان ج ١ ص ٣١٦، ج ٢ ص ١٩٢.

ذهبوا للشاطىء المسحور إذ عدت لوحدي[1]

وجمعت «القرآن» على «قرائين» واستعملته كثيراً في قصائدها «دكان القرائين» و«زنابق صوفية للرسول» و«أقوى من القبر»[2] وكررت لفظة: «الملايين» كثيراً والعرب تقول: «ألف ألف» وقد استعملها خالها الدكتور جميل الملائكة فقال:

أو لهذي الحياة بين الضلوع عودة بعد ألف ألف ربيع[3]

وهناك استعمالات كثيرة لنازك، وهي تدلّ في كثير من الأحيان على معرفتها الواسعة بالتراث العربي وأصالة اللغة العربية، وتشير أحياناً أخرى إلى تأثرها بأساليب الشعراء المعاصرين وعلى رأسهم علي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل وشعراء المهاجر.

وفي شعرها ضرورات وما كان لها أن تأخذ بهذه الرخصة لأنها شاعرة كبيرة ولأن كثيراً من شعرها في الدواوين الأخيرة من الحر وهو يعطي الشاعر مجالاً للتعبير الدقيق.

وصفوة القول إن الشاعرة نازك الملائكة قد ثارت على الألفاظ والصور البالية وانتقدت كثيراً مما تسرب إلى الشعر الحديث من عهود التخلف والانحطاط. وكانت متأثرة بالحركة الشعرية التي قادها علي محمود طه وإبراهيم ناجي ومحمود حسن إسماعيل، وبشعر الطبيعة الغربي الذي يمثله في انكلترة جون كيتس وشيلي وبايرون وغيرهم فجاءت دواوينها الأولى تعبيراً صادقاً عن تلك المرحلة من حياتها الشعرية، وكثرت فيها ألفاظ الطبيعة ومظاهرها والحزن والقلق والشكوى والتمرد على الواقع ولكنها حينما اكتشفت العالم وذاقت ويلات الحروب وجور الحكام وأطماع الغزاة التزمت بقضايا أمتها العربية ورسالتها الإسلامية، ومضت تسير في دروب الثورة والنضال

---

(١) الديوان ج ١ ص ٥١٤، وتنظر ص ٥٧٣، ج ٢ ص ٣٢٦.

(٢) يغير ألوانه البحر ص ٧٤، ٥٢، للصلاة والثورة ص ٥٨.

(٣) رباعيات الخيام ص ٥٠.

فكانت دواوينها الأخيرة صورة صادقة لتلك الثورة ورفض الواقع المؤلم، وظهرت فيها بوضوح ألفاظ الثورة والعروبة والإسلام ولذلك لم تنكر ما أنكرته في مطلع حياتها من ألفاظ ملّتها الآذان وأنكرتها الأذواق المتأثرة بالثقافات الأجنبية وبدعوة التجديد؛ لأن الأجواء التي صوّرتها في شعرها الأخير ترتبط ارتباطاً وثيقاً بألفاظ تعبر عن الروح العربية والإسلامية خير تعبير. فالشاعرة لم تقف عند ألفاظ ثابتة في طريقها الشعري الطويل ولكنها انتقلت إلى أطوار صوَّرتها حياتها الشعرية وكان كل طور يمثل إنسانة لها طموحها وأهدافها وإن بقيت لغتها تحتفظ ببعض السمات العامة في المراحل كلها، وأوضحها:

الأولى: السهولة والوضوح والابتعاد عن الألفاظ الغريبة التي توحي بالتعمية والإبهام؛ لأن الشاعرة لا تميل إلى ذلك بل تحب الغموض الذي يشف ولا يحجب وتعشق الألفاظ المأنوسة التي تدخل القلب وتؤثر في النفس لا الألفاظ المقبورة في المعاجم.

الثانية: الابتعاد عن الألفاظ المبتذلة والعامية وما نفرت منه الأذان ورفضته الأذواق.

الثالثة: الدقة في التعبير والصحة في الأداء والابتعاد عن الخطأ اللغوي أو النحوي أو الضرورة إلّا في بعض المواضع التي لا تشكل ظاهرة تثير الانتقاد العنيف.

الرابعة: الجمال والإيحاء والتعبير عن المعنى تعبيراً فنياً يحرك المشاعر.

الخامسة: استغلال الطاقة الشعرية في الألفاظ والتعبير عن الأغراض تعبيراً جديداً وبعث الحياة في كثير من الألفاظ التي يظن أنها ليست شعرية ومزج الشائع في النثر بما يولّد دلالات جديدة تنبض بالحياة.

السادسة: القدرة على استعمال الأساليب المختلفة في تحقيق الفكرة أو إثارة الخيال أو تجسيم الصورة وتطويع الأسماء والأفعال والصيغ لتحقيق الهدف الذي تسعى إليه.

تلك وقفة عند لغة نازك الملائكة، وهي وقفة قد تطول لأن الحديث عنها لا تحدّه صفحات أو كتاب، فالشاعرة أصيلة عرفت كيف تنقل الشعر

المعاصر من رتابة ألفاظه ومعانيه وصوره وأوزانه وقوافيه إلى عالم جديد يزخر بالحياة، وكان لها الفضل العظيم في ارتياد آفاق لم يألفها الشعراء ولذلك تبقى رائدة لحركة الشعر الحر، وتظل شاعرة الكلمة العذبة والنغم الساحر والمعنى البديع.

المصـــادر:

١ - إبراهيم ناجي - الشاعر - ديوان إبراهيم ناجي - بيروت ١٩٧٣ م.

٢ - ابن وهب - أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان - البرهان في وجوه البيان - تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي. بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

٣ - إحسان عباس - الدكتور - اتجاهات الشعر العربي المعاصر - الكويت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

٤ - أحمد مطلوب - الدكتور - النقد الأدبي الحديث في العراق. القاهرة ١٩٦٨ م.

٥ - البصري - عبد الجبار داود - نازك الملائكة - الشعر والنظرية. بغداد ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.

٦ - الجاحظ - أبو عثمان عمرو بن بحر - الحيوان - تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م.

٧ - جليل كمال الدين - الدكتور - الشعر العربي الحديث وروح العصر. بيروت ١٩٦٤ م.

٨ - الحمداني - الدكتور سالم أحمد - ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة - أسبابها وقضاياها المعنوية واللفظية. الموصل ١٩٨٠ م.

٩ - رزوق فرج رزوق - الدكتور - نازك الملائكة والتجربة الشعرية - بحث نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد (العدد ٢٠ سنة ١٩٧٦ م).

١٠ - روز غريب - نسمات وأعاصير في الشعر النسائي العربي المعاصر. بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

١١ - السامرائي - الدكتور إبراهيم - لغة الشعر بين جيلين. بيروت ١٩٦٥ م.

١٢ - السامرائي - ماجد أحمد - نازك الملائكة الموجة القلقة. بغداد ١٩٧٥ م.

١٣ - علي محمود طه - الشاعر - ديوان علي محمود طه. بيروت ١٩٧٢ م.
١٤ - القيرواني - أبو علي الحسن بن رشيق - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. الطبعة الثانية. القاهرة ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.
١٥ - محمود حسن إسماعيل - الشاعر - أغاني الكوخ - الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٦٧ م.
١٦ - أين المفر - الطبعة الثانية. الكويت ١٩٦٨ م.
١٧ - قاب قوسين. القاهرة ١٩٦٤ م.
١٨ - نار وأصفاد. القاهرة ١٩٥٩ م.
١٩ - هكذا أغني. القاهرة ١٩٣٨ م.
٢٠ - المرزوقي - أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين - شرح ديوان الحماسة - تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون. القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥١ م.
٢١ - المصري - ابن أبي الأصبع - تحرير التحبير - تحقيق الدكتور حفني محمد شرف. القاهرة ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م.
٢٢ - الملائكة - الدكتور جميل - رباعيات الخيام. بغداد ١٩٥٧ م.
٢٣ - الملائكة - الشاعرة نازك - ديوان نازك الملائكة (مجلدان). بيروت ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.
٢٤ - شجرة القمر (الديوان - الجزء الثاني).
٢٥ - شظايا ورماد (الديوان - الجزء الثاني).
٢٦ - الصومعة والشرفة الحمراء. بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
٢٧ - عاشقة الليل (الديوان - الجزء الأول).
٢٨ - قرارة الموجة (الديوان - الجزء الثاني).
٢٩ - قضايا الشعر المعاصر - الطبعة الخامسة. بيروت ١٩٧٨ م.
٣٠ - للصلاة والثورة. بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
٣١ - لمحات من سيرة حياتي وثقافتي - ترجمة ذاتية للشاعرة نفسها في عشرين صفحة على الآلة الكاتبة. وقد أرسلتها إليّ مشكورة.
٣٢ - مأساة الحياة وأغنية للإنسان. (الديوان - الجزء الأول).
٣٣ - يغير ألوانه البحر. بغداد ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
٣٤ - نزار قباني - الشاعر - طفولة نهد - الطبعة الثامنة. بيروت ١٩٦٧ م.

٦
المصطلحـات العلميـة
في مفاتيح العلوم

مقـدمـــة:

اهتم العرب بالمصطلحات العلمية وكانت «الحقيقة الشرعيـة» أول روافدها وهي ألفاظ كانت لها معان لغوية ثم نقلها الإسلام إلى معان جديدة كالشهادة والصلاة والصوم والزكاة والإيمان والكفر والفسق والنفاق. وزادت أهمية المصطلحات حينما بدأ عهد الترجمة وأخذت الحياة العلمية تزدهر، وكان كثير من العلوم بعيدة عن العرب قبل الرسالة المحمدية ولم تكن لها ألفاظ أو مصطلحات تدل عليها عند اشتغال العرب بها. وقد بذل اللغويون والمترجمون جهوداً عظيمة لتذليلها واستطاعوا أن يضعوا للجديد لفظاً عربياً أصيلاً ويعرِّبوا ما كان دخيلاً. وما كاد القرن الرابع للهجرة يودّع أعوامه الأخيرة حتى استقر كثير من المصطلحات وأصبح أكثرها عربياً ويتضح ذلك في أقدم كتاب موسوعي هو «مفاتيح العلوم» الذي ضمّ العلوم الشرعية وما يقترن بها من العلوم العربية وعلوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم. ولا بدّ لمثل هذا الكتاب أن يكون نافعاً في حركة التعريب ووضع المصطلح العلمي وكان هذا البحث مرشداً إليه وخطوة في سبيل إحياء التراث العلمي العربي.

يبدأ البحث بالكلام على عناية العرب بالمصطلح ووسائلهم في وضعه والإشـارة إلى الخوارزمي مؤلف «مفـاتيح العلوم» وعـرضٍ لمادة كتـابـه

(*) نشر في مجلة دراسات للأجيال، العدد الخاص بالتراث والثورة (العدد الثالث ـ السنة الخامسة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م).

واستخلاص أهم أسسه وتبيان أهميته في إحياء التراث، وكان الهدف من البحث أمرين:

الأول: إظهار طاقة اللغة العربية على استيعاب العلوم ومصطلحاتها واستغنائها عن اللفظ الدخيل إلّا في الضرورة القصوى.

الثاني: إظهار قدرة المؤلفين والمترجمين واللغويين على مواكبة الحركة العلمية ووضع المصطلحات العربية.

وهناك أمر ثالث يفرض نفسه عند البحث في هذه المسألة وهو دراسة كل مصطلح ومعرفة اشتقاقه وصلته بالعربية أو باللغات الأجنبية ويتطلب ذلك:

١ ـ أن ينصرف عدة دارسين لمفاتيح العلوم ويبحث كل واحد منهم الموضوع الذي تخصص فيه.

٢ ـ أن يكون الدارس عارفاً ببعض اللغات التي أخذ العرب عنها المصطلحات ليعرف كيف نقل اللفظ وما طرأ عليه من تغيير قبل أن يستقر في الكتب.

وليس هذا البحث بقادر على ذلك ولكن الإيمان بالعلم والإخلاص له والمثابرة عليه تحقق المستحيل، وأن العرب اليوم أكثر قدرة وأعظم طاقة من الأقدمين وأنهم لا بدّ بالغون أهدافهم في إحياء التراث العربي وإقامة صرح حضارة جديدة.

العناية بالمصطلح:

اللغة «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1] وهي مرتبطة بتطور المجتمع وتقدم الحضارة. وقد نشأت اللغة العربية كغيرها من اللغات لتسدّ حاجة المتكلمين بها، وكانت في أول أمرها مقتصرة على الألفاظ الوضعية التي عبرت عما أحاط بالعربي في بيئته، ثم تطورت بتطوره خلال القرون. والكلمة حين توضع لتدل على شيء معين تسمى «حقيقة» والحقيقة هي

(١) الخصائص ج ١ ص ٣٣.

«ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة»[1] أي: استعمال اللفظة في وضعها الأول بحيث لا يتبادر إلى الذهن غير ذلك حينما تطلق كاستعمال «القلم» للدلالة على آلة الكتابة و «القمر» للدلالة على الكوكب المعروف. ويسمى هذا النوع «الحقيقة اللغوية» لأن الألفاظ تستعمل بمعناها الأول أو «الاسم الأصلي»[2]. ولكن هذه الحقيقة قد تنقل من مسماها اللغوي إلى غيره بصرف الاستعمال ويكون ذلك عاماً كاستعمال «القارورة» للدلالة على بعض الآنية دون غيرها مما يستقر فيه، أو خاصاً وهو ما كان جارياً على ألسنة العلماء من المصطلحات نحو ما يجريه أهل العلوم في كتبهم وما يصطنعه أهل الحرف والصناعات في أعمالهم. وهذان الفرعان هما «الحقيقة العرفية». وهناك نوع ثالث هو «الحقيقة الشرعية» وهي «اللفظة التي يُستفاد من جهة الشرع وضعها لمعنى غير ما كانت تدل عليه في أصل وضعها اللغوي»[3]، وهذا النوع من أثر الإسلام في اللغة فقد نزل القرآن الكريم على العرب وهم أهل فصاحة وبلاغة، وأثّر في حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وكانت ألفاظه عمدة المتكلمين وزادَ المنشئين، وكثير من هذه الألفاظ جاء لمعان جديدة لم تكن مألوفة عند العرب. قال أحمد بن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم فلما جاء الله ـ جلّ ثناؤه ـ بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت، فعفّى الآخر على الأول وشغل القوم بعد المغاورات والتجارات وتطلب الأرباح والكدح للمعايش في رحلة الشتاء والصيف وبعد الإغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة بتلاوة الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وبالتفقه في دين الله ـ عز وجل ـ وحفظ سنن رسول الله ـ ﷺ ـ مع اجتهادهم

---

(١) الخصائص ج ٢ ص ٤٤٢.

(٢) أصول السرخسي ج ١ ص ١٧٠.

(٣) الطراز ج ١ ص ٥٥، نهاية السول ج ١ ص ٢٥١.

في مجاهدة أعداء الإسلام. فصار الذي نشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن، وحتى تكلموا في دقائق الفقه وغوامض أبواب المواريث وغيرها من علم الشريعة وتأويل الوحي بما دوّن وحفظ حتى الآن»[1]. وكان لا بدّ لمثل هذا التطور من أن تستجيب اللغة العربية للجديد وبذلك نقل الإسلام ألفاظاً من مواضع إلى مواضع وهذا النقل الذي يخص الشريعة يسمى «الحقيقة الشرعية» وهو من أسباب نمو اللغة وفتح باب تطور الدلالة وانتقال الألفاظ من معنى إلى آخر يقتضيه الشرع وتتطلبه الحياة.

والحقيقة الشرعية قسمان:

الأول: أسماء شرعية وهي التي لا تفيد مدحاً ولا ذماً عند إطلاقها كألفاظ أركان الإسلام وغيرها من مصطلحات الفقه الإسلامي.

الثاني: أسماء دينية وهي التي تفيد مدحاً أو ذماً مثل الإسلام والإيمان والكفر والفسق والنفاق.

ولم تكن ألفاظ «الحقيقة الشرعية» بفرعيها تدل على ما أراده الإسلام قبل ذلك وإنما أصبحت مصطلحات خاصة أضيفت إلى اللغة كما أضيفت ألفاظ «الحقيقة العرفية» ـ ولا سيما الخاصة ـ إليها وبذلك اتسعت اللغة العربية وعبّرت عن كل ما استجد بعد الإسلام من شؤون الحياة.

إن الألفاظ التي انتقلت من معانيها اللغوية الأولى أي من «الحقيقة اللغوية» إلى معانٍ جديدة أصبحت تدل على معان محدّدة يعرفها أهل العلم وكان لكل لون من العلوم والفنون ألفاظ ومصطلحات. وقد عرف العرب بفضل الإسلام المصطلحات العلمية وكان الجاحظ (ـ ٢٥٥ هـ) من أوائل الذين تحدثوا عنها فقال وهو يشير إلى المتكلمين: «وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل

(١) الصاحبي ص ٧٨، وينظر المزهر ج ١ ص ٢٩٤.

خلف وقدوة لكل تابع»[1]. وتحدث عن التحول الذي طرأ على الألفاظ بظهور الإسلام، وقال إن الناس تركوا مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة، فمن ذلك تسميتهم للخراج «إتاوة» وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان «الحملان» و«المكس». واستحدثوا أسماء لم تكن وإنما اشتقت لهم من أسماء متقدمة على التشبيه مثل قولهم لمن أدرك الإسلام «مخضرم» وللأرض التي لم تحفر ولم تحرث إذا فعل بها ذلك «مظلومة» ولمن راءى بالإسلام واستسرّ بالكفر «المنافق» ولمن لم يحج إما لعجز وإما لتضييع وإما لإنكار «الصَّرورة»[2].

وزادت العناية بالمصطلح بعد أن تشعّبت العلوم وكثرت الفنون وكان لا بدّ للعرب من أن يضعوا لما استجد مصطلحات جديدة مستعينين بوسائل أهمها: الوضع والقياس والاشتقاق والترجمة والمجاز والتعريب والتوليد والنحت[3]. وكانت هذه الوسائل سبباً في اتساع العربية واستيعابها للعلوم والآداب والفنون، وقد بذل الأقدمون جهوداً عظيمة في وضع المصطلح وكان الأساس فيه أن يتفق عليه اثنان أو أكثر وأن يستعمل في علم أو فن بعينه ليكون واضح الدلالة مؤدياً المعنى الذي سعى إليه الواضعون. ولم يروا بأساً في أن يضع المؤلف مصطلحه فيشيع أو ينحسر إذ «لا مشاحة في الاصطلاحات». قال قدامة بن جعفر وهو يتحدث عن نقد الشعر: «فإني لما كنت آخذاً في استنباط معنى لم يسبق إليه من يصنع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها، احتجت إلى أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها وقد فعلت ذلك. والأسماء لا منازعة فيها إذا كانت علامات فإن قُنع بما وضعته وإلا فليخترع لها كل من أبى ما وضعته منها ما أحب فليس ينازِع في ذلك»[4]. وقال ابن وهب: «وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب اسماً مما لم تكن تعرفه فمنه ما سموه باسم من عندهم كتسميتهم الباب في المساحة باباً

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٩.

(٢) ينظر الحيوان ج ١ ص ٣٢٧ - ٣٣٦، ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٣) ينظر دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات ص ٦٩ - ٨٩.

(٤) نقد الشعر ص ٢٢.

والجريب جريباً والعشير عشيراً. ومنه ما عرّبته وكان أصل اسمه أعجمياً كالقسطاس المأخوذ من لسان الروم والشطرنج المأخوذ من لسان الفرس، والسجيل أيضاً المأخوذ من كلام الفرس. وكل من استخرج علماً واستنبط شيئاً وأراد أن يضع له اسماً من عنده ويواطىء من يخرجه إليه عليه فله أن يفعل ذلك. ومن هذا الجنس اخترع النحويون اسم الحال والزمان والمصدر والتمييز والتبرية. وأخرج الخليل لغات العروض فسمى بعض ذلك الطويل وبعضه المديد وبعضه الهزج وبعضه الرجز. وقد ذكر أرسطاطاليس ذلك وقال إنه مطلق لكل أحد يحتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أو يسميه بما شاء من الأسماء. وهذا الباب مما يشترك العرب وغيرهم فيه وليس مما ينفردون به»(١). فوضع المصطلحات مباح للعلماء ومطلق لكل من يحتاج إلى تسمية شيء ليعرف به ولكن الجاحظ وقدامة وابن وهب لم يحددوا أنواع ذلك الوضع وإن كان كلامهم يومىء إلى بعض الوسائل هي:

الأولى: اختراع أسماء لما لم يكن معروفاً كما فعل النحويون والعروضيون والمتكلمون وغيرهم.

الثانية: إطلاق الألفاظ القديمة للدلالة على المعاني الجديدة على سبيل التشبيه والمجاز كما في الأسماء الشرعية والأسماء الدينية وغيرها مما استجد بعد الإسلام من علوم وفنون.

الثالثة: التعريب وهونقل الألفاظ الأعجمية إلى العربية بإحدى الوسائل المعروفة عند النحاة واللغويين.

وهذه الثلاثة من الوسائل التي لا يزال العاملون في اللغة والعلم والفن يلجأون إليها عند وضع المصطلحات العلمية وإن كانت الوسيلة الثالثة لا يُلجأ إليها إلاّ عند الضرورة القصوى خشية أن تضيع اللغة العربية في غمرة الدخيل. وقد لجأ العرب في أول عهدهم بنقل العلوم إلى التعريب ليسدوا حاجة عرضت لهم فقالوا: «الأرثماطيقي» و«الفيزيقي» و«قاطيغورياس»

---

(١) البرهان في وجوه البيان ص ١٥٨ ـ ١٥٩

و «أسقطسّ» للحساب والطبيعة والمقولات والعنصر. وكان سبب ذلك ضعف المترجمين الذين كان أكثرهم لا يتقن العربية ولكن الحال تغيرت بعد أن ازدهرت حركة الترجمة واتسعت آفاقها وظهر مَنْ له معرفة باللغة العربية وبغيرها من اللغات وأصبحت الكتب العلمية تحفل بالمصطلحات العربية الأصيلة ولا سيما كتب الفقه وعلوم اللغة التي نشأت في رحاب الفكر العربي الإسلامي. أما غيرها من العلوم الأجنبية فكان الطابع العربي واضحاً عليها وإن دخل فيها شيء من اللفظ الأجنبي الذي لم ير المعرِّبون بداً من إدخاله في كتبهم بعد أن ضاقت بهم السبل في تلك العهود. لقد اضطر الأوائل إلى الأخذ بالمعرب ولكنهم وجدوا بعد حين ضالتهم في لغتهم فغيروا كثيراً من المصطلحات ووضعوا لها أسماءً عربية حفلت بها كتبهم الكثيرة وكان «مفاتيح العلوم» للخوارزمي أحد تلك الكتب التي ترسم صورة جلية للمصطلحات العلمية في القرن الرابع للهجرة. فمن هو الخوارزمي؟ وما كتابه؟ وما منهجه وأسسه؟ وما أهميته في حركة إحياء التراث العربي؟.

الخـوارزمـي:

هو محمد بن أحمد بن يوسف أبو عبد الله الكاتب البلخي، باحث من أهل خراسان[1]، ولم تذكر المصادر والمراجع عنه شيئاً ذا بال. وكانت وفاته عام ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م)، وترك كتاباً عظيم الفائدة هو «مفاتيح العلوم» الذي كان «جليل القدر»[2]. وقد ألفه وأهداه إلى أبي الحسن عبيد الله بن أحمد العتبي[3] الذي كان وزيراً من وزراء نوح الثاني الساماني. قال فيدمان: «وكان أبو عبد الله يعيش في بلاطه بنيسابور ولعل الخوارزمي، قد ولد في بلخ، ويستدل من كتابه أنه كان يلي منصباً إدارياً وكان بحكم مقامه في خراسان خبيراً بالأحوال السائدة في المشرق خاصة. ويعدّ كتابه الذي كان العرب

---

(١) ينظر كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٥٦، دائرة المعارف الإسلامية ج ٩ ص ١٧، تأريخ الأدب العربي لبروكلمان ج ٤ ص ٣٣٣، الأعلام ج ٥ ص ٣١٢ - ٣١٣.

(٢) خطط المقريزي ج ١ ص ٢٥٨.

(٣) تنظر ترجمته في الفتح الوهبي ج ١ ص ٨٩، الأعلام ج ٤ ص ١٩١.

ينزلونه منزلة كبيرة عظيم النفع في إظهارنا على معارف في مواضيع جد متباينة، وقد تناولها الخوارزمي في دقة وإحكام. ولا شك في أن الخوارزمي قد أفاد في ميدان الرياضيات مما نقله عن اليونانية من مؤلفات علماء من أمثال إقليدس ونيقوماخوس وهيروفيلون وغيرهم، ولم يكن يذكر المراجع التي استقى منها إلّا فيما ندر»[1]. ومعظم إشاراته كانت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي إذ نقل بعض كلامه في معاني الألفاظ[2]. وليس في المصادر ما يشير إلى زمن تأليف الكتاب ولكن الخوارزمي ذكر آخر خلفاء بني العباس في عهده وهو عبد الكريم بن الفضل الطائع المتوفى سنة **٣٩٣** هـ، ويبدو أن الكتاب ألّف قبل سنة **٣٨١** هـ وهي السنة التي عزل فيها الخليفة العباسي الطائع[3]، وكان آخر ملك من ملوك الروم الذين ذكرهم قسطنطين ابن اليونان الذي كان عام **٣٠١** هـ[4].

وكتاب «مفاتيح العلوم» أقدم كتاب موسوعي بالعربية يتعرض للعلوم ومصطلحاتها، وقد نشره فان فلوتن في ليدن عام **١٨٩٥** م، ونشر في القاهرة أولِ مرة سنة **١٣٤٢** هـ، واهتم به فيدمان وكتب عنه عدة مقالات وترجم أونقالا إلى الإنكليزية فصلين من الباب السادس من المقالة الأولى[5]. يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة قال الخوارزمي فيها: «فلما قصر الله همة الشيخ الجليل السيد أبي الحسن عبيد الله بن أحمد العتبي ـ أطال الله بقاءه وأدام للزمان بهاءه ـ على حب العلم وأهله وإيوائهم إلى ظليل ظله وإيلاء قاصيهم ودانيهم عوائد برّه وفضله، دعتني نفسي إلى تصنيف كتاب باسمه النابه يكون جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات متضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من الموضوعات والاصطلاحات التي خلت منها أو من جلّها الكتب الحاصرة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج ٩ ص ١٧.

(٢) مفاتيح العلوم ص ٩، ١٦، ١٨، ٣٠، ٤٥، ٨٣، ٩٥، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠٤، ١١٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٥، ١٣٧.

(٣) ينظر نكت الهميان ص ١٩٦، وينظر مفاتيح العلوم ص ٦٧.

(٤) مفاتيح العلوم ص ٧٠.

(٥) ينظر تأريخ الأدب العربي ج ٤ ص ٣٣٤.

لعلم اللغة حتى إن اللغوي المبرز في الأدب إذا تأمل كتاباً من الكتب التي صنفت في أبواب العلوم والحكمة ولم يكن شدا صدراً من تلك الصناعة لم يفهم شيئاً منه، وكان كالأميّ الأغتم عند نظره فيه»[1]. فالخوارزمي يقرر:

١ ـ إن المصطلحات العلمية غير الألفاظ اللغوية، الأولى خاصة بأصحاب الصناعات والثانية عامة تشمل أصحابِ اللغة كلهم.

٢ ـ إن كثيراً من كتب اللغة تخلو من المصطلحات العلمية.

٣ ـ إن اللغوي المبرز يحتاج إلى معرفة ألفاظ كتب الحكمة والعلوم ليعرف ما فيها.

ومعنى ذلك أن لغة العلم بدأت منذ عهد مبكر تأخذ طابعاً يختلف عن طابع اللغة التي يتحدث بها الناس أو يبدع فيها الكتاب والشعراء. ولولا ذلك ما استطاع العرب والمسلمون أن ينقلوا من اللغات الأجنبية وأن يؤلفوا في العلوم والفنون. وقد تختلف المواضعات ودلالة الفاظ بين علم وعلم ولكن أهل كل علم يعرفون دلالة اللفظ ومعنى المصطلح، قال الخوارزمي: «ومثال هذه المواضعات لفظة: «الرجعة» فإنها عند أصحاب اللغة المرة الواحدة من الرجوع لا يكادون يعرفون غيرها، وهي عند الفقهاء الرجوع في الطلاق الذي ليس ببائن، وعند المتكلمين ما يزعمه بعض الشيعة من رجوع الإمام بعد موته أو غيبته، وعند الكتاب حساب يرفعه المعطي في العسكر لطمع واحد، وعند المنجمين سير الكواكب من الخمسة المتخيرة على خلاف نضد البروج. ولفظة: «الفك» فإنها عند أصحاب اللغة والفقهاء مصدر «فك الأسير» أو «الرهن» أو «الرقبة» و «أحد الفكين» وهما اللحيان، وعند أصحاب العروض إخراج جنس من الشعر من جنس آخر تجمعهما دائرة، وعند الكتاب تصحيح اسم المرتزق في الجريدة بعد أن كان وضع عنها. ولفظة: «الوتد» عند اللغويين والمفسرين أحد أوتاد البيت أو الجبل من قوله تعالى: ﴿ والجبال أوتاداً ﴾[2]، وعند أصحاب العروض ثلاثة أحرف اثنان متحركان وثالث

(١) مفاتيح العلوم ص ٢.

(٢) سورة النبأ، الآية ٧.

ساكن، وعند المنجمين أحد الأوتاد الأربعة التي هي الطالع والغارب ووسط السماء ووتد الأرض»[1]. وقال بعد أن ذكر تعريف المتكلمين للخط والسطح والجسم: «فأما هذه الأشياء على رأي الفلاسفة والمهندسين فعلى خلاف ما ذكرته في هذا الباب وسأذكرها في أبوابها إن شاء الله عند ذكر أقاويلهم»[2]. وقال في مواضعات كتاب الرسائل: «أما كتاب الرسائل فإن كل ما تقدم في هذا الباب مما يستعملونه، وأنا أذكر في هذا الفصل ما هو خاص لهم دون طبقات الكتاب في نقد الكلام ووصف نعوته وعيوبه»[3]. وقال في بعض ألفاظ الفلسفة: «التجزؤ ضربان: ضرب تعليمي أي وهمي ولا نهاية له لأنه يمكن أن يتوهم أصغر من كل صغير يتوهم، وضرب طبيعي أي مادي وله نهاية؛ لأن المتجزىء من الأجسام يتناهى بالفعل إلى صغير هو أصغر شيء في الطبع وهو ما لطف عن إدراك حسّ إياه. هذا على ما تقوله الفلاسفة، فأما على ما تقوله المعتزلة فقد مرّ في باب الكلام»[4]. ويتضح من ذلك أمران:

الأول: إن للعلوم لغة تختلف عن لغة الأدب والثقافة العامة، وقد تكون لكل علم لغة خاصة به.

الثاني: إن اللفظة الواحدة قد يعبر بها عن معان متعددة للدلالة على أشياء مختلفة في العلوم. أي أن المصطلح لا يشترط فيه أن يكون خاصاً بعلم واحد بل قد يستعمل لدلالة جديدة في علم آخر، والحكم في ذلك هو سياق الكلام ونوع العلم الذي يبحث فيه. وهذا ميدان رحب يفتح الطريق أمام العلماء الذين يتحاشون استعمال لفظة لأنها استعملت في معنى آخر أو في علم يختلف عن علمهم. فلفظة: «الرجعة» ـ مثلاً ـ تدل على معانٍ متباينة في العلوم المختلفة وهي في اللغة غيرها في كتب الفقهاء أو المتكلمين أو الكتاب أو المنجمين، وكل واحد من هؤلاء يفهمها عندما ترد في العلم الذي يُعنى به أو يتخصص فيه. وقد يذكر الخوارزمي مصطلحين لشيء واحد، ويتجلى ذلك

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٣.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١٨.
(٣) مفاتيح العلوم ص ٤٦.
(٤) مفاتيح العلوم ص ٨٣.

في اختلاف البصريين والكوفيين في بعض مصطلحات النحو، من ذلك قوله: «الظروف هي التي يسميها أهل الكوفة المحالّ، وهي عند البصريين على نوعين: ظرف زمان وظرف مكان»[1]. ويظهر في اختلاف البقاع ومن ذلك «مال الجوالي، جمع جالية وهم الذين جلوا عن أوطانهم ويسمى في بعض البلدان مال الجماجم وهي جمع جمجمة، وهي الرأس»[2].

لقد سعى الخوارزمي في تأليفه «مفاتيح العلوم» إلى أن يضع الألفاظ ودلالاتها المختلفة في العلوم ليفهم الدارس ما يمرّ به من مصطلحات لا تهتم بها كتب اللغة أو لم تذكرها إطلاقاً، وأحوج الناس إلى معرفة هذه الاصطلاحات «الأديب اللطيف الذي تحقق أن علم اللغة آلة لدرسه الفضيلة لا ينتفع به بذاته ما لم يجعل سبباً إلى تحصيل هذه العلوم الجليلة، ولا يستغني عن علمها طبقات الكتاب لصدق حاجتهم إلى مطالعة فنون العلوم والآداب»[3]، ولذلك:

١ ـ جمع الخوارزمي «أكثر ما يحتاج إليه من هذا النوع متحرياً للإيجاز والاختصار ومتوقياً للتطويل والإكثار».
٢ ـ ألغى «ذكر المشهور والمتعارف بين الجمهور وما هو غامض غريب لا يكاد يخلو إذا ذكر في الكتب من شرح طويل وتفسير كثير».
٣ ـ عُني «بتحصيل الواسطة بين هذين الطرفين إذ كان هو الذي يحتاج إليه دون غيره».
٤ ـ لم يشتغل «بالتفريع المفرط والاشتقاق البارد ولا بإيراد الحجج والشواهد، إذ كان أكثر هذه الأوضاع أساميَ وألقاباً اخترعت وألفاظاً من كلام العجم أعربت».
٥ ـ سمى كتابه «مفاتيح العلوم» إذ كان مدخلاً إليها ومفتاحاً لأكثرها فمن قرأه

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٣٥.
(٢) مفاتيح العلوم ص ٤٠.
(٣) مفاتيح العلوم ص ٣.

وحفظ ما فيه ونظر في كتب الحكمة هذّها هذّاً وأحاط بها علماً وإن لم يكن زاولها ولا جالس أهلها»[1].

منهجـــه:

جعل الخوارزمي كتابه «مفاتيح العلوم» مقالتين:

إحداهما: لعلوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية.

والثانية: لعلوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم.

والخـوارزمي في ذلك فـرّق بين العلوم العربيـة والعلوم الأجنبيـة، فمصطلحات الأولى عربية النجار تدل على علوم عربية تخص الشريعة أو النحو أو البلاغة أو العروض، ومصطلحات الثانية خليط من العربية والأجنبية لأنها تخصّ علوماً عرف العرب معظمها بعد الإسلام فوضعوا لبعضها ألفاظاً وعربوا ما لم يقدروا عليه في أول عهدهم بالترجمة، ثم غيروا كثيراً من المصطلحات وجعلوها عربية. وقد أشار الخوارزمي نفسه إلى هذين اللونين فقال: «إذ كان أكثر هذه الأوضاع أسامي وألقاباً اخترعت وألفاظاً من كلام العجم أعربت» وهو ما ذكره ابن وهب وغيره من السابقين.

والمقالة الأولى من الكتاب في ستة أبواب تضم اثنين وخمسين فصلاً في الفقه والكلام والنحو والكتاب والشعر والأخبار. ومعظم مصطلحات هذه العلوم عربية لأنها تمثل الفكر العربي الإسلامي ففي البابين الأول والثاني لم يذكر من الألفاظ الأجنبية إلا السفساطئيين وقال عنهم: «هم الذين لا يثبّون حقائق الأشياء وهي كلمة يونانية»[2]. أما الألفاظ الأجنبية الأخرى فهي أعلام أو منسوبة إلى أعلام مثل «يَزْدان» خالق الخير بزعم المجوس و«أهرِمَنْ» خالق الشر بزعمهم و«كيومرث» هو الإنسان الأول عندهم و«مشى ومشيانه» هما بمنزلة آدم وحواء زعموا أنهما خلقا من رَيباس نبت من نطفة «كيومَرت»[3].

(١) مفاتيح العلوم ص ٤.

(٢) مفاتيح العلوم ص ٢٦.

(٣) مفاتيح العلوم ص ٢٦.

ولم يذكر الخوارزمي في باب النحو إلا كلمة «غرماطيقي» وقال: «هذه الصناعة تسمى باليونانية غرماطيقي وبالعربية النحو»[1]. ثم ذكر المصطلحات المعروفة في كتب النحو وهي عربية أصيلة. وحينما وصل إلى الباب الرابع أدخل بعض الألفاظ الأجنبية لأن هذا الباب خاص بالكتابة وهي فن تغيرت دلالته بعد الإسلام وأصبح ذا صلة ببعض الطارئين على العرب. ومن الألفاظ التي ذكرها في هذا الباب:

١ ـ الخراج: «وهي كلمة يونانية معربة».
٢ ـ الأوارج: «إعراب «أوارة» ومعناها بالأعجمية: المنقول لأنه ينقل إليه من القانون ما على إنسان إنسان ويثبت فيه ما يؤديه دفعة بعد أخرى إلى أن يستوفي ما عليه».
٣ ـ الرُّزنامج: «تفسيره كتاب اليوم لأنه يكتب فيه ما يجري كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك».
٤ ـ التأريج: «قيل لفظة أعجمية ومعناه النظام لأنه كسواد يعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جملها».
٥ ـ الفهرست: «ذكر الأعمال والدفاتر تكون في الديوان، وقد يكون لسائر الأشياء».
٦ ـ الدستور: «نسخة الجماعة المنقولة من السواد».
٧ ـ الإنجيذج: «تفسيره الملفوظ، لفظة أعجمية معربة».
٨ ـ الأوشنج: «تفسيره المطوي والمجموع، لفظة أعجمية معربة أيضاً».
٩ ـ الدُّرُوزَن: «ذكر الماسح وسواده الذي يثبت فيه مقادير ما يمسحه من الأرضين».
١٠ ـ الجزاء: «رؤوس أهل الذمة، جمع جزية وهو معرّب كَزيت، وهو الخراج بالأعجمية».
١١ ـ التخمين: «الخرص للخضر مشتق من خمانا وهو بالأعجمية لفظ شك وظن».

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٢٩.

١٢ ـ البريد: «كلمة أعجمية وأصلها بُريدة ذنب، أي محذوف الذنب، وذلك أن يقال البريد محذوفة الأذناب فعربت الكلمة وخففت».
١٣ ـ الغرانق: «الحامل للخرائط ويقال خادم بالأعجمية: پروانه».
١٤ ـ الأسكُدار: «مدرج يكتب فيه جوامع الكتب المنضدة للختم» وهو «لفظة أعجمية وتفسيره أذكوداري أي: من أين تمسك؟ وهو مدرج يكتب فيه عدد الخرائط والكتب الواردة والنافذة وأسامي أربابها».
١٥ ـ الكستبزود: «معرب من كاست وفزود أي النقصان والزيادة، وهو الديوان الذي يحفظ فيه خراج كل من أرباب المياه وما يزيد فيه وينقص ويتحول من اسم إلى اسم».
١٦ ـ البست: «قياس تصالح عليه أهل مرو، وهو مخرج للماء من ثقب طوله شعيرة وعرضه شعيرة».
١٧ ـ الفنكال: «هو عشرة أبست».
١٨ ـ الكوالجة: «مجرى يقطع فوق مقسم الماء إلى أرض ما».
١٩ ـ البزَند: «هو البستان».
٢٠ ـ الشاذروان: «أساس يوثّق حوالي القناطر ونحوها».
٢١ ـ التأريخ: «على ما روي كلمة أعجمية أصلها «ماء روز» فأعربت. وهذا اشتقاق بعيد إلا أن الرواية جاءت به»[١].

والألفاظ الأعجمية التي جاءت في هذا الباب ليست كثيرة على الرغم من أن الموضوع يتصل بألفاظ حضارية طرأت بعد الإسلام.

ولم ترد في الباب الخامس ألفاظ أعجمية لأنه في العروض والقوافي وبعض فنون البلاغة، وقد وضع العرب لها مصطلحات أصيلة، ولكي يوضح الخوارزمي أصالتها عقد فصلاً للكلام على اشتقاقاتها ومواضعاتها فقال مثلاً: «الأثرم: المنكسر الثنية، الحوض الأثرم: الذي فيه ثلمة. الأقصم: المنكسر السن من نصفها»[٢].

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٣٧، ٣٩، ٤٠ ـ ٤٢، ٤٥ ـ ٤٦، ٥٠.
(٢) مفاتيح العلوم ص ٥٩.

وذكر في الفصل الأول من الباب السادس أسماء الملوك وألقابهم بالأعجمية وذكر معانيها بالعربية من ذلك قوله: «كيومرت: ولقبه كلشاه أي ملك الطين لأن عندهم هو الإنسان الأول فكأنه لم يملك إلا الأرض. ثم أوشهنك ولقبه بيشداد ومعناه أول عادل. ثم طهمورث ولقبه النجيب ويقال له زيناوند ومعناه شاكي السلاح لأنه أول من عمل السلاح. ثم جم ولقبه شيد أي النيّر، ومن ذلك يقال لضوء الشمس «خورشيد» لأن الشمس خور»[1].

ولم ترد في الفصل الثاني لفظة أو لقب أجنبي لأنه في ذكر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين. وكان الفصل الثالث في ملوك اليمن وألقابهم، والرابع في ذكر مَنْ ملك معداً من اليمانيين في الجاهلية، ولم يذكر الخوارزمي أسماء ملوك العرب من آل جفنة إذ ليس لهم نعوت ولا ألقاب[2]. وجاءت في الفصل الخامس أعلام أجنبية وهي لملوك الروم، ولم تذكر أسامي الذين كانوا بعد البطالسة إذ ليس لهم ألقاب ولا نعوت معروفة[3]. وفي الفصل السادس ألفاظ يكثر جريها في أخبار العجم، وفي السابع ألفاظ يكثر ذكرها في الفتوح والمغازي وأخبار عرب الإسلام، وفيه أيضاً أسماء وألقاب أعجمية قليلة. وجاءت في الفصل الثامن ألفاظ يكثر ذكرها في أخبار العرب وأيامها في الجاهلية وليس فيها لفظ دخيل. وذكرت في الفصل التاسع ألفاظ يكثر ذكرها في أخبار الروم.

ويتضح مما تقدم أنَّ الألفاظ الأجنبية قليلة في المقالة الأولى؛ لأن معظم ما جاء فيها يخص العرب وعلومهم وأخبارهم وأيامهم، ولكن الألفاظ الدخيلة تكثر في المقالة الثانية لأنها في العلوم التي استحدثت في العربية بعد الإسلام وهي: الفلسفة والمنطق والطب والحساب والهندسة والفلك والموسيقى والحيل والكيمياء. ففي الباب الأول وهو في الفلسفة ذكر:

١ ـ الفلسفة: وهي «مشتقة من كلمة يونانية هي «فيلاسوفيا» وتفسيرها محبة

(١) مفاتيح العلوم ص ٦٣.
(٢) مفاتيح العلوم ص ٦٩.
(٣) مفاتيح العلوم ص ٧٠.

الحكمة فلما أعربت قيل: «فيلسوف» ثم اشتقت الفلسفة منه. ومعنى الفلسفة: علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح».

٢ ـ الأرثماطيقي: «وهو علم العدد والحساب».

٣ ـ الجومطريا: «وهو علم الهندسة».

٤ ـ الأسطرتوميا: «وهو علم النجوم».

٥ ـ الموسيقى: «وهو علم اللحون».

٦ ـ الهيولى: «العقل الهيولاني هو القوة في الإنسان، وهي في النفس بمنزلة القوة الناظرة في العين والعقل الفعال لها بمنزلة ضوء الشمس للبصر فإذا أخرجت هذه القوة التي هي العقل الهيولاني إلى الفعل تسمى العقل المستفاد». والهيولى «يسمى المادة والعنصر والطينة».

٧ ـ الأسطقسّ: «هو الشيء البسيط الذي منه يتركب المركب كالحجارة والقراميد والجذوع التي منها يتركب القصر، وكالحروف التي منها يتركب الكلام، وكالواحد الذي منه يتركب العدد. وقد يسمى الأسطقسّ الركن، والأسطقسّات الأربعة هي: النار والهواء والماء والأرض وتسمى العناصر».

٨ ـ فنطاسيا: «هي القوة المخيلة من قوة النفس وهي التي يتصور بها المحسوسات في الوهم وإن كانت غائبة عن الحسّ وتسمى القوة المتصورة والمصوّرة»[1].

وألفاظ هذا الباب الأجنبية يونانية لأنها تتصل بالفلسفة التي ترجمها العرب والمسلمون عن اليونان، ومثل ذلك أسماء فصول المنطق التسعة وهي:

١ ـ إيساغوجي: «هذا العلم يسمى باليونانية لوغيا وبالسريانية مليلوثا وبالعربية المنطق. إيسغوجي: هو المدخل يسمى باليونانية إيسغوجي».

٢ ـ قاطيغورياس: «ومعنى قاطيغورياس باليونانية يقع على المقولات والمقولات عشر وتسمى القاطاغوريات».

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣.

٣ - باري أرمينياس: «ومعناه يدل على التفسير فيما يذكر فيه الاسم والكلمة والرباطات».

٤ - أنولوطيقا: «ومعناه العكس لأنه يذكر فيه قلب المقدمات وما ينعكس منها وما لا ينعكس».

٥ - أخودقطيقي: «ومعناه الإيضاح، وذلك أنه يوضح فيه القياس الصحيح وغير الصحيح».

٦ - طوبيقي: «ومعناه المواضع أي مواضع القول يذكر فيه الجدل».

٧ - سوفسطيقي: «ومعناه التحكم، والسوفسطائي هو المتحكم، يذكر فيه وجوه المغالطات وكيف التحرز منها، والسفسطائيون هم الذين لا يثبتون حقائق الأشياء».

٨ - ريطوريقي: «ومعناه الخطابة يتكلم فيه على الأشياء المقنعة».

٩ - بيوطيقي: «ومعناه الشعر يتكلم فيه على التخييل»[١].

وليس في هذا الباب من الألفاظ اليونانية إلّا أسماء الفصول وهي في الأساس أسماء كتب في المنطق عرفها العرب إبان عهد نهضتهم وترجمتهم للفكر اليوناني في العصر العباسي. وكانت الألفاظ والمصطلحات التي ذكرها الخوارزمي في هذه الفصول عربية، وهذا يدل على أن العرب استطاعوا بعد زمن ليس بالطويل أن يعدلوا كثيراً من المصطلحات الأجنبية أو أن يغيروها ويضعوا لها ألفاظاً من لغتهم الفصيحة.

ولم يذكر الخوارزمي في الفصل الأول من الباب الثالث وهو في التشريح إلا لفظتين أجنبيتين هما:

١ - الباسليق: «وهو في اليد عند المرفق في الجانب الأنسي إلى ما يلي الإبط».

٢ - القيفال: «عند المرفق أيضاً في الجانب الوحشي».

وقال عنهما: «وأما الباسليق والقيفال فمعربان»[٢]، وقال عن القولون:

(١) مفاتيح العلوم ص ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢.
(٢) مفاتيح العلوم ص ٩٣.

«وهو المعى الذي يحدث فيه القولنج ومنه اشتق»[1] ولم يذكر جنسه، وقال: «القولنج: اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون»[2]. وذكر الثعالبي هذه العبارة وقال: «القولنج: اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون بالرومية»[3].

وذكر الخوارزمي في فصل الأمراض والأدواء لفظتين هما:

١ ـ البرسام: «حمى دائمة مع صداع وثقل في الرأس والعين وحمرة فيها شديدة وكراهية الضوء».

٢ ـ المالنخوليا: «ضرب من الجنون وهو أن تحدث للإنسان أفكار رديئة ويغلبه الحزن والخوف وربما صرخ ونطق الأفكار الرديـة وخلط في كلامه»[4].

وكانت الألفاظ الأخرى عربية، أما في فصل الأغذية فقد ذكرت هذه الألفاظ الأعجمية:

١ ـ النشا: «هو النشاستـج حذف شطره تخفيفاً كما قيل للمنازل: المنا».

٢ ـ البيض النيمبرشت: «لفظة أعجمية وهو الذي سخن حتى خثر ولما يتم نضجه، وهو يسمى الرعّاد أيضاً».

٣ ـ الملبّق: «الفراريج أعجمية معربة جمع فروج».

٤ ـ البَهَطة: «كلمة سندية وهو الأرز يطبخ باللبن والسمن».

٥ ـ الكشك: «الحنطة والشعير ما هرس هرساً بالمهراس أي دقَّ حتى ينسلخ قشره».

٦ ـ الطَلَخْشقوق: «هو اليعضيد».

٧ ـ الإمبرباريس: «وهو الزِرِشك بالأعجمية ويقال له: الزرت والزرك».

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٩٤.

(٢) مفاتيح العلوم ص ٩٨.

(٣) فقه اللغة ص ١٢٧، وينظر شفاء الغليل ص ٢٠٦.

(٤) مفاتيح العلوم ص ٩٦.

٨ ـ الرواصير: «جمع ريصار وهو الريجار معرب الهليون، قال الخليل هو نبات يشبه الحاج في أول ما يبدو، ويؤكل بالزيت ويستعان به على الباه»[١].

وجاءت في فصل الأدوية المفردة هذه الألفاظ:

١ ـ الأقاقيا: «هي عصارة القرظ».
٢ ـ الأصطرك: «هي صمغ الزيتون».
٣ ـ دار شيشغان: «هو أصل السنبل الهندي».
٤ ـ مرارت فيلا: «بالسريانية مرارت» وهو فيل زهرج.
٥ ـ طاليسفر: «قشرة تجلب من بلاد الهند».
٦ ـ الكاكنج: «هو عنب الثعلب الأحمر الثمر».
٧ ـ نارمشك: «فقّاح شجرة تسمى ناماشير».
٨ ـ سنجسبويه: «هو بذر السبستان».
٩ ـ السقمونيا: «لبن شجرة يسيل منها».
١٠ ـ سيلاسيساليوس: «هو الأنجذان الرومي».
١١ ـ فلفلمويه: «هو أصل الفلفل، والدار فلفل هو ثمرته أول ما يطلع ثم الفلفل الأبيض ما لم ينضج منه والأسود ما نضج».
١٢ ـ القردَمانا: «هو كرويا رومي».
١٣ ـ إقليميا: «المعروف قليميا يعمل من دخان النحاس ودخان حجارة الفضة».
١٤ ـ ثغسيا: «هو صمغ السذاب».
١٥ ـ الجنطيانا: «أصل السنبل الرومي».
١٦ ـ الجندبيدستر: «خصّ حيوان في البحر وهو الخزميان أيضاً»[٢].

وكانت الأسماء في فصل «أدوية مشتبهة الأسماء» عربية ما عدا كلمة

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٠٠.

(٢) مفاتيح العلوم ص ١٠٠، ١٠٢.

«مرماخور» وهو حي العالم[1]. وذكر الخوارزمي لبعضها أسماء أعجمية وذكر في فصل الأدوية المركبة:

١ - الترياق: «مشتق من تيريون باليونانية وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعي ونحوها ويقال لها بالعربية أيضاً: الدرياق».
٢ - جنطيانا: هو أحد أخلاط الترياق الأربعة.
٣ - زراوند: هو أحذ أخلاط الترياق الأربعة.
٤ - الأيارجات.
٥ - اطريفل: «هو بالهندية «تري أبهل» أي ثلاثة أخلاط وهي: اهليلج أصفر وبليلج وأملج».
٦ - الجوارشنات.
٧ - الانبجات: وهي المربيات.
٨ - الميبه: «يركب من رب السفرجل ومن الخمر، وكذلك اسمه مركب من اسميهما».
٩ - الجلنجبين: «تفسيره الورد والعسل».
١٠ - السكنجبين: «هو المركب من الخل والعسل ثم يسمى بهذا الاسم وإن كان مكان العسل سكر ومكان الخل ربّ السفرجل أو غيره».
١١ - الفرزجات.
١٢ - الشيافات: «الحمولات»[2].

وذكر في فصل أوزان الأطباء ومكاييلهم:

١ - إيطاليقوس: «هو ثماني عشرة أوقية».
٢ - قوطيل: «اثنان وسبعون مثقالاً».
٣ - ططرطين: «وزن أربع نويات».
٤ - درخمى: «اثنتان وسبعون شعيرة».
٥ - جاما الكبير: «ثلاثة مثاقيل».

(١) مفاتيح العلوم ص ١٠٣.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١٠٣، ١٠٤.

٦ ـ جاما الصغير: «مثقالان».
٧ ـ قليخيون: «مثقال ونصف».
٨ ـ اسكرجه: «صغيرة ثلاث أواق».
٩ ـ اسكرجه: «كبيرة تسع أواق».
١٠ ـ طالنطون: «وزن مائة وخمسة وعشرين رطلاً بالرطل الذي هو اثنا عشرة أوقية».
١١ ـ طولون: «تسع أواق ويسمى قوطول واسكرجه كبيرة»[١].

وذكر في فصل النوادر ثلاثة ألفاظ:

١ ـ الكيموس: «المادة، يقال هذا الطعام يولد كيموساً رديئاً أو جيداً، يعني به ما يولده في البدن من الغذاء».
٢ ـ الكيلوس: «يسمى به الطعام والشراب إذا امتزجا في المعدة فصار كماء الشعير».
٣ ـ البحران: «حالة تحدث للعليل دفعة استفراغاً وتغيراً عظيماً ويكون هذا في الأمراض الحادة أكثر، أعني بالأمراض الحادة الحميات المحرقة والمطبقة. وينتقل المريض من البحران إلى صلاح وربما انتقل إلى ما هو أشد منه. وهذه كلمة سريانية والأطباء يقولون: «هذا يوم باحورى» إذا نسبوه إلى البحران، ولا يكادون يقولون: بحراني»[٢].

وليس في الباب الرابع وهو باب الحساب لفظة أعجمية سوى عنوانه «الأرثماطيقي»[٣] فقد وضع العرب مصطلحات أصيلة لما عرفوا من موضوعات هذا العلم في العصر العباسي وما قبله.

وجاءت في الباب الخامس وهو باب الهندسة هذه الألفاظ:

١ ـ جومطريا: «وهي صناعة المساحة».

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٠٥.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣) مفاتيح العلوم ص ١٠٧.

٢ ـ الهندسة: «وأما الهندسة فكلمة أعجمية معربة أي المقادير. قال الخليل: «المهندس الذي يقدر مجاري القني ومواضعها حيث تحتفر، وهو مشتق من الهندزة وهي أعجمية فصيرت الزاي سيناً في الإعراب لأنه ليس بعد الدال زاي في كلام العرب». وقال بعضهم: هي إعراب «أنديشه» أي الفكرة وليس ذلك بصحيح فإن في بعض كلام العجم: «اندازه با اختر ماري با يد» أي: الهندسة يحتاج إليها مع أحكام النجوم. وقد يقع هذا الاسم على تقدير المياه كما قال الخليل لأنه نوع من هذه الصناعة وجزء لها»[1].

٣ ـ الأسطقسّ: هو العنصر.

وجاءت في الباب السادس وهو في علم النجوم أسماء الكواكب السيارة بالأعجمية والعربية، وذكرت بعض الألفاظ الأعجمية وهي:

١ ـ قيفاوس: «ويسمى الأثاقي».
٢ ـ بؤرطيس: «الحارس».
٣ ـ اللورا: «غير معجمة الراء معناه باليونانية الصنج لضوئه، وتسميه العرب «النسر الواقع» ويسمى أيضاً «السلحفاة».
٤ ـ الدلفين: «ويسمى الصليب، سمي «دلفين» تشبيهاً بالسمك البحري الذي ينجي الغرقى».
٥ ـ أنيخس: «وهي حامل العناق».
٦ ـ قيطس: «وهو سبع البحر».
٧ ـ قنطورس: «وهو حامل السبع وهو الظليم».
٨ ـ الزيج: «كتاب منه يحسب سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم أعني حساب الكواكب لسنة سنة، وهو بالأعجمية «ذِه» أي الوتر، ثم أعرب فقيل: «الزيج» وجمعه «زيجة» على مثال: قرد وقردة».
٩ ـ الزائجة: «هي صورة مربعة أو مدوّرة تعمل لمواضع الكواكب في الفلك لينظر فيها عند الحكم لمولد أو غيره. واشتقاقه بالأعجمية من

(١) مفاتيح العلوم ص ١١٧ ـ ١١٨.

زائش أي المولد ثم أعربت الكلمة فاستعملت في المولد وغيره».

١٠ - الجوزهر: «هو النقطتان اللتان تتقاطع عليهما الدائرتان من الأفلاك تسميان العقدتين. والجوزهر: كلمة أعجمية وهي «كوزجهر» أي صورة الجوز وقيل: «كوي جهر» أي صورة الكرة والأول أصح. ويسمى أيضاً «التنين» وهذه صورته في الأصل وإحدى العقدتين تسمى الرأس والأخرى الذنب، وهذا في كل فلكين يتقاطعان، فإذا أطلق له هذا الاسم أعني به «جوزهر» القمر خاصة وهذا الذي يثبت حسابه في التقويم».

١١ - الأوج: «هو أرفع موضع من الفلك الخارج المركز، أعني أبعده من الأرض، وهي كلمة أعجمية وهي «أوك» وقيل «أورة».

١٢ - الأفيجيون: «هو الأوج باليونانية».

١٣ - الأفريجيون: «هو الحضيض».

١٤ - البركسيس: «هو اختلاف المنظر، لفظة يونانية. ومعنى اختلاف المنظر: اختلاف الموضع الذي يرى فيه الكواكب إذا نظر إليه من مركز الأرض والموضع الذي يرى فيه إذا نظر إليه من حدبة الأرض».

١٥ - البهت المعدل: «هو سير الكواكب المعدل ليوم وليلة».

١٦ - النهندر: «هو ما يبقى من سير الكوكب ليوم وليلة إذا ألقي في مسير الشمس ليوم وليلة أو ألقى مسيرها من مسيره، وسمي أيضاً حصة المسير».

١٧ - الكبيسة: «الكبيسة في تأريخ اليونانيين معناها أن سنتهم ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم بالتقريب، فإذا مضت أربع سنين انجبرت الأرباع فصارت يوماً واحداً وصارت أيام السنة ثلثمائة وستة وستين يوماً، وتسمى تلك السنة الكبيسة، واللفظة سريانية معربة».

١٨ - الكردجة: «كلمة أعجمية معناها القطعة ويسمى بها بعض الجداول «كردجات» تشبيهاً بقطاع الأرضين».

١٩ - الدريجان.

٢٠ - الدهج: «الوجه والصورة، والدريجان والدهج معناها كل عشر درجات

من كل برج ويكون لكل وجه صاحب من الكواكب السبعة. وبين الروم والهند والفرس اختلاف في أربابها».

٢١ ـ النهبهر: «هو تسع البروج، وهو بالهندية نوبهر».

٢٢ ـ الوبال: «هو البرج المقابل للبيت وهو «البيطارج» معرب من «بتياره» وهو البرج السابع من كل بيت».

٢٣ ـ البطيارج: «معرب من «بتياره»، وهو البرج السابع من كل بيت».

٢٤ ـ الكنار روزي: «الذي يرى بالعشاء»، واللفظة أعجمية.

٢٥ ـ الكنارشي: «الذي يرى صباحاً» واللفظة أعجمية.

٢٦ ـ الهيلاج: «أحد الهيالج الخمسة وهي: الشمس والقمر والطالع وسهم السعادة وجزء الاجتماع أو الاستقبال. وهي أدلة العمر وذلك أنها تسير إلى السعود والنحوس». وقيل: «هيلاج بالأعجمية امرأة الرجل و «كدخداه» هو الزوج ومعناه رب البيت لأن «كده» هو البيت و «خداه» هو الرب».

٢٧ ـ الفردار: «قسمة العمر بين الكواكب السبعة لكل كوكب منها سنون معلومة يقال لها: سنو الفردار».

٢٨ ـ الجان بختان: «معناه قاسم الروح، وذلك أن درجة الطالع تسير إلى السعود والنحوس، فصاحب الحد الذي يبلغه التسيير يسمى «قاسم الحياة».

٢٩ ـ الجان بختان البرماهي: «هو الامتلاء، وهو أن يصير بدراً وهو الاستقبال لأنه يقابل الشمس حينئذ».

٣٠ ـ النيمبري: «هو نصف الامتلاء وذلك في الليلة السابعة وفي الليلة الحادية والعشرين».

٣١ ـ الاصطرلاب: «معناه مقياس النجوم، وهو باليونانية اصطرلابون واصطر هو النجم ولابون هو المرآة، ومن ذلك قيل لعلم النجوم «اصطرنوميا» وقد يهذي بعض المولعين بالاشتقاقات في هذا الاسم بما لا معنى له وهو أنهم يزعمون أن «لاب» اسم رجل و «أسطر» جمع سطر وهو الخط، وهذا اسم يوناني اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف.

٣٢ ـ الطرجهارة: «آلات الساعات كثيرة فمنها الطرجهارة»[1].

وجاءت في الباب السابع وهو في الموسيقى هذه الألفاظ:

١ ـ الموسيقى: «معناه تأليف الألحان، واللفظة يونانية، وسمي المطرب ومؤلف الألحان: الموسيقور والموسيقار».

٢ ـ الأرغانون: «آلة لليونانيين والروم تعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها إلى بعض ويركب على رأس الزق الأوسط زق كبير ثم يركب على هذا الزق أنابيب صفر لها ثقب على نسب معلومة يخرج منها أصوات طيبة مطربة مشجية على ما يريد المستعمل».

٣ ـ الشلياق: «آلة ذات أوتار لليونانيين والروم تشبه الجنك».

٤ ـ الجنك: «هو الصنج» وهو «ذو الأوتار».

٥ ـ اللور: «هو الصنج باليونانية».

٦ ـ القيثارة: «آلة لهم تشبه الطنبور».

٧ ـ الطنبور.

٨ ـ المستق: «آلة للصين تعمل من أنابيب مركبة واسمها بالأعجمية «بيشه مشته»».

٩ ـ الناي: المزمار.

١٠ ـ السرناي: «هو الصفارة».

١١ ـ الونج: «الصنج بالأعجمية جنك وهو ذو الأوتار، قال الخليل: الصنج عند العرب هو الذي يكون في الدفوف يسمع له صوت كالجلجل، فأما ذو الأوتار فهو دخيل معرب وقيل: ذو الأوتار إنما هو الونج».

١٢ ـ الشهروذ: «آلة محدثة أبدعها حكيم بن أحوص السغدي ببغداد في سنة ثلثمائة للهجرة».

١٣ ـ البربط: «هو العود والكلمة أعجمية وهي «بربت» أي صدر البط؛ لأن صورته تشبه صدر البط وعنقه».

١٤ ـ البم: هو أغلظ أوتار العود.

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٦.

١٥ ـ الذير: هو أدق أوتار العود.

١٦ ـ الدساتين: «هي الرباطات التي توضع الأصابع عليها واحدها «دستان» والدستان أيضاً اسم لكل لحن من الألحان المنسوبة إلى باربد. وأسامي دساتين العود تنسب إلى الأصابع التي توضع عليها»[1].

وجاءت في الباب الثامن وهو في الحيل هذه الألفاظ:

١ ـ البرطيس: «وهو فلكة كبيرة يكون في داخلها محور تجرّ بها الأثقال وتفسيرها باليونانية المحيطة».

٢ ـ البيرم: «أحد أصناف المخل ويقال: «البارم» والمخل لفظة يونانية. والبارم أعجمية».

٣ ـ أبو مخليون: «حجر يوضع تحت هذا المخل فيسهل به تحريك الثقل».

٤ ـ غالاغرا: «معصرة للزياتين».

٥ ـ أسقاطولى: «خشبة مربعة تستعمل في هذه الآلات».

٦ ـ الاسطام: «حديدة تكون في طرف السهم حيث يعلق حجر الرمي».

٧ ـ الجاورس.

٨ ـ البثيون: «هو البزال الذي يعمل من أنبوبة تثقب ثقباً وتركب في الثقب أنبوبة أخرى منتصبة تدار فيه للفتح والسد».

٩ ـ النرمادجات.

١٠ ـ المي دزد: «معناه بالأعجمية سارق الشراب وهو إناء يعمل فيملأ شراباً ثم ينكس فلا ينصب منه درهم فيوهم الشارب أنه قد استوفى ما فيه. ويسمى «جام الجور» كما يسمى ضده «جام العدل» لأن ذلك إذا زيد فيه شيء فوق المقدار انصب ما فيه كله».

١١ ـ المهندم: «لفظة معربة مشتقة من «هَندام» وهو أن يلتصق الشيء بآخر فلا يمكن تحريكه من غير أن يلصق أو يلحم بلحام».

١٢ ـ التخاتج: «جمع التختجة وهي الألواح معربة «تخته».

١٣ ـ المليار والمنيار: «إناء كبير يسخن فيه الماء».

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٣٦، ١٣٧.

١٤ ـ سرن الرحى: «الدوّارة التي يضربها الماء فتدور».
١٥ ـ بركار السرن: «أجنحته، لفظة أعجمية معربة».
١٦ ـ الكونيا: «للنجارين يقدرون بها الزاوية القائمة»[١].

وقال الخوارزمي في الباب التاسع وهو في الكيمياء: «اسم هذه الصناعة الكيمياء وهو عربي، واشتقاقه من كمى يكمي إذا ستر وأخفى، ويقال: «كمى الشهادة يكميها إذا كتمها». والمحققون لهذه الصناعة يسمونها الحكمة على الإطلاق وبعضهم يسميها الصنعة»[٢]. وذكر بعض الألفاظ الأعجمية وهي:

١ ـ البوطق: «آلة للتذويب».
٢ ـ الماشق: «آلة للتذويب».
٣ ـ الراط: «هو الذي يفرغ فيه الجسد المذاب من فضة أو ذهب أو غيرهما ويسمى المسبكة وهي من حديد كأنها شق قصبة».
٤ ـ بوط أبربوط: «وهي بوطقة مثقوبة من أسفلها».
٥ ـ بوطقة: هي البوتقة.
٦ ـ الانبيق: آلة صناع ماء الورد.
٧ ـ الطابستان: كانون.
٨ ـ النطرون: صنف من البورق.
٩ ـ الزراوندي: صنف من البورق.
١٠ ـ التنكار: صنف من البورق.
١١ ـ قلقندون: صنف من البورق.
١٢ ـ المارقشيثا: نوع من عقاقير أهل الكيمياء.
١٣ ـ المغنيسيا: من عقاقيرهم، وهي أنواع.
١٤ ـ التوتيا: من عقاقيرهم، والتوتيا: «دخان النحاس ودخان الكحل».
١٥ ـ الدهنج: «وهو حجر أخضر يتخذ منه الفصوص والخرز».
١٦ ـ الفيروزج: هو كالدهنج «إلا أنه أقل خضرة».

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١٤٦.

١٧ ـ اللازورد: «وهو حجر فيه عيون برّاقة يتخذ منه خرز».
١٨ ـ الجمست: «وهو حجر أبيض جبلي».
١٩ ـ المسحقونيا: «وهو شيء يسيل من الزجاج وهو ملح أبيض صلب ذائب قوي».
٢٠ ـ الراتينج: «وهو صمغ الصنوبر».
٢١ ـ المغناطيس: «وهو الحجر الذي يجذب الحديد».
٢٢ ـ الإسرنج: «اسرّب يحرق ويشبّ عليه النار حتى يحمرّ».
٢٣ ـ المرداسنج: «هو أن يلقى أسرّب في حفرة ويطعم آجراً مدقوقاً ورماداً ويشدد النفخ عليه حتى يجمد فيصير مردا سنجا».
٢٤ ـ القليميا: «خبث كل جسد يخلص».
٢٥ ـ الأسفيداج: «يتخذ من صفائح الرصاص بالخل نحو ما يعمل بالزنجار»[١].

لقد بذل الخوارزمي جهداً كبيراً في تصنيف علوم عصره وهو القرن الرابع للهجرة وذكر كثيراً من المصطلحات التي كانت معروفة في ذلك العهد. وقد اتضح أن معظم تلك المصطلحات عربية إذ شهد القرن الرابع تحوّلاً في وضعها، فبعد أن كان المصطلح الأعجمي يشيع في العلوم أخذ اللسان العربي يتسرب إلى الدراسات العلمية ويطبعها بطابعه. ويرجع ذلك إلى أن المترجمين في عصر الخوارزمي كانوا أكثر قدرة من سابقيهم على وضع المصطلح العربي الأصيل. ومن أوضح ما يظهر في كتاب «مفاتيح العلوم» مسألتان:

الأولى: أن جميع مصطلحات الفقه وعلوم العربية أصيلة لأنها انبثقت من الفكر العربي بعد الإسلام، وكانت المصطلحات تظهر مع ظهور العلم وتتطور بتطوره وتتقدم بتقدمه.

الثانية: أن معظم مصطلحات العلوم الجديدة التي سماها الخوارزمي «علوم العجم» عربية، فقد استطاع المترجمون والمؤلفون في المرحلة الثانية

(١) مفاتيح العلوم ص ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩.

من عهد الترجمة والتأليف أن يضعوا مصطلحات عربية تحلّ محل القديمة أو تدل على العلم الجديد الذي بدأ يزهر في ظل الحضارة العربية الإسلامية، وبذلك أثبتت اللغة العربية قدرتها على العطاء واحتضانها للعلوم الأصيلة والدخيلة.

أسســـه:

تتضح في كتاب «مفاتيح العلوم» أسس سار عليها الخوارزمي وإن لم يشر إليها وهي:

١ ـ أن الخوارزمي كان لا يذكر إلا المشهور من المصطلحات ولذلك أهمل ما ترك استعماله، ومن ذلك بعض مصطلحات ابن المقفع في المنطق قال: «ويسمي عبد الله بن المقفع الجوهر عيناً وكذلك سمى عـامة المقولات وسائر ما يذكر في فصول هذا الباب بأسماء اطرحها أهل الصناعة فتركتُ ذكرها وبيَّنْتُ ما هو مشهور فيما بينهم»[١].

٢ ـ أنه كان يُعنى بشرح كل مصطلح أو لفظ شرحاً موجزاً يدل عليه ومن ذلك قوله: «الاستنثار: استنشاق الماء ثم إخراجه بتنفس الأنف وهو من النثرة وهي للدواب شبه العطسة للإنسان»[٢]. وقوله: «ومن الألفاظ المستعملة في ديوان الرسائل «الإنشاء» وهو عمل نسخة يعملها الكاتب فتعرض على صاحب الديوان ليزيد فيها أو ينقص منها أو يقرها على حالها ويأمر بتحريرها. والتحرير: كأنه الإعتاق وهو نقل الكتاب من سواد النسخة إلى بياض نقي»[٣]. وقوله: «محور الكرة: قطرها الذي تتحرك عليه الكرة وهو ثابت»[٤].

٣ ـ أنه كان يضبط المصطلح أو اللفظ بثلاث طرق:

الأولى: ذكر بناء لفظة أخرى يقاس عليها مثل: «الرقة» وهي على بناء

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٨٦.
(٢) مفاتيح العلوم ص ٨.
(٣) مفاتيح العلوم ص ٥٠.
(٤) مفاتيح العلوم ص ١٢١.

الصفة[1]. و«الأطرية» وهي «على وزن الأكسية»[2] و«الدبران» وهي «على وزن سرطان وضربان»[3]. أو يذكر وزنه مثل: «ألية» وهي «على مثال فعيلة»[4].

الثانية: ذكر الحركات كأن يقول: «فأما الوَرَق - بفتح الراء - فهو المال من دراهم أو إبل أو غير ذلك»[5] و«المرار - بفتح الميم - جنس من الحبال وجمعه أمِرَّة»[6] و«الخلف - بفتح الخاء - هو الرديء من القول المخالف بعضه بعضاً»[7]. و«عرق النَّسا - بفتح النون مقصور - قبالة الصفن في الجانب الوحشي»[8]. ثم «عرق النسا - مفتوح مقصور - وجع يمتد من لدن الورك إلى الفخذ كله من مكان منه في الطول وربما بلغ الساق والقدم ممتداً»[9]. و«السَلّعة - بفتح السين وتسكين اللام - زيادة تحدث في الجسد تتحرك إذا حركت بلا ألم مثل حمصة إلى بطيخة»[10].

الثالثة: ذكر نوع الحرف مثل: «الشغار - معجمة الغين - مثل أن يزوج الرجل ابنته من آخر على أن يزوجه هو من غير مهر»[11]. و«الغرب - بالغين معجمة - ما يسقى بالدلو»[12]. و«اللورا - غير معجمة الراء - معناه باليونانية الصنج»[13]. و«الغميصاء - معجمة الغين غير معجمة الصاد -

---

(1) مفاتيح العلوم ص ٩.
(2) مفاتيح العلوم ص ٩٩.
(3) مفاتيح العلوم ص ١٢٤.
(4) مفاتيح العلوم ص ١٤.
(5) مفاتيح العلوم ص ٩.
(6) مفاتيح العلوم ص ٤٥.
(7) مفاتيح العلوم ص ٩١.
(8) مفاتيح العلوم ص ٩٣.
(9) مفاتيح العلوم ص ٩٨.
(10) مفاتيح العلوم ص ٩٥.
(11) مفاتيح العلوم ص ١٣.
(12) مفاتيح العلوم ص ٤٦.
(13) مفاتيح العلوم ص ١٢٣.

اشتقت من غمص العين وهو ما يجتمع في مآقيها عند النوم»[1]. و«الشرطان ـ وهي معجمة الشين ـ وهي تثنية الشرط»[2]. و«الفرغان ـ بإعجام الغين ـ المقدم والمؤخر»[3].

٤ ـ أنه يذكر جمع المصطلح أو اللفظة فيقول مثلاً في «الرقة»: «وتجمع الرقة على رقين مثل عضين وعزين»[4]. و«البدنة: الناقة والبقرة تهدى إلى البيت وجمعها «بُدْن» مثل خشبة وخُشْب»[5]. و«القَرْء عند أصحاب الرأي الحيض، وعند أصحاب الحديث الطهر من الحيض وجمعه أقراء وقُروء»[6]. و«التلجئة: أن يلجىء الضعيف ضيعة إلى قوي ليحامي عليها وجمعها الملاجىء والتلاجىء»[7]. و«العربة: طاحونة تنصب في سفينة وجمعها «عَرَب»»[8]. و«السرية: هم النفر يبعثون ليلاً للتنافر بالبيات، اشتقت من السرى، والجمع السرايا. الساربة: النفر الذين يبعثون نهاراً وجمعها سوارب»[9].

٥ ـ أنه يذكر مفرد اللفظة فيقول مثلاً عن «شعائر الله»: «واحدتها شعيرة وهي العلامة»[10]. و«التجمير: رمي الجمار وهي الحصى واحدها جمرة وبها سميت جمرة العقبة»[11]. و«الأطماع: تسمى الرزقات في ديوان العراق واحدتها رَزقة ـ بفتح الراء ـ لأنها المرّة الواحدة من الرزق»[12].

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٢٤.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١٢٤.
(٣) مفاتيح العلوم ص ١٢٤.
(٤) مفاتيح العلوم ص ٩.
(٥) مفاتيح العلوم ص ١٢.
(٦) مفاتيح العلوم ص ١٤.
(٧) مفاتيح العلوم ص ٤١.
(٨) مفاتيح العلوم ص ٤٦.
(٩) مفاتيح العلوم ص ٧٣.
(١٠) مفاتيح العلوم ص ١٢.
(١١) مفاتيح العلوم ص ١٢.
(١٢) مفاتيح العلوم ص ٤٣.

و«البواسير في الأنف: أن ينبت لحم داخل الأنف فيحتشى به واحدها باسور»[1]. و«الحزاء: بقلة تشبه الكَرَفس لريحها خمطة وهي بالأعجمية دينارويه، الواحدة حزاءة»[2]. و«الرواصير: جمع ريصار وهو الريجار معرب الهليون»[3]. و«الغُمر: جمع غمرة تطلي بها النساء أوجههن»[4].

٦ ـ أنه يشير إلى ما ليس له مفرد مثل: «المسام» قال: «المسام: المنافذ التي يخرج منها العرق ولا واحد لها من لفظها إلاّ السم. ومثاله المذاكر والمحاسن والمعالي ولا واحد لشيء من هذه من بناء جمعه وكذلك مَرَاقّ البطن: ما رقّ منه ولان ولا واحد لها من بناء جمعها»[5]. و«الأطرية: على وزن الأكسية من طعام أهل الشام ولا واحد له. هكذا قال الخليل وقال بعضهم بكسره على بناء «زِبْنِيَّة» [6].

٧ ـ أنه يشير إلى نقل اللفظة من صيغة إلى أخرى للدلالة على معنى محدد ومن ذلك قوله: «الجارة: هي الإبل التي تجر بأزمتها «فاعلة» بمعنى «مفعولة» مثل «عيشة راضية» بمعنى مرضية، ويشبه أن تكون الجارة هي التي تجرّ الأحمال»[7].

٨ ـ أنه يذكر اللفظ ونقله من المصدرية إلى الإسمية فالحمول هي التي «تحمل إلى بيت المال واحدها حِمْل مصدر صيّر اسماً»[8].

٩ ـ أنه يشير إلى اشتقاق بعض المصطلحات والألفاظ ومن ذلك: «التحري في الإناءين ونحوهما: تمييز الطاهر من النجس بأغلب الظن واشتقاقه من الحريّ وهو الخليق، وهو طلب ما هو أحرى بالطهارة كما اشتق التقمن

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٩٧.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١٠٠.
(٣) مفاتيح العلوم ص ١٠٠.
(٤) مفاتيح العلوم ص ١٠٥.
(٥) مفاتيح العلوم ص ٩٤.
(٦) مفاتيح العلوم ص ٩٩.
(٧) مفاتيح العلوم ص ١٠.
(٨) مفاتيح العلوم ص ٤١.

من القمن»[1]. و«الشنق: ما بين فريضتين في الإبل والغنم اشتقاقه من شنق القربة وهو امتلاؤها»[2]. و«الاستلام: هو لمس الحجر الأسود اشتق من السَّلَمة وهي الحجر كما قيل من الكحل والاكتحال»[3]. و«التفليس: فعل متعد من أفلس الرجل إفلاساً واشتقاقه من الفلس كأنها صارت دراهمه فلوساً، وفلّسه غيره تفليساً»[4]. و«الاتحاد: لفظة مشتقة من الواحد»[5]. و«الناسوت: مشتقة من الناس كالرحموت من الرحمة واللاهوت مشتق من اسم الله تعالى»[6]. و«الترقين: خط يخط في التأريج أو العريضة إذا خلا باب من السطر لكي يكون الترتيب محفوظاً به وهو بمنزلة الصفر في حساب الهند وحساب الجمّل، واشتقاقه من «رِقان» وهو بالنبطية الفارغ»[7]. و«التلميظ: أن يطلق لطائفة من المرتزقين بعض أرزاقهم قبل أن يستحقوا وقد لمظوا بكذا وكذا. واشتقاقه من «لمظ يلمظ» إذا أخذ باللسان ما يبقى من الفم على أثر الطعام عند الأكل هو اللماظة»[8]. و«السوقة: عوام الناس اسم يقع على الواحد والجماعة يقال: رجل سوقة ورجال سوقة. وهو مشتق من السياقة وليست السوقة جماعة السوقي كما يتوهم كثير من الناس»[9]. و«التخمة: معروفة مشتقة من الوخامة وتاؤها واو مثل التهمة من الوهم، واللغة الفصيحة فيها فتح الخاء»[10]. و«المزمن: العتيق وهو مشتق من الزمان يقال: مرض مزمن أي طويل، والمزمن الذي يورث الزمانة أيضاً»[11]. و«المربى: هو أن

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٨.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١١.
(٣) مفاتيح العلوم ص ١٢.
(٤) مفاتيح العلوم ص ١٣.
(٥) مفاتيح العلوم ص ٢٣.
(٦) مفاتيح العلوم ص ٢٣.
(٧) مفاتيح العلوم ص ٣٩.
(٨) مفاتيح العلوم ص ٤٣.
(٩) مفاتيح العلوم ص ٧٧.
(١٠) مفاتيح العلوم ص ٩٦.
(١١) مفاتيح العلوم ص ٩٧.

يربى الشيء كما يربى الصبي، وأصله من ربا الشيء إذا انتفخ ونما. فأما المربب فيحتمل أن يكون من رببت الصبي في معنى ربيته، ومن ذلك اشتق اسم الراب والرابة، ويحتمل أن يكون من الرُّب وهو ما يحلبه العصر من الفواكه فكأنه معالج بالرب، والأول أقرب إلى الصواب»[1]. ومن ذلك كلامه على «الغميصاء»[2] و «الكيمياء»[3] وقد تقدم اللفظان.

١٠ - أنه كان يرجح في الاشتقاق فيقول في «المصراة» وهي الناقة التي تصرّ ضروعها ليجتمع فيها اللبن ثم تباع: «وأصلها المصررة كما يقال: تظنّيتُ من الظن، وقيل: بل اشتقاقه من قولهم: صرى اللبن إذا اجتمع في الضرع، وقد أصرت الناقة تصرى وصرّاها صاحبها، وهذا أقرب إلى الصواب»[4].

١١ - أنه لا يقبل الاشتقاق من الأعجمي ومن ذلك ما قاله عن «الاصطرلاب»[5] وقد تقدم.

١٢ - أنه كان يشير إلى بعد الاشتقاق وإن جاءت به الرواية، من ذلك اشتقاق لفظة: «التأريخ» من «ماء روز» قال: «التأريخ على ما روي كلمة أعجمية أصلها «ماء روز» فأعربت، وهذا اشتقاق بعيد إلّا أن الرواية جاءت به»[6]. وهذه مسألة تعرض لها اللغويون والعلماء فذكر الجواليقي أن التأريخ «الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محض وأن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب... وقيل إنه عربي واشتقاقه من «الارخ» وهو ولد البقرة الوحشية إذا كانت أنثى بفتح الهمزة وكسرها، كأنه شيء حدث كما يحدث الولد... ويقال إن «الارخ» الوقت

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٠٤.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١٢٤.
(٣) مفاتيح العلوم ص ١٤٦.
(٤) مفاتيح العلوم ص ١٣.
(٥) مفاتيح العلوم ص ١٣٤.
(٦) مفاتيح العلوم ص ٥٠.

و «التأريخ» كأنه التوقيت»[1]. ومثل ذلك ذكر ابن منظور[2] وشهاب الدين الخفاجي الذي قال: «هو عربي من الارخ ـ بفتح الهمزة وكسرها ـ وهو ولد البقرة الوحشية... وقيل هو معرب «ماء روز» وقع تعريبه ووضعه في عهد عمر، ذكره في نهاية الإدراك، وهو تعريب غريب»[3].

١٣ ـ اتبع في ذكر المصطلحات ما اتبعه الآخرون، ومن ذلك إبدال التاء طاءً وهو كثير وقد تقدمت منه أمثلة في الألفاظ الأعجمية مثل: «الأرثماطيقي» و «ايطاليقوس» و «البوطقة» وغيرها. ومنها قلب الكاف قافاً كما في «بطرك» قال: «وإذا عـرّب قيل «بطريق»[4].

١٤ ـ اتبع في ذكر المصطلحات والألفاظ الأعجمية طريقتين:

الأولى: أنه لا يذكر أصل الكلمة الأعجمية وإنما يكتفي بذكرها وكأن ذلك الأصل معروف في عصره.

الثانية: أنه يذكر الكلمة الأجنبية ويقول إنها يونانية أو أعجمية أو رومية أو سريانية أو نبطية أو هندية.

وقد تقدمت كثير من الألفاظ والمصطلحات الأجنبية وكان بعضها مقروناً بأصلها ولم يقرن بعضها بالأصل أو اللغة التي أخذت منها الألفاظ والمصطلحات.

١٥ ـ أنه أرجع الألفاظ التي قيل إنها أعجمية إلى العربية ومن ذلك «التأريج» قال: «التأريج: قيل لفظة أعجمية ومعناه النظام لأنه كسواد يعمل للعقد لعدة أبواب يحتاج إلى علم جملها. وأنا أظن أنه «تفعيل» من الأوراج، تقول: أرّجت تأريجاً؛ لأن التأريج يعمل للعقد شبيهاً بالأوارج فإن ما يثبت تحت كل اسم من دفعات القبض يكون مصفوفاً ليسهل عقده

(١) المعرب ص ٨٩ ـ ٩٠.
(٢) لسان العرب (أرخ).
(٣) شفاء الغليل ص ٨٣.
(٤) مفاتيح العلوم ص ٧٧.

بالحساب وكذا يعمل التأريج»[1]. وقال ابن منظور: «التأريج والإراجة شيء من كتب أصحاب الدواوين. التهـذيب: والأوارجة من كتب أصحاب الدواوين في الخراج ونحوه. ويقال: هذا كتاب التأريج»[2]، ولم يشر إلى عجمة اللفظة.

١٦ - أنه كان يذكر أحياناً الأسماء أو المصطلحات الأجنبية بعد العربية أو المعربة ويبدو أنها كانت أكثر شيوعاً أو أنها كانت توضيحاً لمن لا يعرف الألفاظ والمصطلحات العربية، ومن ذلك هذه الألفاظ:

١ - الطسق: الوظيفة توضع على أصناف الزروع لكل جريب وهو بالأعجمية «تشك» وهو الآجرة[3].

٢ - علم الأمور الإلٓهية: ويسمى باليونانية ثاولوجيا[4].

٣ - الكيان: هو الطبع بالسريانية وبه سمي كتاب «سمع الكيان» وهو بالسريانية «شمعا كيانا»[5].

٤ - الجرارات: وهي عقارب صغار تجر أذنابها وتكون ببلاد الخوز، ويقال لها بالنبطية «كرورا»[6].

٥ - اطريفل: هو بالهندية «تري أبهل» أي ثلاثة أخلاط[7].

وهذه الظاهرة تدل على أمرين:

الأول: إن المصطلحات التي شاعت بين أصحاب العلوم في مرحلة الترجمة الأولى كانت أعجمية، وقد بقي بعضها معروفاً متداولاً.

الثاني: إن المصطلحات العربية بدأت تدخل العلوم ولكنها لم

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٣٧.
(٢) لسان العرب (أرج).
(٣) مفاتيح العلوم ص ٤٠.
(٤) مفاتيح العلوم ص ٨٠.
(٥) مفاتيح العلوم ص ٨٤.
(٦) مفاتيح العلوم ص ٩٥.
(٧) مفاتيح العلوم ص ١٠٤.

تكن مستقرة في القرن الرابع للهجرة فاقتضى تفسيرها بالمصطلحات والألفاظ الأجنبية.

١٧ ـ أنه كان يورد أحياناً أصول بعض الكلمات، ومن ذلك أصل كلمة «بغداد»[١] وما قيل في لفظة: «المهندس»[٢] وقد تقدمت اللفظتان.

١٨ ـ أنه كان يفصّل القول أحياناً في أصول الألفاظ ومن ذلك كلامه على «الزيج»[٣] وقد تقدم.

١٩ ـ أنه كان في بعض الأحيان لا يذكر معنى اللفظة أو المصطلح فيقول مثلاً عن «السفتجة» أنها معروفة[٤]، ويقول إنه معروف ثم يفسره مثل «القوباء»[٥].

٢٠ ـ أنه ظل ملتزماً بقوله في المقدمة: «متحرياً للإيجاز والاختصار ومتوقياً للتطويل والإكثار»[٦] ويظهر ذلك واضحاً في كل صفحة من صفحات «مفاتيح العلوم».

وهذه الأسس تشير إلى أن الخوارزمي سار على منهج لاحب وكان واضح التصوّر للعلوم ومصطلحاتها وبذلك قدّم خدمة عظيمة للغة العربية وحفظ كثيراً من المصطلحات فكان كتابه كما قال المقريزي «جليل القدر».

أهميتـــه:

تأتي أهمية «مفاتيح العلوم» من عدّة نواح:

الأولى: أنه من أقدم ما صنف العرب على الطريقة الموسوعية، وقد قسّمه الخوارزمي مقالتين: الأولى في ستة أبواب تعرضت فصولها للفقه

---

(١) مفاتيح العلوم ص ٧١.
(٢) مفاتيح العلوم ص ١١٧ ـ ١١٨.
(٣) مفاتيح العلوم ص ١٢٧.
(٤) مفاتيح العلوم ص ٤١.
(٥) مفاتيح العلوم ص ٩٥.
(٦) مفاتيح العلوم ص ٤.

والكلام والنحو والكتّاب والشعر والأخبار، والثانية في تسعة أبواب تطرقت فصولها إلى ما سمي بعلوم العجم وهي الفلسفة والمنطق والطب والحساب والهندسة والنجوم والموسيقى والحيل والكيمياء. وموضوعات المقالتين مما عرفه العرب والمسلمون في القرن الرابع للهجرة وما قبله، وفي ذلك:

١ - إلقاء الضوء على علوم العرب وآدابهم ومعارفهم.
٢ - إيضاح المسائل التي تعرضوا لها ترجمة أو تأليفاً.
٣ - وضع الفكر العربي الإسلامي حيث ينبغي له أن يوضع في مدارج الحضارة الإنسانية.

الثانية: أنه قدّم أهم المصطلحات العلمية وأدقها في ذلك العصر وهي مصطلحات عربية ومعربة شملت العلوم المختلفة وبذلك أوضح دور العرب في الحضارة الإنسانية وقدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم والفنون.

الثالثة: أنه أوضح استفادة العرب من اللغات الأجنبية المختلفة في وضع المصطلحات فهم لم يقتصروا على لغة واحدة وإنما كانت لغات العجم والهنود والسريان والنبط واليونان أمامهم حينما كانوا يعربون. وقد أعطتهم معرفتهم لهذه اللغات وغيرها حرية واسعة في اختيار المصطلح أو اللفظ الذي كانوا يحتاجون إليه.

الرابعة: أنه ربط بين العلوم والأمم التي أخذت منها فقال في المقالة الثانية أنها «علوم العجم» وهم الأقوام الذين اتصل بهم العرب بعد الإسلام.

الخامسة: أنه نسب في كثير من الأحيان الألفاظ إلى اللغات التي أخذت منها، وهذا نافع في دراسة المصطلحات ومعرفة مصادرها وأصولها.

السادسة: أنه فتح الباب للمصطلحات الأجنبية التي كانت شائعة بين المؤلفين والمترجمين، وكانت تلك المصطلحات على صور مختلفة فمنها ما جرى صوغه على أبنية العرب ومنها ما أُلحق ببعض صيغها، ومنها ما ظل بعيداً عن ذلك كله. وفي ذلك إشارة إلى أن القدماء لم يجروا على منهج واحد في تعريب الألفاظ وإن كانوا يميلون إلى صوغ اللفظ الأجنبي صياغة لا تخرج على أبنية كلام العرب.

السابعة: أنه ذكر قاعدة لأسماء الأدوية فقال: «وأسماء الأدوية يكون أكثرها على «فَعول» ـ بفتح الفاء ـ كالغسولات والنطولات والسكوبات والوجورات والسعوطات واللدودات واللعوقات»[١]. وهي قاعدة عامة تنفع في وضع أسماء الأدوية في هذا العصر، وقد أخذت بصيغة «فَعول» لجنة وضع مصطلحات علم الجراحة في المجمع العلمي العراقي وجعلتها قياسية لأسماء الأدوية[٢].

هذه جوانب من قيمة «مفاتيح العلوم» وأهميته وليس ما تقدم بالقليل في القرن الرابع للهجرة، ولو قدّر للأمة أن تتقدم في القرون اللاحقة لأبدعت أيما إبداع، ولكن العواصف العاتية هبت عليها من كل مكان فران عليها الظلام ونامت قروناً طويلة حتى قيَّض الله لها في القرن العشرين صحوة أعادت إليها كثيراً مما فقدته وبدأت تتلمس طريقها في مدارج التطور والارتقاء.

والعرب وهم يشهدون حركة علمية في هذا العصر حريون بأن يعيدوا النظر في كل ما حولهم لتتضح لهم السبيل ويبنوا جديداً يضعهم بين أمم العالم في أرفع منزلة وأشرف مكان. ولن يكون الجديد مثمراً إن لم يقم على قديم أصيل والعودة إلى المنابع الأولى واستنطاق كتب التراث العلمي من أول ما تدعو إليه النهضة الحديثة وفي تأريخ العرب والمسلمين خير زاد لتلك النهضة. وكتاب «مفاتيح العلوم» للخوارزمي من ذلك الزاد الذي ينبغي الأخذ منه، وهو يسدّ بعض حاجة الدارسين والباحثين ويوثّق لهم المصطلحات العلمية التي جاءت في كتب التراث. وهل الاهتمام بهذا الكتاب يهيىء فرصة تأليف معجم علمي تأريخي ويكون نافعاً في وضع المعاجم العلمية الحديثة. إن «مفاتيح العلوم» لو ضمّ إلى كتب التراث العلمي الأخرى وبوّبت مادته تبويباً جديداً لكانت له أهمية كبيرة ولحقق كثيراً مما يصبو إليه الحريصون على تقدم حركة التعريب. والكتاب على الرغم من إيجازه يصلح أن يكون معجماً كبيراً للعلوم التي ذكرها الخوارزمي ويصلح كل باب من

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٠٥.

(٢) تنظر مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١٦ ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

أبوابه أن يكون معجماً مستقلاً يتعرض لموضوع واحد تدرج فيه المصطلحات. وتأتي المقالة الثانية في مقدمة ما ينبغي الاهتمام به لأنها تتصل بالعلوم ولا سيما الطب والرياضيات والكيمياء وهي مما ازدهر في عصر الخوارزمي ومما يوليه القرن العشرون من عناية كبرى لما لهذه العلوم من أهمية عظيمة وصلة بحياة الناس وتقدمهم في هذا العالم الممتد الفسيح.

إن التراث يظل ساكناً لا ينتفع به الناس حتى إذا عادوا إليه ونبّهوه صحا وأخذ يقدم ما فيه النفع وإنارة السبيل، وإحياء التراث العلمي العربي خطوة تفتح آفاقاً رحبة وتفضي إلى عالم جديد.

المصـــادر:

١ - أصول السرخسي - محمد بن أحمد السرخسي - تحقيق أبو الوفا الأفغاني. القاهرة ١٣٧٢ هـ.

٢ - الاعلام - خير الدين الزركلي - الطبعة الخامسة. بيروت ١٩٨٠ م.

٣ - البرهان في وجوه البيان - أبو الحسين إسحاق بن وهب الكاتب - تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي. بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.

٤ - البيان والتبيين - للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م.

٥ - تأريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان، (الجزء الرابع) ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر والدكتور رمضان عبد التواب. القاهرة ١٩٧٥ م.

٦ - الحيوان - الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م.

٧ - الخصائص - ابن جني - تحقيق محمد علي النجار. القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.

٨ - خطط المقريزي - المقريزي. القاهرة ١٢٧٠ هـ.

٩ - دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية).

١٠ - دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات - الدكتور أحمد مطلوب. بيروت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

١١ ـ شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل ـ شهاب الدين أحمد الخفاجي ـ تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. القاهرة ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م.
١٢ ـ الصاحبي ـ أحمد بن فارس ـ تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي. بيروت ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م.
١٣ ـ الطراز ـ يحيى بن حمزة العلوي. القاهرة ١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٤ م.
١٤ ـ الفتح الوهبي على تأريخ أبي نصر العتبي ـ أحمد بن علي المنيني. القاهرة ١٢٨٦ هـ.
١٥ ـ فقه اللغة وسر العربية ـ الثعالبي ـ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري ـ وعبد الحفيظ شلبي ـ الطبعة الثانية. القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م.
١٦ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ـ حاجي خليفة. استانبول.
١٧ ـ لسان العرب ـ ابن منظور.
١٨ ـ مجلة المجمع العلمي العراقي (المجلد ١٦).
١٩ ـ المزهر ـ جلال الدين السيوطي ـ الطبعة الثالثة. القاهرة.
٢٠ ـ المعرب ـ أبو منصور الجواليقي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر. القاهرة.
٢١ ـ مفاتيح العلوم ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي. القاهرة ١٣٤٢ هـ.
٢٢ ـ نقد الشعر ـ قدامة بن جعفر ـ تحقيق كمال مصطفى. القاهرة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م.
٢٣ ـ نكث الهميان في نكت العميان ـ صلاح الدين الصفدي. القاهرة ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١١ م.
٢٤ ـ نهاية السول ـ عبد الرحيم السنوي. القاهرة.



٧

جهود المجمع العلمي العراقي في وضع المصطلحات



المصطلح:

المصطلح أو الاصطلاح «هو العرف الخاص» وهو «اتفاق طائفة مخصوصة على وضع شيء» و«الاصطلاحي ما يتعلق بالاصطلاح ويقابله اللغوي»[1]. ولا يخرج الباحثون عن هذا المعنى، قال مصطفى الشهابي: «هو لفظ اتفق العلماء على اتخاذه للتعبير عن معنى من المعاني العلمية»[2]، وقال: «والاصطلاح يجعل إذن للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللغوية أو الأصلية» ثم قال: «والمصطلحات لا توجد ارتجالاً ولا بدّ في كل مصطلح من وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة كبيرة كانت أو صغيرة بين مدلوله اللغوي ومدلوله الاصطلاحي». وقال: «ومن الواضح أن اتفاق العلماء على المصطلح العلمي شرط لا غنى عنه ولا يجوز أن يوضع للمعنى العلمي الواحد أكثر من لفظة اصطلاحية واحدة واختلاف المصطلحات العلمية في البلاد العربية داءٌ من أدواء لغتنا الضادية». فشروط المصطلح العلمي:

١ ـ اتفاق العلماء عليه للدلالة على معنى من المعاني العلمية.

(*) نوقش في الندوة التي نظمها الاتحاد العربي للتعليم التقني في الجزائر صباح يوم الإثنين ٢٣ نيسان ١٩٨٤ الموافق للثالث والعشرين من رجب عام ١٤٠٤ هـ. ونشر في الكتاب الذي أصدره الاتحاد باسم «تعريب وتوحيد المصطلحات العلمية والتقنية» سنة ١٩٨٤ م.

(١) البستان ج ١ ص ١٣٤٩.

(٢) المصطلحات العلمية ص ٣.

٢ ـ اختلاف دلالته الجديدة عن دلالته اللغوية الأولى.
٣ ـ وجود مناسبة أو مشاركة أو مشابهة بين مدلوله الجديد ومدلوله اللغوي.
٤ ـ الاكتفاء بلفظة واحدة للدلالة على معنى علمي واحد.

وأول المصطلحات العلمية ما جاء في القرآن الكريم، وكان لكثير منها معنى لغوي فنقلت من معناها الأول إلى المعنى الجديد. وكانت الحقيقة الشرعية من أسباب نمو اللغة وفتح باب تطور الدلالة وانتقال الألفاظ من معنى إلى آخر يقتضيه الشرع وتتطلبه الحياة الجديدة. وكان المتكلمون أول من اهتم بالمصطلحات، قال الجاحظ: «وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع»[1]. وتحدث عن التحول الذي طرأ على الألفاظ بظهور الإسلام وقال إن الناس تركوا مما كان مستعملاً في الجاهلية أموراً كثيرة فمن ذلك تسميتهم للخراج «إتاوة» وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان «الحملان» و«المكس» واستحدثوا أسماء لم تكن وإنما اشتقت لهم من أسماء متقدمة على التشبيه مثل قولهم لمن أدرك الإسلام «مخضرم» وللأرض التي لم تحفر ولم تحرث إذا فُعل بها ذلك «مظلومة» ولمن راءى بالإسلام واستسر بالكفر «المنافق» ولمن لم يحج إما لعجز وإما لإنكار «الصرورة»[2].

وزادت العناية بالمصطلحات بعد أن تشعبت العلوم وكثرت الفنون وكان لا بدّ للعرب من أن يضعوا لما يستجد مصطلحات مستعينين بوسائل أهمها: الوضع والقياس والاشتقاق والترجمة والمجاز والتعريب والتوليد والنحت[3]. وكانت هذه الوسائل سبباً في اتساع العربية واستيعابها للعلوم والآداب. وقد بذل الأقدمون جهوداً محمودة في وضع المصطلح وكان الأساس فيه أن يتفق

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٣٢٧ ـ ٣٣٦.
(٢) ينظر الحيوان ج ١ ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨.
(٣) للتفصيل ينظر: دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات ص ٦٩ وما بعدها، حركة التعريب في العراق ص ١٣ وما بعدها.

عليه اثنان أو أكثر وأن يستعمل في علم أو فن بعينه ليكون واضح الدلالة مؤدياً المعنى الذي يريده الواضعون. ولم يروا بأساً في أن يضع المؤلف مصطلحه فيشيع أو يهمل إذ «لا مشاحة في الاصطلاحات». قال قدامة بن جعفر وهو يتحدث عن نقد الشعر: «فإني لما كنت آخذاً في استنباط معنى لم يسبق إليه من يضع لمعانيه وفنونه المستنبطة أسماء تدل عليها، احتجت إلى أن أضع لما يظهر من ذلك أسماء اخترعتها وقد فعلت ذلك. والأسماء لا منازعة فيها إذا كانت علامات فإن قُنع بما وضعته وإلا فليخترع لها كل من أبى ما وضعته منها ما أحب فليس يُنازع في ذلك»[١]. وقال ابن وهب الكاتب: «وأما الاختراع فهو ما اخترعت له العرب اسماً مما لم تكن تعرفه، فمنه ما سموه باسم من عندهم كتسميتهم الباب في المساحة باباً والجريب جريباً والعشير عشيراً. ومنه ما عرّبته وكان أصل اسمه أعجمياً كالقسطاس المأخوذ من لسان الروم والشطرنج المأخوذ من لسان الفرس والسجيل أيضاً المأخوذ من كلام الفرس. وكل من استخرج علماً واستنبط شيئاً وأراد أن يضع له اسماً من عنده ويواطىء من يخرجه إليه، عليه أن يفعل ذلك. ومن هذا الجنس اخترع النحويون اسم الحال والزمان والمصدر والتمييز والتبرية. وأخرج الخليل لغات العروض فسمّى بعض ذلك الطويل وبعضه المديد وبعضه الهزج وبعضه الرجز. وقد ذكر أرسطاطاليس ذلك وقال إنه مطلق لكل أحد يحتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أو يسميه بما يشاء من الأسماء. وهذا الباب مما يشترك العرب وغيرهم فيه وليس مما ينفردون به»[٢]. فوضْعُ المصطلحات مباح للعلماء ومطلق لكل من يحتاج إلى تسمية شيء ليعرف به، ولكن الجاحظ وقدامة وابن وهب لم يحددوا أنواع ذلك الوضع وإن كان كلامهم يومىء إلى بعض الوسائل وهي:

١ ـ اختراع أسماء لما لم يكن معروفاً كما فعل النحويون والعروضيون.

٢ ـ إطلاق الألفاظ القديمة للدلالة على المعاني الجديدة على سبيل التشبيه

---

(١) نقد الشعر ص ٢٢.

(٢) البرهان في وجوه البيان ص ١٥٨.

والمجاز كما في الأسماء الشرعية والأسماء الدينية وغيرها مما استجد بعد الإسلام من علوم وفنون.

٣ ـ التعريب وهو نقل الألفاظ الأعجمية إلى العربية بإحدى الوسائل المعروفة عند النحاة واللغويين.

وهذه من الوسائل التي لا يزال العاملون في حقل اللغة والعلم والفن يلجأون إليها عند وضع المصطلحات العلمية وإن كانت الوسيلة الثالثة لا يلجأون إليها إلا عند الضرورة القصوى خشية أن تضيع اللغة العربية في غمرة الدخيل. وقد لجأ العرب في أول عهدهم بنقل العلوم إلى التعريب ليسدوا حاجة عرضت لهم فقالوا: الأرثماطيقي والفيزيقي وقاطيغورياس واسقُطسّ للحساب والطبيعة والمقولات والعنصر. وكان سبب ذلك ضعف المترجمين الذين كان أكثرهم لا يتقن العربية ولكن الحالة تغيرت بعد أن ازدهرت حركة الترجمة واتسعت آفاقها وظهر من له معرفة باللغة العربية وبغيرها من اللغات وأصبحت الكتب العربية تحفل بالمصطلحات العربية الأصيلة ولا سيما كتب الفقه وعلوم اللغة التي نشأت في رحاب الفكر العربي الإسلامي. أما غيرها من العلوم الأجنبية فكان الطابع العربي واضحاً عليها وإن دخل فيها شيء من اللفظ الأجنبي الذي لم يَرَ المعربون بداً من إدخاله في كتبهم بعد أن ضاقت بهم السبل في تلك العهود ويتضح ذلك بأجلى صورة في كتاب «مفاتيح العلوم» للخوارزمي أحد أعيان القرن الرابع للهجرة.

جهــود المجمــع:

لم يكن المجمع العلمي العراقي الذي تأسس سنة ١٩٤٧ م ـ ١٣٦٧ هـ بعيداً عن هذا كله، فقد أولى المصطلحات العلمية عناية كبيرة وبذل جهوداً في إنجاز عدد كبير منها نشر في مجلته أو في كراسات. وكانت الفقرة الأولى من مادته الثانية لنظامه تنص على «العناية بسلامة اللغة العربية والعمل على جعلها وافية بمطاليب العلوم والفنون وشؤون الحياة الحاضرة».
وكان ذلك صدى للمجمع في مسيرته الطويلة فألف في عام ١٩٤٨ م لجاناً تضع مصطلحات لما يرد في الكتب التي يقرر ترجمتها أو تدقيق المصطلحات

وإقرارها. ومنها اللجنة التي ألفها من السادة: شيث نعمان وتحسين إبراهيم ويحيى عوني الصافي وناظم الجلبي، واللجنة التي ألفها من: الدكتور محمد فاضل الجمالي ومحمد بهجة الأثري والدكتور هاشم الوتري والدكتور متى عقراوي والدكتور شريف عسيران والدكتور جواد علي لدراسة المصطلحات الواردة في كتاب «مقدمة الكيمياء العضوية»، واللجنة التي ألفها من: الدكتور محمد فاضل الجمالي والدكتور مصطفى جواد والدكتور جواد علي للنظر في المصطلحات الفلسفية الواردة في الترجمة العربية لكتاب «المدخل إلى الفلسفة الحديثة».

وقد تحدث الدكتور جواد علي عن «المجمع والمصطلحات»[1] فقال: «من أعمال المجمع الأصلية بذله الرعاية للمصطلحات والعناية بها وتوجيه مجهوده ونشاطه إلى توسيع أفقها وتثبيتها ونشرها بالنقل والتعريب والاشتقاق فحاجة الناس إلى المصطلحات اليوم شديدة وطلابها كثير. ومن حق المجمع على المتخصصين والباحثين وأصحاب العلم باللغات مطالبته إياهم بوجوب مساعدته في هذا الباب وشدّ أزره، وذلك بتقديم ما عندهم من علم ورأي وتوجيه ونقد ليؤدي الرسالة العلمية على أكمل وجه وأحسن حال. وهو لهذا وذاك كتب إلى الوزارات والدوائر المختصة يستعينها على تسهيل هذه المهمة بأن ترسل إليه بما تجمع عندها من مصطلحات وما نقلته من كلمات ليدرسها ويرى رأياً فيها». ثم قال: «وطريقة المجمع في دراسة المصطلحات وإقرارها ووضعها هي أن يدرس المصطلح المعروض عليه في لغة الاختصاص ويتعرف أصله ونشأته، ثم يسمع رأي المتخصصين فيما اختاروه من كلمات عربية مناسبة، ثم يستعرض ما ورد في الكتب العربية قديمها وحديثها لغوية كانت أو اختصاصية من كلمات موافقة له مما قد يفي بالمراد، فإذا وقف على كلمة صالحة مناسبة له مؤدية للمعنى الاصطلاحي ورأى فيها الرشاقة والسلامة ـ أعني أنها عربية يألفها الذوق ـ عقد رأيه وبتّ في الأمر. على أن من عادة المجمع ألا يرى رأياً في مصطلح ولا يبتّ فيه إلّا بعد الوقوف على آراء البلاد

(١) تنظر مجلة المجمع العلمي العراقي ج ٢ ص ٣١١، ج ٣ ص ٣٦٨.

العربية الأخرى فيه فلعل لها اجتهاداً فيه أصوب من اجتهاده وأقوم أو كلمة أصحّ وأحكم. ثم هو حريص كل الحرص على أن لا ينفرد برأي ولا يقر قراراً قد يخرجه عن الإجماع والوحدة وإصفاق العلماء من أبناء هذه الأمة. فإنما هو يدرس المصطلحات من الوجهة العلمية واللغوية والفنية لتكون سبباً من أسباب جمع الشمل بتوحيد المصطلحات في جميع البلاد العربية، وهو لذلك يعمد إلى محاضر مجمع فؤاد الأول للغة العربية ومجلته، وإلى مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وإلى الكتب والمجلات التي تعنى بالمصطلحات للوقوف على رأيها في كل مصطلح قبل اتخاذ قرار ما، لكي لا تتعدد القرارات فلا تبقى إذن فائدة من وضع المصطلحات. وللزيادة في الاحتياط والأخذ بالتأتي والتأني قرر «أن لا يثبت مصطلحاً إلا بعد مرور ستة أشهر على تأريخ نشره ليتسنى له دراسة الآراء التي تبدى في شأنه. وفي ضوئها يقرر المجمع ما يراه صالحاً للاستعمال»[1]. فقرارات المجمع إذن هي في الزمن الحاضر قرارات ترجيح، ولن يكون القرار نهائياً إلا بعد مضي المدة التي حددها للوقوف على ما يرد عليه في أثنائها من آراء. وللمجمع خطة كذلك في استنباط المصطلحات ووضعها تجمع بين رأي المتقدمين ورأي الباحثين المحدثين وحاجة العربية الملحة إلى المصطلحات وضرورة تلبية هذه الحاجة وإجابة ندائها لتعود كما كانت لغة للعلم. وهو يرجو لذلك من المؤسسات العلمية اتخاذ خطوات عملية إيجابية في التعاون والتشاور لرفع المستوى العلمي لكي تتمكن في المستقبل من جعل العربية لغة رسمية للتعليم العالي، ولن يتم ذلك إلا بتعاون البلاد العربية كلها في هذا العمل القومي، فلذلك وجّه المجمع دعوة إلى المجمعين الكريمين: مجمع فؤاد الأول بمصر والمجمع العلمي العربي بدمشق بهذا المعنى». فطريقة المجمع العلمي العراقي كانت دقيقة في وضع المصطلح ولكنها تعثرت خلال التغيرات التي طرأت على المجمع وأعضائه وإن كانت الخطوط العامة أساس لجانه في جميع دوراته.

---

(١) قرر في الجلسة السابعة عشرة المعقودة في ٢٧ نيسان سنة ١٩٤٩ م.

ونشر المجمع في المجلد الثاني من مجلته سنة ١٩٥٢ م ـ ١٣٧١ هـ أول معجم للمصطلحات العلمية وهي (٩٤) مصطلحاً، وكان الدكتور جواد علي قد استخرجها من محاضر جلسات المجمع ورأى من الأمانة العلمية الإشارة إلى المورد الذي أورد فيه والمعين الذي استسقى منه، ثم رأى الإشارة إلى موضعه في مجمع القاهرة إن كان له هناك موضع ومقام إتماماً للفائدة وتعميماً لقرارات المجمع. ومثال ذلك ما جاء في المصطلح الأول «المحور السيني أو الإحداث السيني»: «نظر المجمع في هذا المصطلح المرسل إليه من مديرية السكك الحديد العامة وأقره على هذا الشكل. أما المديرية المذكورة فقد اختارت له «محور السينات» واستعمل مجمع فؤاد الأول للغة العربية «الإحداث السيني». ويلاحظ في هذا المعجم أن المجمع عرّب بعض المصطلحات مثل: «الألومينا» و «كلنكر» و «الراتون» و «السيليكا» وغيرها، وأبقى الأسماء المنسوبة إلى الأعلام.

ونشر المجمع في المجلد الثالث من مجلته قائمة جديدة في (١٥٦) مصطلحاً، ولم يتبع الدكتور جواد علي فيها ما اتبعه في القائمة الأولى، واكتفى بذكر المصطلح الأجنبي وما يقابله بالعربية من غير إشارة إلى مجمع دمشق أو القاهرة أو إلى الكتب التي ذكرته. ونشر في الجزء الأول من المجلد الرابع قائمة أخرى ضمت (٢٦٥) مصطلحاً، وفي الجزء الثاني منه (٣٣٦) مصطلحاً. ويلاحظ في القائمتين أن المجمع استعمل «لا» في بعض المصطلحات فقال: «لا نهائي» و «المعامل اللاتحددي» و «الترابط اللاخطي» و «الخطأ الأنموذجي» وهو ما لجأ إليه الأقدمون وبعض المعاصرين، واستعمل الرمز بالحرف في مثل «منحنى جي» والعلم في مثل «منحنى لورنز».

ونشر مصطلحات صناعة النفط التي اصطلح عليها وهي في (١٣٨) مصطلحاً، ويلاحظ أنه عرّب «البنزين» و «الكيروسين» و «الديزل» وترجم بعض الرموز بحروف مثل: «غ. ب. س» وهو مختزل «غاز البترول المسيل» وكان عليه أن يقول «غاز النفط المسيل» ووضع المختصر «ر. أ. ر» للمصطلح «رابع أثيلات الرصاص».

ونشر مصطلحات في علوم الفضاء وهي (١٦٦) مصطلحاً وصنفها في خمسة موضوعات هي: الفضاوات والأجواء، والصواريخ والقذائف والتوابع، والعلوم الفضائية، والملاحة الفضائية، والأدوات والأجهزة والمواد. وقد اقتبس المجمع هذه المصطلحات من مجموعة مقررة أصدرتها جامعة الجو باللغة الإنكليزية، واستثنى منها ما كان مؤلفاً من حروف أولى لكلمات عدة يتكون منها المصطلح على أسلوب شائع في اللغات الأجنبية في صوغ المصطلحات العلمية والفنية ولمّا يجد طريقه بعد إلى اللغة العربية واستثنى أيضاً أسماء المواقع والمؤسسات.

ونشر مصطلحات علم التربة وهي (٢٩٦) مصطلحاً ويلاحظ أن المجمع استعمل «لا» أيضاً فقال: «اللاشكلي» و«اللامنطقي» وعرّب بعض الألفاظ فقال: «التربة البودزولية» واستعمل الحروف مثل: «ك. ن» للدلالة على نسبة الكاربون للنايتروجين.

ونشر مصطلحات في التربية البدنية وأصلها مما أرسلته الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، وقد بلغ عددها (٦٨٢) مصطلحاً، ووضع مصطلحات إضافية لكرة السلة بلغت (٢٣) مصطلحاً. ويلاحظ أنّ بعض المصطلحات الواردة إلى المجمع أسهل وأوضح وهي معروفة بين رجال التربية البدنية، ومن ذلك لفظة: «الشين» ويراد بها الخطأ، واستعمل «لا» النافية فقال: «تصرف لا رياضي».

ونشر مصطلحات في السكك الحديد وقد تناولت الشؤون الميكانيكية وشؤون النقل وهي (٢٣٥) مصطلحاً. ويلاحظ أن المجمع عرّب بعض الألفاظ وأبقى الأعلام، ووضع ألفاظاً أكثر صعوبة مما اقترح عليه. ومن ذلك «جابية ماء مساعدة» وكان المصطلح الذي ورد إليه «خزّان ماء مساعد» و«سعة وسق» بدل «سعة حمولة» و«الارقال العالي» بدل «سرعة عالية» و«حد الارقال» بدل «حدود السرعة» و«انبتات المواصلات البرقية» بدل «انقطاع المواصلات البرقية» و«السككيون» بدل «منتسبو السكك الحديد».

ونشر مصطلحات آلات مكائن الاحتراق الداخلي لمصلحة نقل الركاب

وهي (١٣٣) مصطلحاً، وما استعملته العامة ولم يرد بالإنكليزية (٣٥) مصطلحاً. ويلاحظ أن المجمع عاد إلى استعمال «لا» النافية فقال: «العماد اللامركزي» وهو حسن ما دام الأقدمون والمعاصرون قد تعارفوا عليه. وكان بعض ما اقترحته المصلحة أوضح من مصطلحات المجمع، ومن ذلك أنه وضع «غمرة التشحيم» بدل «مزيتة» و «العماد اللامركزي» بدل «المحور اللامركزي» و «الكظام» بدل «الحشو» و «الواجنة» بدل «المكبس» و «السدام» بدل «القداحة» أو «السدادة» و «الواجئة» بدل «آلة التخريم» و «الآشبة» بدل «القفل».

ونشر مصطلحات عمال الغزل والنسيج وهي (٧٠) مصطلحاً، ويلاحظ أن المجمع سعى إلى أن يجعل المصطلح كلمة واحدة ونجح في ذلك، وهذا من أحسن ما يتبع في وضع المصطلحات.

ونشر مصطلحات مقاومة المواد وهي (٦١) مصطلحاً، ويلاحظ أن المجمع عرّب بعضها مثل: «ديناميك» وأبقى الأعلام على حالها. وفي بعض هذه المصطلحات غرابة ومن ذلك «معاير الجسوءة» أي الصلاة و «معاير العسو» أي المتانة أو الكبر.

ونشر مصطلحات هندسة الماء وهي (١٨٢) مصطلحاً، ومصطلحات التشريح وهي (١٢٢٠) مصطلحاً. ويلاحظ أنه حرص على وضع كلمة واحدة للدلالة على المصطلح، وهو مما يستحسن في وضع المصطلحات.

ونشر مصطلحات علم الجراحة والتشريح وهي (٢١٣٧) مصطلحاً وقد سارت لجنة المصطلحات الطبية على أسس واضحة هي:

١ ـ اللفظ المستعمل في كتب الأقدمين أولى بأن يستعمل فلا يعدل عنه إلى غيره.

٢ ـ إن أغلب مصطلحات الأمراض تنتهي على القياس بلواحق تدل على نوع المرض فوضعت اللجنة «فَعَل» مقيساً على جنس المرضى و «فُعال» للدلالة على المرض الشديد.

٣ ـ بعض الأسماء تنتهي بلواحق يراد بها معنى الشبه، وأضافت اللجنة الألف

والنون على الاسم لهذا الغرض كاللحماني لشبه اللحم والشحماني لشبه الشحم.

٤ ـ أبقت اللجنة الياء والنون كما في «الكظرين».

٥ ـ اتخذت «فَعول» قياساً لأسماء الأدوية كالسعوط.

٦ ـ استعملت بعض السوابق على وزن «فَعْل» كالفرط والحط والورم والسبق واللحق والبعد والنزر[١].

وكان مجمع اللغة العربية في القاهرة قد أقرَّ استعمال الصدرين «فَرْط» و «هَبْط» ولكنهما لم يشيعا ولو اتجه إلى الترجمة أو وضع كلمات دالة لأحسن إلى اللغة العربية وجنَّبها إدخال صيغ قد تكون ضارة في القياس عليها.

ونشر المجمع مصطلحات الولادة وهي (٥٥٥) مصطلحاً، ومصطلحات علوم المياه في سبعة أقسام وقد بلغت (١٩٠٥) وقد رُوعي في وضعها بعض القواعد الواضحة وهي:

١ ـ إيثار استعمال اللفظ العربي على اللفظ الأجنبي.

٢ ـ إحياء المصطلح العربي القديم إذا كان مؤدياً للمعنى العلمي الصحيح.

٣ ـ تفضيل اللفظ العربي الأصيل على المولد، والمولد على الحديث، إلا إذا اشتهر الأخير.

٤ ـ استعمال اللفظ العربي الأصيل إذا كان المصطلح الأجنبي مأخوذاً عنه.

٥ ـ تجنب النحت ما أمكن ذلك.

٦ ـ تجنب تعريب المصطلح الأجنبي إلاّ في الأحوال الآتية:

أ ـ إذا أصبح مدلوله شائعاً بدرجة كبيرة يصعب معها تغييره.

ب ـ إذا كان مشتقاً من أسماء الأعلام.

جـ ـ في حالة الأسماء العلمية لبعض العناصر والمركبات الكيمياوية.

د ـ إذا كان من أسماء المقاييس والوحدات الأجنبية.

هـ ـ إذا كان مستعملاً في كتب التراث.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي ج ١٦ ص ١٥٤ ـ ١٥٥.

٧ ـ روعيت قواعد معينة في التعريب منها:

أ ـ البدء بالهمزة إذا دعت إلى ذلك ضرورة تجنب البدء بحرف ساكن مراعاة لطبيعة اللغة العربية.

ب ـ استعمال حرف الغين الذي يقابل حرف الجيم غير المعطشة.

جـ ـ كتابة الألفاظ المعربة كما ينطق بها في لغتها مع إيثار الصيغة التي نطق بها العرب.

د ـ تفضيل الصيغة الأوربية الأقرب إلى طبيعة العربية.

٨ ـ النطق بأسماء الأعلام الأعجمية وكتابتها كما ينطق بها في مواطنها ما أمكن ذلك.

٩ ـ اختيار صيغة «مستفعل» في مقابل المصطلحات الدالة على صفة قبول العقل.

١٠ ـ التوسع في صيغة المصدر الصناعي مقابل المصطلحات الدالة على ما يفيد الاتصاف بصفة معينة.

١١ ـ تثبيت صيغتي اللزوم والتعدية في الألفاظ التي تحتملهما.

١٢ ـ الإبقاء على المصطلح العربي الشائع وإن كانت علاقته بالمعنى الأصلي مجازية حسب.

١٣ ـ اللجوء إلى استعمال الألفاظ القصيرة من مصادر ثلاثية بسيطة وأسماء وحروف فيما يقابل صدور بعض الكلمات الإفرنجية الدالة على معانٍ معينة مثل: «رجع الوفق» و«نزع الماء» و«نصف كروي» و«لا عضوي».

١٤ ـ استعمال إحدى الصيغ الآتية للدلالة على الاحتراف:

أ ـ صيغة اسم الفاعل مثل: «فاحص» و«محكم» و«مرقق».

ب ـ صيغة «فَعّال» مثل: «لفّاف» و«غزّال» و«نسّاج».

جـ ـ صيغة «مِفعال» إذا كانت «فعّال» مستعملة مثل: «ملفاف».

د ـ النسبة إلى جمع التكسير مثل: «مقوياتي» و«نضائدي».

١٥ ـ قياسية «مِفْعل» ـ بكسر الميم ـ و«مِفعلة» و«مِفعال»، وصيغة اسم الفاعل مذكراً ومؤنثاً و«فعّالة» و«فِعال» للدلالة على الآلة التي يعالج

بها الشيء مضافاً إليها المسموعات غير القياسية من أسماء الآلات مثل: «مشعل» و«ميزنة مكحلية» و«نابض» و«كاشطة».

ونشر المجمع مصطلحات الهندسة المدنية[1] في ثلاثة أقسام وبلغت (٩١٧) مصطلحاً وقد اعتمدت اللجنة في عملها قاموس الهندسة المدنية (إنكليزي ـ إنكليزي) الذي وضعه (جون. اس. سكوت) واعتمدت التعريفات الواردة فيه. ويشتمل هذا المعجم على مصطلحات الهندسة المدنية في مدلولها الواسع الذي يتضمن البزل والإسالة والصرف والأنهار والقنوات والموانىء والمرافىء والإنشاءات البحرية والقوى المائية والجسور والأنفاق والسكك والطرق والأسس والمطارات وميكانيك التربة والتصاميم الإنشائية. وروعي في إدراج المصطلحات ما يأتي:

١ ـ إذا كان للمصطلح الإنكليزي أكثر من مدلول رقمت هذه المدلولات.

٢ ـ إذا رأت اللجنة في أحوال نادرة عند الضرورة الإبقاء على مصطلحين عربيين أو أكثر لمدلول واحد فيفرق في تلك الأحوال بعلامة بين المصطلحات.

٣ ـ وضع بجنب بعض المصطلحات الإنكليزية رمز للدلالة على فرع الهندسة التي يعود إليها المصطلح[2].

ونشر مصطلحات الكيمياء وهي (٤٧٠) مصطلحاً، ومصطلحات الكيمياء العامة وهي (٥٨٩) مصطلحاً، وألفاظ الحضارة في أدوات البناء وآلاته ومواده وأقسام البيت وغيره من المباني والأثاث واللوازم والأدوات المنزلية والملابس والمنسوجات وقد بلغ عددها (٣٠٣).

ونشر مصطلحات فنون الحضارة القديمة والموضوعات الأخرى القريبة منها مما يكثر تداولها بين الدارسين والباحثين، وقد بلغت (٦٢٩) مصطلحاً.

---

(١) ينظر بحث الدكتور جميل الملائكة في وضع المصطلحات الهندسية في مجلة المجمع ج ١٧ ص ٢٩.

(٢) مجلة المجمع ج ٢٩ ص ٢١٩ ـ ٢٣٠.

ونشر مصطلحات قانون العقوبات وهي (١٢٥) مصطلحاً، ومصطلحات قانون أصول المحاكمات الجزائية وهي (٨٢) مصطلحاً. وقد سارت لجنة الشريعة والقانون في هذه المصطلحات على طريقة المعجم أي تعريف المصطلح تعريفاً موجزاً فمثلاً: «قانون العقوبات» هو: «مجموعة القواعد التشريعية التي تحدد الأفعال الممنوعة قانوناً وتعين عقوباتها». ولم تضع اللجنة المصطلح الأجنبي لينتفع به الدارسون وإن كانت المصطلحات القانونية معروفة منذ سنوات طويلة.

وأبدى المجمع العلمي العراقي رأيه في المصطلحات النفطية التي بعث بها اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية وارتأى تغيير عنوان الكراس من «البترول» إلى «النفط» العربية. ووجد في بعض التعريفات غموضاً أو لبساً وفي بعضها عموماً لا يدخلها في المصطلح العلمي. وكان بعض المصطلحات قد عرّب أو نحت، وفي اللغة العربية ما يقابلها، وبعضها جاء بأكثر من كلمة. وارتأت اللجنة التي نظرت فيها تغيير بعضها تغييراً أساسياً مستندة في ذلك إلى ما تيسر لها من معاجم وتحوير بعضها تحويراً طفيفاً لتنسجم مع القواعد التي نظرت من خلالها إلى معنى المصطلح العلمي الذي ينبغي إقراره.

وأعاد المجمع النظر في مصطلحات مقترحة في التربية البدنية وهي التي نشرها في المجلد الثامن من مجلته وأضاف ما استجد من تسمية لأدوات اللعب وأصوله وأحكامه. وقد بلغت المصطلحات (٥٧٢) مصطلحاً.

وشارك في طبع مصطلحات اتحاد المجامع اللغوية والعلمية العربية فأصدر «مصطلحات نفطية» سنة ١٩٧٦ م وهي ألف مصطلح، وكان مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد أقرّها منذ عهد بعيد. وقد صدرت هذه المصطلحات عن ندوة بغداد التي عقدها اتحاد المجامع ببغداد سنة ١٩٧٣ م.

وأصدر «مصطلحات قانونية» سنة ١٩٧٥ م للاتحاد نفسه ونشر لاتحاد الأطباء العرب «المعجم الطبي الموحد» في طبعته الأولى سنة ١٩٧٣ م والثانية سنة ١٩٧٨ م، وقد وضعه الدكاترة حسني سبح وعبد اللطيف البدري

ومحمد أحمد سليمان ومحمد هيثم الخياط ومحمود الجليلي ومروان محاسني وأحمد عبد الستار الجواري.

وطبع المجمع بعض معاجم المكتب الدائم لتنسيق التعريب ومنها: «معجم مصطلحات الحيوان» سنة ١٩٧٦ م، و«معجم مصطلحات الفيزياء» سنة ١٩٧٧ م، و«معجم مصطلحات الرياضيات» سنة ١٩٧٩ م.

وأصدر في كراسات المصطلحات العلمية التي أقرها ونشر معظمها في مجلته وهي:

١ - مصطلحات صناعة النفط - ١٩٦٨ م.
٢ - مصطلحات علم الجراحة والتشريح - ١٩٦٨ م.
٣ - مصطلحات علم الولادة - ١٩٦٨ م.
٤ - مصطلحات علوم المياه - ١٩٧٦ م.
٥ - مصطلحات في الإلكترون - ١٩٥٩ م.
٦ - مصطلحات في التربية البدنية - ١٩٦١ م.
٧ - مصطلحات في سكك الحديد - ١٩٦٢ م.
٨ - مصطلحات في علم التربة - ١٩٦٠ م.
٩ - مصطلحات في علم الفضاء - ١٩٥٩ م.
١٠ - مصطلحات في هندسة سكك الحديد والري والأشغال وفي الصناعة والملاحة والطيران - ١٩٥٥ م.
١١ - مصطلحات القانون الدستوري - ١٩٥٨ م.
١٢ - مصطلحات قانونية - ١٩٧٥ م.
١٣ - مصطلحات لمصلحة نقل الركاب في آلات وأجهزة مكائن الاحتراق الداخلي - ١٩٦٢ م.
١٤ - مصطلحات مقاومة المواد وهندسة إسالة الماء وعمال الغزل والنسيج - ١٩٦٧ م.
١٥ - مصطلحات نفطية - جيولوجيا وكيمياء - ١٩٧٦ م[١].

---

(١) تنظر في فهرس مطبوعات المجمع العلمي المنشور في مجلة المجمع ج ٢٩ ص ٣١٣ وما بعدها.

لقد تضافرت جهود كثيرة لوضع المصطلحات والنظر في الشؤون العلمية، وكان المجمع العلمي العراقي حريصاً على تدقيق المصطلحات في اللجان العلمية التي كان يشكلها في كل دورة من دورات انعقاده، دؤوباً على نشرها في مجلته أو في كراسات ليرجع إليها الباحثون، وينتفع بها الدارسون. ولم يكن وضع المصطلح سهلاً يسيراً فقد بذلت اللجان العلمية واللغوية جهوداً عظيمة ووضعت أمامها القواعد الأساسية في وضع المصطلح وراجعت المعاجم والكتب العلمية وأسفار التراث وما أقره مجمعا دمشق والقاهرة، فجاءت مصطلحاتها دقيقة موثوقة. وآخر ما وضعته لجنة اللغة العربية في المجمع[1] القواعد العامة لوضع المصطلحات العلمية وهي:

١ - مراعاة المماثلة أو المشاركة بين مدلولي اللفظة لغةً واصطلاحاً ولو لأدنى ملابسة.
٢ - الاقتصار على مصطلح واحد للمفهوم العلمي الواحد.
٣ - تجنب تعدد الدلالات للمصطلح الواحد.
٤ - التزام ما استعمل أو ما استقر قديماً من مصطلحات علمية وعربية وهو صالح للاستعمال الجديد.
٥ - تجنب المصطلحات الأجنبية.
٦ - إيثار اللفظة المأنوسة على اللفظة النافرة الوحشية أو الصعبة النطق.
٧ - لا يشتق من المصطلح إلا بقرار هيئة علمية مختصة بوضع المصطلحات.
٨ - إيثار اللفظة المفردة على المصطلح المركب أو العبارة لتسهيل النسبة والإضافة ونحو ذلك.
٩ - تجنب الألفاظ العامية.
١٠ - تفضيل مصطلحات التراث العربي على المولدات والمحدثات.
١١ - يُلجأ إلى ترجمة المصطلح الأجنبي عند ثبوت دلالته على معناه الاصطلاحي.

---

(١) كاتب هذا البحث أحد أعضائها.

١٢ ـ تجنب تعريب المصطلحات الأجنبية إلّا إذا تعذّر العثور على لفظ عربي موائم.

١٣ ـ ترى اللجنة أن يُراعى عند استعمال الألفاظ الأعجمية ما يأتي:

أ ـ يرجح أسهل نطق في رسم الألفاظ المعربة عند اختلاف نطقها باللغات الأعجمية.

ب ـ إحداث بعض التغيير في نطق المصطلح المعرّب ورسمه ليتسق مع النطق العربي.

١٤ ـ تجنب استعمال السوابق واللواحق الأجنبية لأن اللغة العربية لغة اشتقاقية وليست إلصاقية، ووجوب اعتماد الأساليب العربية في وضع المصطلحات.

١٥ ـ يستعمل كل لفظ من الألفاظ المترادفة في معناه الخاص في المصطلحات العلمية لأن الترادف كثيراً ما يكون أوصافاً للأشياء لا يراد بها المطابقة التامة في المعنى إذ يلحظ أن لكل لفظ معنى خاصاً به يختلف عن سواه ولو شيئاً قليلاً فيمكن أخذه واستعماله ولو بطريقة المجاز، وكذلك تمكن الاستفادة من المترادفات التي لا تلحظ فيها الوصفية يخص بها كل منها بمصطلح علمي خاص.

ووضعت لجنة اللغة العربية نفسها قرار النحت وهو «عدم جواز النحت إلّا عند عدم العثور على لفظ عربي قديم واستنفاد وسائل تنمية اللغة من اشتقاق ومجاز واستعارة لغوية وترجمة على أن تلجىء إليه ضرورة قصوى، وأن يراعى في اللفظ المنحوت الذوق العربي وعدم اللبس».

ولا تزال كثير من قرارات المجمع العلمي العراقي طيّ محاضر الجلسات ومن المؤمل أن تنشر في مجلته، ولا يزال المجمع ينظر في المصطلحات العلمية ويهيّئها لتكون نافعة في عملية التعريب في القطر العراقي. وقد نصّت المادة التاسعة من «قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية» رقم ٦٤) لسنة ١٩٧٧ م على أن «يكون المجمع العلمي العراقي المرجع الوحيد في وضع المصطلحات العلمية والفنية، وعلى الأجهزة المعنية الرجوع إليه بشأنها».

رأي:

لقد بذل المجمع العلمي العراقي جهوداً كبيرة في وضع المصطلح العلمي مثلما بذلت المجامع العربية الأخرى، والرأي أن تعدد المصطلحات واختلاف أسس وضعها لا يخدم اللغة العربية والحركة العلمية التي يشهدها الوطن العربي وأن السعي إلى تنسيق الجهود ووضع المبادىء العامة أول متطلبات توحيد المصطلح. ولعل من أهم ما يحقق هذا الهدف أمرين:

الأول: دراسة الأسس التي وضعتها المجامع العربية واستخلاص ما يُتفق عليه ليكون منهجاً لكل مجمع أو باحث أو مترجم.

الثاني: مراجعة المصطلحات التي وضعتها المجامع والأخذ بما اتفقت عليه وتعديل أو تبديل ما كان الخلاف فيه كبيراً.

ويتم ذلك بوسائل كثيرة منها:

١ ـ أن يعيد كل مجمع النظر فيما أصدر من مصطلحات ويوازنه بما أصدرت المجامع الأخرى.
٢ ـ أن تشكل لجان مشتركة للنظر في المصطلحات بعد أن تقدم المجامع دراستها.
٣ ـ أن تقوم هذه اللجان بتوحيد المصطلحات في ضوء الأسس التي اتفقت عليها المجامع والدراسات التي قدمتها.
٤ ـ أن تقترح هذه اللجان دراسة ما استجدَّ من المصطلحات العلمية وتقدمها إلى المجامع لتدرسها وتضع لها الألفاظ العربية.
٥ ـ أن يقوم اتحاد المجامع العربية أو أية هيئة عربية بطبع المصطلحات الموحّدة لتكون بين أيدي الباحثين والمترجمين.

وتحقيق ذلك ليس بالصعب ففي الوطن العربي طاقات علمية كبيرة وأموال طائلة وقلوب مؤمنة ونفوس متوثبة، وخير ما يقدمه هذا الجيل علم تنتفع به الأجيال القادمة.

المصـــادر:

١ - البرهان في وجوه البيان - ابن وهب الكاتب البغدادي - تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي. بغداد ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م.
٢ - البستان - عبد الله البستاني. بيروت ١٩٢٧ م.
٣ - حركة التعريب في العراق - الدكتور أحمد مطلوب. الكويت ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٤ - الحيوان - الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٨ م.
٥ - دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات - الدكتور أحمد مطلوب. بيروت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
٦ - مجلة المجمع العلمي العراقي - ج (٢). بغداد.
٧ - مجلة المجمع العلمي العراقي - ج (٣). بغداد.
٨ - مجلة المجمع العلمي العراقي - ج (١٣). بغداد.
٩ - مجلة المجمع العلمي العراقي - ج (١٣). بغداد.
١٠ - مجلة المجمع العلمي العراقي - ج (٢٩). بغداد.
١١ - المصطلحات العلمية - مصطفى الشهابي. القاهرة ١٩٥٥ م.
١٢ - نقد الشعر - قدامة بن جعفر - تحقيق كمال مصطفى. القاهرة ١٩٦٣ م.

٨
تعريب العلوم في الجامعات
المصطلحات والأعلام



التعـريــب:

الإعراب والتعريب معناهما واحد، وهو الإبانة، يقال: أعرب عن لسانه وعرّب أي: أبان وأفصح. وتعريب الاسم الأعجمي أن تتفوّه به العرب على منهاجها، ويسمى ذلك «المعرّب» وهو كما قال السيوطي: «ما استعملته العرب من الألفاظ الموضوعة لمعانٍ في غير لغتها»[1].

والتعريب في هذا العصر مصطلح نستعمله للدلالة على الطرق المختلفة للتعبير عن مفاهيم ومصطلحات غير عربية باللغة العربية أي أنه لا يعني اقتراض المصطلحات وحدها وإنما البحث والتأليف باللغة العربية. وهذا ما تسعى إليه الأمة العربية في نهضتها العلمية المباركة وما يهدف إليه المكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط وما تريد تحقيقه المؤسسات العلمية كالمجامع والجامعات والهيئات.

وقد كانت الدعوة إلى التعريب بهذا المعنى الواسع قديمة عرفها العرب في جاهليتهم حينما دخلت لغتَهم ألفاظٌ من لغات أخرى وحينما عبَّروا عن

(*) ألقي ونوقش في المركز الثقافي لجامعة البصرة مساء يوم الأربعاء ٤ نيسان ١٩٧٩ م ونشر في العدد السادس عشر من مجلة صوت الجامعة الصادر في أيار ١٩٧٩ م، وألقي في كلية الفقه بالنجف يوم الأحد ٣٠ آذار ١٩٨٠ م (١٣ جمادى الأولى ١٤٠٠ هـ)، وألقي في جامعة وهران بالجزائر مساء الإثنين ٥ أيار ١٩٨٠ م (٢٠ جمادى الثانية ١٤٠٠ هـ).

(١) المزهر ج ١ ص ٢٦٨.

حاجاتهم وأغراضهم المختلفة بأسلوب عربي مبين. وحينما تفتحت الحياة العربية بعد الإسلام كان التعريب مَعْلماً من معالم الحضارة الجديدة والتقدم في العلوم والآداب. وكان للترجمة نصيب كبير من هذه الحركة، ولعل تعريب الدواوين في العصر الأموي كان من أبرز ما شهدته الساحة العربية إلى جانب تعريب العلوم التي أخذت تنمو وتزدهر بازدهار الأمة وتقدمها. وكان للعلماء الذين انتشروا في بقاع الدولة العربية الكبرى دور عظيم في سبيل العلم، فقد قدّموا أعظم ما يطمح إليه الإنسان في ذلك العصر وخدموا البشرية خدمة جلّى بما وضعوه في العلوم المختلفة. وكانت لهم مشاركات جادّة في العلم فألقوا في فروعه كالطب والبيطرة والنبات والحيوان والفلاحة والرياضيات والصيدلة. وتحدثوا عن فروع علم الطب كالتشريح والكحالة والجراحة، وعن فروع الهندسة كعقود الأبنية والمنظر ومراكز الأثقال والمساحة وإنباط المياه، وعن فروع علم العدد كحساب التحت والجبر والمقابلة وحساب الخطأين. وكانت لهم كتب كثيرة في هذه الفروع، وقد حفلت بها كتب الفهارس والمصادر وان الباحث ليعجب حينما يرى توفيق القدماء في وضع المصطلحات ودقتهم في التعبير عما تحدثوا فيه، ويعجب من اتساع اللغة لهذه العلوم والقدرة على التطور العظيم الذي دخل المجتمع العربي.

ولم يكن العرب في هذه الميادين نقلة فحسب، وإنما أضافوا كثيراً من إبداعهم وقد اعترف المنصفون بذلك فقال الدكتور سارتون: «إن بعض الغربيين الذين يجربون أن يستخفوا بما أسداه الشرق إلى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً، وهذا الرأي خطأ. ولو لم تنقل إلينا كنوز الحكمة اليونانية ولولا إضافات العرب المهمة لتوقف سير المدنية بضعة قرون»[1]. وقال الدوميلي: «ولكن ينبغي أن لا نظن أن العرب لم يضيفوا شيئاً جديداً إلى العلم الذي كانوا أوصياء عليه بل على النقيض من ذلك. وإذا كانت خطوات التنمية والإنضاج التي خطوها في هذا السبيل كثيراً ما ضاعت وتفرقت في الحشد الكبير من الكتب التي تركوها

---

(١) العلوم عند العرب ص ١٧.

فليست تلك الخطوات أقلَّ أصالة وأبعد عن الواقع من أجل ذلك وليس لأحد أن يقول ـ كما يقرر ذلك بعض المؤلفين ـ إن دور العرب ينحصر ببساطة في المزج والنقل لمعارف الأقدمين التي لولاهم لذهبت أدراج الرياح، الأمر الذي هو في ذاته عنوان فخر عظيم وشرف لا يستهان به»[1]. وهذه شهادة أجانب قَدَروا الأمة العربية حقّ قدرها وأظهروا حياتها المشرقة ونضالها في سبيل العلم والحياة الحرة الكريمة. ولولا ما أصاب الأمة من ضيم وغزو واحتلال لظلت ترفد العالم بكل نافع وتنير السبيل في ظلمات لفّت العالم قروناً.

ولم تتطور اللغة العربية بعد أن ران على الأمة الجمود، ولو ظلت نابضة بالحياة لكان لها شأن غير ما رأيناه في مطلع القرن العشرين. وحينما بدأ الاتصال بالعالم من جديد أحسّ العرب أنّ حياتهم لا بدّ من أن تتغير، وأن جمودهم لا بدّ من أن تدبّ فيه الحياة. وهكذا كان فقد اندفعت الطلائع تحيي ما كان وتأخذ من الغرب ما فيه النفع، وبذلك بدأ الجمود يذوب وبدأت الحركة العلمية تنشط. وكان للروّاد فضل كبير في إنماء اللغة وتطورها فقد بذلوا جهوداً محمودة ووضعوا مصطلحات تعبّر عن الجديد وأصدروا مجلات تخدم العلم وتحقق أهدافه. وشاء الله أن يعيد إلى العربية مكانتها في ظل المعاهد العلمية التي قامت في عصر النهضة، وكانت مدرسة القصر العيني في القاهرة تدرّس الطب باللغة العربية ويضع أساتذتها الكتب بها. ودرّست الجامعة الأميركية في بيروت أول إنشائها الطبَّ باللغة العربية ووضع أساتذتها الكتب النافعة، ولكن هذين المعهدين تنكرا للعربية فيما بعد وسادت لغة المستعمر وفرضت على أبناء الأمة فرضاً. ولو استمر المعهدان على ما كانا عليه ما توقفت حركة التأليف ولنال العرب خيراً عظيماً، ولكن الغزاة المستعمرين أبوا إلّا أن يُنشبوا مخالبهم ويظهروا نواياهم. وظل الأمر كذلك لا يجرؤ أحد على الدعوة إلى التدريس باللغة العربية حتى وقفت سورية بصفاء عروبتها للمستعمرين وفرضت لغتها على معاهد العلم، وظلت جامعاتها متمسكة بما بدأه الروّاد غير ملتفتة إلى ما يشاع من تردي المستوى العلمي.

---

(١) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ص ١٤٤.

وكانت وقفة جامعة دمشق بوجه لغة المستعمر حافزاً للأقطار العربية الأخرى فأخذ المؤمنون بأمتهم والحريصون على استقلالها يبذلون الجهد ويسهرون الليالي حتى تهيأ لكثير منهم ما سعوا إليه، وظهرت مئات الكتب العلمية إن لم نقل الآلاف، وبدأت بعض الكليات العلمية تدرّس بالعربية وتدفع الطلاب إلى التمسك بلغتهم والحفاظ عليها وتطويرها لتستجيب لمتطلبات العصر وتقدمه العلمي.

وكانت ثورة القطر العراقي ثورة قومية وسياسية واجتماعية وعلمية، وقد أولت التعليم الجامعي عناية عظيمة، وأعطت المؤمنين بأمتهم ثقة كبيرة حينما أقرّت تدريس العلوم كافة باللغة العربية لتحقق هوية الجامعات القومية ولتكون جزءاً من هذا الوطن الخيّر والأمة المعطاء. إن قرار حكومة الثورة بتعريب العلوم في الجامعات خطوة تقدمية سعت إلى تحقيق الذات أولاً وإلى اشتراكية العلم ونشره بين الناس بعد أن كان لمن تهيأت له الأسباب.

لماذا التعريب:

لقد سألنا في ندوة التعريب بطرابلس عام ١٩٧٥ م: لماذا التعريب[1]؟ وقلنا: اللغة العربية أهم مقومات الوحدة العربية وهي السمة الأساسية التي تربط العرب في كل مكان. واللغة العربية وعاء لتراثنا وحضارتنا ونور يُضيء لنا المستقبل ويحفظ كياننا بين الأمم ولذلك فهي أولى علامات النصر في معركة تحقيق الذات، ولا تستطيع أمة أن تحقق ذاتها من غير لغة. وقد سعت الكيانات الطارئة إلى اصطناع لغات لها أو إحياء لغاتها القديمة التي عفّى عليها الزمن وصارت طقوساً تتلى في المعابد. ونحن إذا أردنا أن نبني جيلاً صالحاً يرتبط بوطنه وأمته لا بدّ من أن نعلّمه لغته ليتخذها وسيلة للعلم وإتقانه، وأن التهاون في ذلك معناه فَصْلُه عن أمته وتوجيهه نحو الثقافة الأجنبية وحدها وركونه إلى ما يكتب الأجانب وفي ذلك قضاء عليه وإذلال لأمته ووطنه. ومن أجل ذلك قامت حركة التعريب لتعيد إلى الأمة العربية

---

(١) ينظر دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات ص ٣٣ وما بعدها.

كيانها وتحفظ وجودها في هذا العالم المتصارع. فالتعريب قضية قومية تخصّ العرب كلهم وإن الإعراض عنها تنكر للأمة وطعن في أهم مقوماتها، ومن استبدل لغة بلغته خسر قوميته وفقد كيانه.

وقلنا: إن التدريس باللغة العربية يدفع إلى التقدم ويخدم العلم ويخلق أجيالاً قادرة على الفهم الدقيق والتطور؛ لأن اللغة لا تنفصل عن التفكير، ومن فكّر بلغته كان أقدر من غيره على العمل والإبداع. وقلنا: إن التدريس بالعربية يُشيع العلم بين الناس، فقد انتهى ذلك الزمان الذي كان العلم فيه ملكاً لطبقة خاصة، وكان الإسلام قد دعا إلى العلم منذ قرون، وفضّل الله الذين يعلمون وكرّم العلماء، وهو ما تسعى إليه الشعوب الناهضة في هذا العصر.

ولكن هذا السؤال: «لماذا التعريب؟»، لم يعد له مبرر بعد أن تبنّت الثورة وقيادتها السياسية حركة التعريب وبعد أن بدأت جامعات القطر تدرّس العلوم باللغة العربية وأخذت المؤسسات العلمية تنفّذ القرار الثوري وتسعى حثيثة إلى تحقيق الأهداف.

لقد أصبح التعريب حقيقة لا ريب فيها، وإذا كنا قد سألنا قبل أعوام: لماذا التعريب؟ فنحن نسأل اليوم: كيف التعريب؟.

كيف التعريب:

التعريب بمعناه الجديد تدريس العلوم المختلفة باللغة العربية، ولذلك فهو ذو شقين:

الأول: التأليف والتدريس والشرح باللغة العربية، وهذه مسألة ليس فيها من الصعوبة ما يدفع إلى التردد أو النكوص. وليس بدعاً أن يكون التدريس باللغة العربية، فكل الدول التي تخدم نفسها وتعتزّ بكيانها تدرّس بلغاتها الخاصة ولم تبق إلّا الدول التي تحررت من الجيوش الغازية ولم تتحرر من آثار الغزاة، وإلّا الشعوب المستعبدة التي لا تزال ترزح تحت وطأة الاستعمار. وقد تحرر القطر العراقي من تلك الآثار وأصبح دولة حرة مستقلة ليس لأحد

عليه سلطان، وصار التدريس باللغة العربية في جامعاته سمة من سمات ذلك التحرر ومعلماً من معالم تقدمه وازدهاره.

الثاني: المصطلحات، وهذه مسألة تحتاج إلى جهود كبيرة وصبر عظيم، ولن تتم عملية وضع المصطلحات بين عشية وضحاها أو أن نغفو على حلم جميل ونستيقظ على آلاف المصطلحات. إن العرب قديماً بذلوا من الجهود ما لا نتصوّر، وإن الأجانب في هذه الأيام يبذلون من الطاقة أكثر مما نتصوّر، فليست الصعوبة خاصة باللغة العربية وإنما تشمل اللغات كلها، فدولة كفرنسة تصطدم كل يوم بصعوبات جمة ولكنها تخرج بهمة رجالها وإخلاص أبنائها منتصرة من غير أن تلجأ إلى مصطلحات أجنبية إلّا ما كان عاماً أو علماً من الأعلام. وأمام العاملين في ميدان التعريب وسائل كثيرة لوضع المصطلحات وهي وسائل جربها الأوائل ونجحوا فيها كل النجاح، وهذه الوسائل أربع:

الأولى: البحث في المعجمات العربية واستخلاص ما وضع من مصطلحات العلوم قديماً، وسنجد فيها الكثير مما يسهل المهمة ويمدّ الدارسين بما ينفع ويبدد المصاعب. ويكون ذلك بجرد المعجمات المبسوطة كلسان العرب وتاج العروس وغيرها، واستخراج كل كلمة استعملت مصطلحاً للدلالة على علم من العلوم أو جزئيّة من ذلك العلم.

الثانية: تكون باستعمال الألفاظ القديمة للدلالة على المسميات الجديدة وإن كان لها معنى لغوي معروف؛ لأن المصطلح ليس مما يستعمله أصحاب اللغة أو عامة الناس وإنما هو خاص بأصحاب الفنون والصناعات والعلوم. ونرى لكثير من المصطلحات القديمة دلالة لغوية ولكن حين يستعملها أصحاب العلم لا ينصرف الذهن إلى تلك الدلالة وإنما يفهم منها المعنى الجديد. وأمثلة ذلك كثيرة في القديم والحديث، ومنها الألفاظ الشرعية والنحوية والصرفية والعروضية والفلكية والعلمية مما عرفه القدماء أو المعاصرون، ولولا ذلك ما كان للحضارة العربية الإسلامية أثر أو قيمة أو دليل. وقد تطلق كلمة واحدة للدلالة على مصطلحات مختلفة في علوم

متباينة، من ذلك كلمة «جمع»[1] فإن معناها اللغوي ضم الشيء إلى الشيء أو أنها جماعة من الناس، ولكن العلماء استعملوها للدلالة على أشياء أخر، فعالم الحساب يعني بها زيادة عدد إلى عدد آخر، وعالم أصول الفقه يريد بها «الجمع بين الأصل والفرع لعلة مشتركة بينهما ليصح القياس». وعالم البلاغة يريد بها «الجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد»، وعالم النحو يريد بها صيغة الجمع وهي ليست التثنية أو الإفراد، وهي عدة أنواع: جمع المذكر السالم وجمع التكسير وجمع المؤنث السالم وجمع القلة وجمع الكثرة، وصاحب التصوف أو المنطق يريد بها غير ما يريده الآخرون. وأخذت من كلمة «الجمع» صيغ أخرى من ذلك «الجامع» وهو المكان الذي يجتمع فيه المسلمون لأداء فريضة الصلاة و«الجامعة» وهو المكان الذي يجتمع فيه الناس لتلقي العلم، و«الجمعية» وهي عند المتصوفة «اجتماع الهمم في التوجه إلى الله تعالى والاشتغال به عما سواه»، وعند المعاصرين[2] «الجمعية العامة» و«الجمعية الأدبية» و«الجمعية العلمية» و«الجمعية الاستهلاكية» و«الجمعية التعاونية» و«المجمع» وهو المركز العلمي الذي يضمّ نخبة من العلماء والمفكرين، وغير ذلك من الكلمات ذات الدلالات الخاصة.

إن الكلمة الواحدة قادرة على أن تعبر عن عدة مصطلحات لعلوم مختلفة ولن يحدث التباس أو فوضى لأن صاحب كل علم أو فن يعرفها ولا يتبادر إلى ذهنه غير ما يتصل بعلمه حينما يسمعها أو يقرأها في كتاب أو بحث يخصه وبذلك نستغلّ طاقات اللغة استغلالاً كبيراً ونرفد العلم بمصطلحات كثيرة.

الثالثة: تكون بالعودة إلى الكتب العلمية القديمة والإفادة منها وسنجد الكثير من المصطلحات والأسماء كأسماء النبات والحيوان وتشريح جسم الإنسان ومظاهر الطبيعة المختلفة. وقد التفت مجمع اللغة العربية إلى هذه المسألة واتخذ قراراً بذلك قال فيه: «ينظر المجمع في اختيار مختصين بشؤون

---

(١) ينظر التعريفات ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) ينظر علم اللغة العربية ص ٣٠٣ وما بعدها، اللغة العربية عبر القرون ص ١٠٥ وما بعدها.

العلوم العربية لإخراج المصطلحات العلمية القديمة من الكتب العربية وعرض كل فرع على اللجنة المختصة».

ثم قال: «تدرس كتب العرب القديمة المتصلة بالمصطلحات العلمية ويعمل لكل كتاب منها معجم بالمصطلحات التي وردت فيه بحيث تكون هذه المعاجم في متناول الأيدي عند التعريب»[1].

فإذا تمت هذه الخطوات الثلاث وظل الكثير ليس له مصطلح كانت الخطوة:

الرابعة: وهي الاستعانة بوسائل نمو اللغة وتطورها، وهي تغني في هذه المهمة، ولن يخيب الدارسون إذا أحسنوا استخدامها والتصرف بها. ومن وسائل نمو اللغة التي تساعد على نجاح تدريس العلوم باللغة العربية: المجاز والاشتقاق والنحت والارتجال والتوليد والقياس والاقتراض[2]، ولكي تكون هذه الوسائل واضحة نعرض لها باختصار تاركين التفصيل للاقتراض لأنه لا يتصل باللغة العربية أساساً ولأنه أجنبي يدخله التعريب.

١ ـ **المجاز**: هو نقل الكلمة من المعنى القديم إلى معنى جديد مع قرينة تدل على ذلك النقل. وكان المجاز باباً واسعاً دخله العرب للتفنن والإبداع، وكان من أكثر وسائل التصوير وأوسعها أفقاً وأبعدها مدى. وهو من أساليب الأدباء لا العلماء الذين يسعون إلى الدقة في التعبير وتحديد المعنى والمصطلح تحديداً دقيقاً، ولذلك نرى أن لا يكثر استعماله في العلم إلّا عند الضرورة لأنه بعيد المسالك متشعب الأغوار، وربما أدّى استعماله إلى الاضطراب إلّا إذا أصبح حقيقة علمية بعد التداول والاستعمال، وكان القدماء يقولون: إن المجاز إذا كثر استعماله لحق بالحقيقة أي أنه يستقر ويتخذ صورة دقيقة.

٢ ـ **الاشتقاق**: وهو أخذ كلمة أو أكثر من أخرى لمناسبة بين المأخوذ

(١) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ـ مجموعة القرارات العلمية ص ١٣٧.
(٢) ينظر دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات ص ٦٩ وما بعدها.

والمأخوذ منه في الأصل اللفظي والمعنوي ليدل بالثانية على المعنى الأصلي مع زيادة مفيدة لأجلها اختلفت بعض حروفها أو حركاتها أو هما معاً. والاشتقاق من أهم خصائص اللغة العربية وهو الذي يرفدها بكثير مما تحتاج إليه، ولولاه لتوقفت اللغة منذ عهد بعيد، ولذلك كانت الإفادة منه ضرورية في وضع المصطلحات وتحديدها. وقد حصره القدماء في مسائل معينة ولم يطلقوه ولكننا في هذا العصر نحتاج إليه في العلوم ووضع مصطلحاتها لذلك لا ينبغي أن نقف عند القواعد الثابتة وإنما نحاول أن نتخطاها لأجل خدمة التعريب. وفي كلام القدماء ما يؤيد ذلك ويدفع إلى العمل السليم فهم قد اشتقوا من أسماء الأعيان وأسماء المعاني وحروف المعاني وحروف المباني وأسماء الأصوات، واشتقوا من العدد وأسماء الأزمنة والأمكنة والقبائل والأقارب وأعضاء الجسم. وقد اتخذ مجمع اللغة العربية في القاهرة قراراً في الاشتقاق من أسماء الأعيان للضرورة في لغة العلوم[1]. وهذا قرار حسن يدفع الباحثين إلى الاستفادة من وسيلة الاشتقاق في إغناء العلم بالمصطلحات.

٣ ـ **النحت**: هو أخذ كلمة من كلمتين أو أكثر مع المناسبة بين المأخوذ والمأخوذ عنه لكي لا يحدث التباس، ويلجأ إليه أصحاب اللغة للاختصار. والنحت معروف عند العرب وهو سماعي إلّا عند أحمد بن فارس الذي يرى أنه قياسي بدليل أن كثيراً من الكلمات الرباعية والخماسية تألفت منه[2]. ويجيء النحت على ألوان إمّا من جملة للدلالة على التحدث بهذه الجملة، أو من علم مؤلف من مضاف ومضاف إليه، أو من أصلين مستقلين، أو من أصول مستقلة للدلالة على معنى مركب في صورة ما من معاني هذين الأصلين أو الأصول. ومما يجب مراعاته عند النحت المحافظة على انسجام الحروف وأوزان الكلمات العربية لئلا يصبح غريباً لا يستسيغه الذوق. ويمكن أن يفيدنا في وضع المصطلحات

---

(١) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ـ مجموعة القرارات العلمية ص ٧.

(٢) الصاحبي ص ٢٧١.

الجديدة على أن لا نسرف في ذلك ولا نخرج على اللغة فنسيء إليها أو نشتط فيذهب عملنا هباءً. ولا ندري أية فائدة فيما ذكره الأستاذ عبد الله أمين[1] من أمثلة جديدة للنحت تصورها تصوراً من غير أن تدعو الحاجة إليها كقوله في «فحم السكر»: «فحمس أو فسكر أو فحسك أو فحكر» ثم أليس من العبث أن نقول في «آزوت + أوكسجين + فضة»: «أز اكفض» بدلاً من «آزوتات الفضة»؟ إن ما تعارف عليه العلماء وما استقرت عليه العلوم ينبغي أن يبقى، ونرى أن استعمال الكلمتين خير وأجدى إذا أدّى النحت إلى مثل هذه المصطلحات التي لا يقبلها الذوق اللغوي السليم ولا التحديد العلمي القويم. ولأهمية النحت اتخذ مجمع اللغة العربية قراراً بجوازه على أن يراعى ما أمكن استخدام الأصلي من الحروف دون الزوائد[2]. وهذا ما ذهب إليه بعض القدماء وبذلك لم يخرج المجمع على اللغة ويَسَّر الإفادة من النحت واللجوء إليه عند وضع المصطلحات العلمية.

٤ ـ **الارتجال**: هو وضع كلمات جديدة لم تكن معروفة أو مستعملة من قبل. وهو لا يخرج على روح اللغة التي قيل في تعريفها إنها «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[3]. وفي ذلك مجال لأن يستحدث المهتمون بالتعريب ألفاظاً جديدة تعبر عن حاجاتهم المتطورة والمتغيرة على أن لا تخرج على أوزان اللغة وأبنية صيغها.

فالارتجال وسيلة من وسائل نمو اللغة ووضع المصطلحات، ونحن حينما ندعو إليه لا نقصد وضع كلمات جديدة تؤدي معاني أدّتها كلمات قديمة، وإنما ندعو إلى أن يؤخذ به في وضع المصطلحات الجديدة مما تمسّ الحاجة إليه، وهو ما يفعله الأجانب اليوم، فالكثير من مصطلحاتهم وأسمائها العلمية مرتجل. وفي اللغة العربية ما يعين عليه فحروفها تخلق

---

(١) الاشتقاق ص ٤٣٩.

(٢) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ـ مجموعة القرارات العلمية ص ٩.

(٣) الخصائص ج ١ ص ٣٣.

ملايين الكلمات لم يستعمل منها إلاّ القليل، ويمكن الإفادة من غير المستعمل إذا خيف الالتباس ولكي لا تستعمل الكلمة الأولى لأكثر من معنى أو مصطلح على أن يراعى الائتلاف في الحروف، ويترك ما لا يجوز ائتلافه في كلام العرب، وبذلك نخلق مصطلحات لأشياء مستحدثة، ونضع أسماءً لمخترعات جديدة.

٥ ـ **التوليد**: تحدث القدماء عن المولد وقالوا إنه «ما أحدثه المولدون الذين لا يحتج بألفاظهم»[١] وهو عند المعاصرين: «لفظ عربي البناء أعطي في اللغة الحديثة معنىً مختلفاً عما كان العرب يعرفونه»[٢].

والتوليد مما يلجأ إليه الباحثون لوضع المصطلحات والكلمات الجديدة التي يحتاج إليها العلم، وقد نجحت محاولات الباحثين في هذا المجال واستطاعوا أن يعمدوا إلى الألفاظ القديمة ذات الدلالات المندثرة وأن يطلقوها على مستحدثات هذا العصر. وكانت القاعدة الأساسية في ذلك وجود ملابسة بين القديم والجديد كما حدث في ألفاظ الجريدة والمجلة والسيارة والقطار وغيرها. ولكن هذه الوسيلة قد تحمل بعض المخاطر إن لم يتفق أولـو الشأن والمجامع والمؤسسات العلمية على دلالة الكلمة الجديدة خشية أن تستعمل في قطر استعمالاً يختلف عن استعمال الأقطار الأخرى مما يثير البلبلة ويبعث على الاضطراب وتعدد المصطلحات للمسمى الواحد. وقد أحسن مجمع اللغة العربية صنعاً حينما حدّد المولّد وما يؤخذ عنه بقوله: «المولد: هو اللفظ الذي استعمله المولدون على غير استعمال العرب، وهو قسمان:

الأول: قسم جروا فيه على أقيسة كلام العرب من مجاز أو اشتقاق أو نحوهما كاصطلاحات العلوم والصناعات وغير ذلك، وحكمه أنه عربي سائغ.

الثاني: قسم خرجوا فيه عن أقيسة كلام العرب إما باستعمال لفظ

---

(١) المزهر ج ١ ص ٣٠٤.
(٢) كلام العرب ص ٧٩.

أعجمي لم تعرّبـه العرب ـ وقد أصدر المجمع في شأن هذا النوع قراره ـ وإما بتحريف في اللفظ أو في الدلالة لا يمكن معه التخريج على وجه صحيح، وإما بوضع اللفظ ارتجالاً. والمجمع لا يجيز النوعين الأخيرين في فصيح الكلام»[1]. ولسنا نريد المولد بمعناه القديم وإنما نريد توليد أسماء ومصطلحات من كلمات عربية كانت تدل على معان أصبحت بعيدة عن عصرنا، ولكي نيسر عملية التعريب نرى الأخذ بهذه الوسيلة عند الحاجة القصوى وحينما لا يقع لبس أو اضطراب.

٦ ـ **القياس**: هو حمل مجهول على معلوم، وحمل غير المنقول على ما نقل، وحمل ما لم يسمع على ما سمع في حكم من الأحكام وبعلّة جامعة بينهما.

وكان القياس وسيلة من وسائل نمو اللغة العربية وتوسعها واطرادها، ويمكن الركون إليه في وضع المصطلحات العلمية.

٧ ـ **الاقتراض**: هو أخذ كلمة أو أسلوب من لغة واستعمالها في لغة أخرى. وقد استعمل اللغويون المحدثون هـذا المصطلح واستعمـل القدمـاء مصطلحاً آخر وسموا المنقول «المعرَّب»، وهو عندهم «استعمال العرب للألفاظ الموضوعة لمعانٍ في غير لغتها»، وقالوا عن تعريب الاسم الأعجمي «أن تتفوه به العرب على منهاجها»[2]، وقالوا عن التعريب أيضاً أنه «نقل اللفظ من العجمية إلى العربية»[3].

والمعرَّب قديم لجأ إليه العرب حين اتسعت حياتهم واتصلوا بالثقافات الأجنبية، وكانوا أحياناً مضطرين إلى الاقتباس من اللغات الأجنبية. ولكنهم لم يخضعوا لروح تلك اللغة وإنما صبغوا المعرّب بروح لغتهم فأبـدلوا الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً، وكان الإبدال لازماً لئلا يُدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم

---

(١) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً ـ مجموعة القرارات العلمية ص ٦.
(٢) المزهر ج ١ ص ٢٦٨.
(٣) شفاء الغليل ص ٢٣.

أو تكون الكلمة نابية عن الذوق العربي، وربما غيروا البناء من اللسان الأعجمي إلى أبنية العرب.

والأسماء الأعجمية على ثلاثة أقسام:

الأول: قسم غيرته العرب وألحقته بكلامها فحكم أبنيته في اعتبار الأصلي والزائد والوزن حكم أبنية الأسماء العربية الوضع.

الثاني: قسم غيّرته ولم تلحقه بأبنية كلامها فلا يعتبر فيه ما يعتبر في القسم السابق.

الثالث: قسم تركوه غير مغير.

وتعرف عجمة الاسم بوجوه:

الأول: النقل بأن ينقل ذلك أحد أئمة العربية.

الثاني: خروجه عن أوزان الأسماء العربية مثل: «أبريسم».

الثالث: أن يكون أوله نونٌ ثم راء مثل: «نرجس» فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية.

الرابع: أن يكون آخره زايّ بعد دال مثل: «مهندز» فإن ذلك لا يكون في كلمة عربية ولذلك غيروه إلى «مهندس».

الخامس: أن يجتمع فيه الصاد والجيم مثل: «الجص».

السادس: أن يجتمع فيه الجيم والقاف مثل: «المنجنيق».

السابع: أن يكون خماسياً ورباعياً عارياً من حروف الذلاقة وهي: الباء والفاء واللام والميم والنون فإنه متى كان عربياً فلا بدّ من أن يكون فيه شيء منها(١).

وهذه مسألة ينبغي الالتفات إليها عند تعريب المصطلحات الأجنبية لئلا تخرج على الذوق العربي في اجتماع الحروف، وقد تحدّث الجاحظ عن تنافر الحروف فقال: «فأما في اقتران الحروف فإن الجيم لا تقارن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا بتأخير. والزاي لا تقارن الظاء ولا السين

---

(١) ينظر ارتشاف الضرب الورقة ١٢، المزهر ج ١ ص ٢٦٩.

ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير»[1]. وذهب إلى ذلك اللغويون العرب فقال الفارابي عن كلمة «الجبت»: «وهذا ليس من محض العربية لاجتماع الجيم والتاء في كلمة من غير حرف ذولقي»[2]. وهذه قاعدة أساسية ينبغي الأخذ بها في وضع المصطلحات لئلا تأتي نابية عن الذوق العربي السليم، أو لئلا يطغى مثل هذا الارتباط بين الحروف في اللغة العربية فتصبح لغة عجمة ورطانة بعد أن كانت لغة فصاحة وبيان.

إن استعمال العرب القدماء للمعرب أدّى إلى تطوير العلوم التي دخلت حياتهم بعد أن استقروا وأقاموا حضارة راسخة البنيان، وإذا كانوا يحددون زمن التعريب بالقرن الرابع للهجرة فإننا نرى استعماله في كل عصر لحاجتنا إليه في العلوم. وقد وضع القدماء والمحدثون كتباً في المعرب والدخيل ومن ذلك كتاب «المعرّب» للجواليقي و«شفاء الغليل» للخفاجي و«رسالة في تعريب الألفاظ الفارسية» لابن كمال باشا وكتاب «التقريب لأصول التعريب» للشيخ طاهر بن صالح الجزائري وكتاب «الاشتقاق والتعريب» لعبد القادر المغربي و«التهذيب في أصول التعريب» للدكتور أحمد عيسى و«المرجع في تعريب المصطلحات العلمية والفنية والهندسية» لحسن حسين فهمي. وهذه الكتب وغيرها تدل دلالة كبيرة على الاهتمام العظيم الذي لقيته حركة التعريب، ومعنى ذلك أن الطريق واضح لمن يريد السير والوصول إلى الغاية المنشودة. ولا تحتاج المسألة إلاّ إلى متابعة واهتمام وإخلاص لإكمال ما بدأه القدماء الذين وضعوا القواعد الأساسية للتعريب وطرقه وما يتصل به. ولعل كتاب «التهذيب في أصول التعريب» للدكتور أحمد عيسى وكتاب «المرجع في تعريب المصطلحات العلمية والفنية والهندسية» للأستاذ حسن حسين فهمي من أهم الدراسات التي اعتمدت على القديم وأضافت الشيء الكثير مما ينبغي الإفادة منه في التطوير؛ لأن مؤلفي هذين الكتابين درسا القديم دراسة مستفيضة ثم أقاما بناءً جديداً له سمات العربية الصافية وخصائص النهضة

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٦٩.

(٢) ديوان الأدب ج ١ ص ١٧٧ ـ ١٧٨.

العلمية الحديثة. ونرى أن العودة إلى هذين الكتابين والأخذ بكثير مما فيهما تعين على نجاح التعريب.

إن جهود القدماء والمحدثين في التعريب عظيمة ولو توسعوا فيه لنالت العربية خيراً كثيراً، فقد وقف الكثيرون عند الذي سمعوه ولم يشتقوا منه مع أن بعضهم أجاز الاشتقاق كابن جني الذي ذهب إلى أن المقاييس الناقلة للأعجمي إلى العربية تجوز الاشتقاق منه[1]. وقد اشتقت العرب الكثير من المعرب، وفي كتب اللغة أمثلة له ولا يمنع أن يشتق المحدثون منه في مصطلحات العلوم أو ما يحتاجون إليه على أن لا يخرج على أبنية العرب ويخل بموسيقاها. ولأهمية التعريب اتخذ مجمع اللغة العربية قراراً بجوازه وقال: «يجيز المجمع أن يستعمل بعض الألفاظ الأعجمية عند الضرورة على طريقة العرب في تعريبهم»[2].

مـاذا نعـرّب:

ولكن ماذا نعرّب؟ هل نعرّب ما نحتاج إليه وما لا نحتاج إليه؟ هل نعـرّب الجمل والتـراكيب؟ هل نعـرّب الأعلام وأسمـاء الأجناس وبعض المصطلحات؟.

إن إطلاق التقييد يضر العربية ضرراً كبيراً لأن إدخال ما نحتاج إليه وما لا نحتاج إليه أو تعريب الأساليب سيؤدي إلى تضخم اللغة وطغيان الأساليب الأعجمية. وهذا فساد لا يقبله مؤمن بأمته ولغتها ولذلك رأى المعتدلون أن يكون التعريب في الأعلام وأسماء الأجناس وبعض المصطلحات. وهو رأي سديد فيه صون للعربية وتطوير لها وهو ما نؤمن به ونذهب إليه على أن يُراعى في تعريبها ما راعاه القدماء وما يراه اللغويون المحدثون من التوازن والانسجام بين الأصوات لئلا يدخل العربية ما لا يقبله ذوقها. وقديماً نفت اجتماع بعض الحروف في الكلمة الواحدة وأهملت كلمات كثيرة تنافرت حروفها ولذلك

---

(١) ينظر الخصائص ج ١ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩، المنصف ج ١ ص ١٨٠.
(٢) مجموعة القرارات العلمية ص ٨٣.

ينبغي للعاملين في هذا الحقل أن يأخذوا بذوق العربية وأن يسعوا جاهدين إلى وضع كلمة واحدة للمصطلح ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فإن تعذّر عليهم أو خافوا الخروج على اللغة لجأوا إلى التركيب وهو مستساغ مقبول. ولكي يسير التعريب بخطى سريعة نرى أن تقوم كل جماعة بتعريب المصطلحات المتصلة بتخصصها وبذلك تتم العملية بسهولة ويسر، ثم تحال المصطلحات إلى المؤسسات العلمية والمجامع اللغوية لإقرارها بعد دراستها والإتفاق عليها وإصدار معجمات بها.

وصفوة القول: إن التعريب ضروري في العلوم، وقد أدرك ذلك القدماء والمحدثون واتخذ مجمع اللغة العربية قراره، ولا يضير أن نأخذ به لأنه لا تخلو لغة من الاستعارة من لغة أخرى ولأن اللغة ليست مجموعة ألفاظ وإنما هي تركيب وبناء. ولكن الأخذ بالمعرب ينبغي أن يكون آخر ما يلجأ إليه الباحثون أي بعد أن يتعسر استنباط المصطلح بالوسائل الأخرى، وذلك لأن الأخذ به عند تيسّر الأسباب عبث باللغة ومقوماتها.

تلك أهم وسائل نمو اللغة العربية وهي وسائل تتسع لاستيعاب العلوم ومصطلحاتها، ولا نظن أن العربية بعد ذلك عاجزة عن مواكبة التطور العلمي والحضاري وما تتفتح عنه الحياة في المستقبل. ولا نظن أنها عاجزة عن تهيئة المصطلحات بإحدى الوسائل المعروفة على أن تتوفر فيها: السلامة في اللغة، والسهولة في الأداء، والوضوح في الفكرة، والدقة في التعبير. وقد وضع مجمع اللغة العربية[١] شروطاً للمصطلحات تنير السبيل وتكفل تذليل الصعوبات وهي:

١ - يفضل اللفظ العربي على المعرب القديم إلا إذا اشتهر المعرب.

٢ - ينطق بالاسم المعرب على الصورة التي نطقت بها العرب.

٣ - تفضل الاصطلاحات القديمة على الجديدة إذا شاعت.

٤ - تفضل الكلمة الواحدة على الكلمتين فأكثر عند وضع اصطلاح جديد إذا أمكن وإذا لم يمكن تفضل الترجمة الحرفية.

---

(١) مجموعة القرارات العلمية ص ٨٣ وما بعدها.

وليس بعد ذلك ما يدعو إلى الخوف من صعوبة المصطلحات، فقد ساهمت المجامع اللغوية والمؤسسات العلمية والباحثون في تذليل هذه الصعوبات ووُضِعَت أسس عامة إذا اتبعت أوصلت إلى أحسن النتائج وفتحت السبيل لمن يريد التأليف أو التدريس بالعربية.

إن البدء بالعمل أساس كل نجاح ولن تقف المصطلحات عائقاً في الوقت الحاضر، ونرى أن التدريس بالعربية واستعمال المصطلحات الأجنبية أحسن من غيره ولكن ينبغي أن يكون ذلك في أول الأمر حتى إذا ما تضافرت الجهود واستكملت الدراسات كان التأليف والتدريس ـ شرطاً ومصطلحاً ـ بالعربية التي يرتبط بها الطلبة أقوى ارتباط. نقول هذا ونحن نعلم أن هناك مئات المعاجم العلمية في الوطن العربي، وقد استفاد منها العلماء والباحثون وأولى بأساتذة العلوم في الجامعات أن يرجعوا إليها حينما يدرّسون أو حينما يؤلفون. ولن نغفل ونحن نتحدث هنا عن المصطلحات ما قام به أساتذة الدراسات الإنسانية والباحثون فيها فقد سارت سيراً حسناً في هذا العصر بعد أن تعثرت طويلاً، ولكن الجهود الكبيرة ذلّلت الصعوبات واستطاع الباحثون أن يضعوا كثيراً من المصطلحات. ولا نريد بهذه المعارف والعلوم ما كان معروفاً عند العرب القدماء وإنما نقصد الجديد منها كالتربية وعلم النفس والاقتصاد والتجارة والإدارة والقانون والسياسة والاجتماع والفنون الجميلة. وكان الشعر قديماً ديوان العرب غير أنه تطور كثيراً في هذا العصر ودخلته كثير من الفنون والمصطلحات مما لم يعرفه العرب وقد استطاع الباحثون أن يضعوا للجديد مصطلحات عربية كان بعضها متداولاً ولم يكن بعضها الآخر معروفاً ونجحوا نجاحاً كبيراً وشاعت هذه المصطلحات في العالم العربي وأخذ الدارسون يستخدمونها وهي مئات إن لم تكن آلافاً.

ويتصل بالمصطلحات الأعلامُ الأجنبية وأسماء الأدوية وغيرها، وينطبق عليها ما ينطبق على تعريب المصطلحات والألفاظ أي أنها «تنقل إلى العربية مغيرة في الحروف والأوزان إلى حروف العرب وحدها وإلى أوزان كلمهم أو ما يقاربها وأنها لا تنقل أبداً كما ينطقها أهلها»[1]، وذلك لئلا تدخل في

(١) مقدمة أحمد محمد شاكر لكتاب المعرب ص ٢٠.

العربية أصوات غير أصواتها، وكانت هذه طريقة العرب في نقل الأعلام الأعجمية فهي كثيراً ما تغير الأسماء الأعجمية إذا استعملتها، وهذه طريقة الأجانب في نقل الأعلام الأجنبية إلى لغاتهم، فهم يخضعونها لأصوات لغتهم ولا ينطقونها كما ينطقها أهلها خشية أن يدخلوا في لغتهم أصواتاً غريبة لا تنسجم وروح لغتهم. وإذا أريد معرفة الاسم كما ينطقه أصحابه وضع بالحرف اللاتيني إلى جانب الصيغة العربية. وتنطبق هذه القاعدة على أسماء الأدوية لأنها لا تترجم ولا بأس من كتابتها بالحرف اللاتيني إلى جانب الحرف العربي ليسهل نطقها كما ينطقها أصحابها، وفي ذلك تيسير كبير.

هذه نظرة عامة في تعريب العلوم وما يتصل بالمصطلحات وقد اتضح أن للتعريب معنيين:

الأول: تعريب المصطلحات وهو ما سماه القدماء «المعرَّب».

الثاني: تعريب العلوم تأليفاً وتدريساً وشرحاً ومصطلحاً، وهو ما نريده حينما نستعمل التعريب في هذه الأيام.

وإذا كانت المصطلحات تعوق عملية التعريب فإن التدريس والتأليف بالعربية لن يعوقهما عائق بعد أن أقرت القيادة السياسية في القطر العراقي هذه الخطوة المباركة وبعد أن بدأت جامعات القطر بالتعريب وأخذ المخلصون يسعون إلى تحقيق الأهداف السامية. ومن أجل ذلك كان الخلط بين المعنيين في الوقت الحاضر سبباً من أسباب عرقلة التعريب وهو ما يرفض رفضاً تاماً لأنه يدل على نوايا من لا يريد لأمته العزة والكرامة وتحقيق الذات. واتضح أن المصطلح لن يكون عقبة كأداء في سبيل حركة التعريب؛ لأن العربية تملك وسائل كثيرة من وسائل النمو والتطور، وآخر ذلك الاقتراض الذي يمدّها بما تعجز عنه وسائلها الأخرى. ولكن هذا الاقتراض ـ كما نرى ـ ينبغي أن يكون آخر ما يبحث عنه المؤلفون أو الباحثون في العلوم ومصطلحاتها لئلا يسود ويطغى على أوزان العربية لأنه سهل التناول لا يحتاج إلى تنقير في المعجمات أو المصادر أو التعامل مع وسائل تنمية اللغة. ومثل ذلك يقال في الأعلام أي أنها ينبغي أن تكتب بالحروف العربية من غير زيادة أو إضافة لئلا تصبح اللغة بعد مدة أشبه برطانة الأنغام.

إن المستقبل الذي ينتظر الأمة العربية عظيم، وأن التطور الذي ستناله أعظم وسيؤدي ذلك بلا ريب إلى تقدم اللغة ونهوضها بكل ما يستجد من معارف وعلوم وسيخدم ذلك كله الأجيال الجديدة وينشئهم على حب الأمة والاعتزاز بها والعمل من أجلها بإخلاص.

المصـــادر:

١ - ارتشاف الضرب من لسان العرب - أبو حيان الأندلسي - مخطوطة الأحمدية.

٢ - الاشتقاق - عبد الله أمين. القاهرة ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م.

٣ - البيان والتبيين - الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م.

٤ - التعريفات - السيد الشريف الجرجاني. القاهرة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م.

٥ - الخصائص - ابن جني - تحقيق محمد علي النجار. القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.

٦ - دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات - الدكتور أحمد مطلوب. بيروت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٧ - ديوان الأدب - أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي - تحقيق الدكتور أحمد مختار عمر. القاهرة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

٨ - شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل - شهاب الدين أحمد الخفاجي - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. القاهرة ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.

٩ - الصاحبي - أحمد بن فارس - تحقيق الدكتور مصطفى الشويمي. بيروت ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م.

١٠ - العلم عند العرب وأثره في تطوير العلم العالمي - الدوييلي - نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار والدكتور محمد يوسف موسى. القاهرة ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م.

١١ - علم اللغة العربية - الدكتور محمود فهمي حجازي. بيروت ١٩٧٤ م.

١٢ - العلوم عند العرب - قدري حافظ طوقان. القاهرة ١٩٦٠ م.

١٣ - كلام العرب - الدكتور حسن ظاظا. الإسكندرية ١٩٧١ م.

١٤ - اللغة العربية عبر القرون - الدكتور محمود فهمي حجازي. القاهرة ١٩٧٨ م.

١٥ ـ مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً (مجموعة القرارات العلمية). القاهرة ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م.
١٦ ـ المزهر ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الثالثة. القاهرة.
١٧ ـ المعرب ـ أبو منصور الجواليقي ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ (طبعة الأوفسيت). طهران ١٩٦٦ م.
١٨ ـ المنصف ـ شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف للإمام أبي عثمان المازني ـ تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين. القاهرة ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م.

٩

تعريب التعليم العالي في العراق



لغـة التعليـم:

شهدت الأمة العربية نهضة علمية شعّت أنوارها على العالم وأخرجته من الظلمات إلى النور بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً. وكانت اللغة العربية خير أداة عبّرت عن تلك النهضة، وكان المسلمون من العرب وغيرهم يدرسون ويؤلفون بلغة القرآن. وقد حفل التراث العربي الإسلامي بكثير من الدراسات الفقهيـة والعلمية والأدبيـة والتأريخيـة والاجتماعيـة والجغرافيـة والفلسفية، وهي تشهد بأن اللغة العربية كانت مطواعـة للعلم والتدريس والتأليف وأنها قادرة على التعبير عن متطلبات الحياة وما يستجدّ من علوم وأن غيرها ليس بأوسع منها ولا أقدر على التعبير. ويرجع الفضل في ذلك إلى القرآن الكريم الذي حفظها وطورها وإلى اللغويين والأدباء والعلماء الذين صانوها، وكان ثراؤها يزداد بتعاقب القرون وتجدد الحياة. ولكن ما أصاب الأمة من مصائب عاقها عن النمو والتطور جعل العربية تنزوي في المعاهد الدينية والمساجد وتبتعد عن العلم والحضارة فجمدت ولم تتقدم بعد أن ران الجمود على الأمة، ولو ظلت نابضة بالحياة لكان لها شأن غير ما رأيناه في مطلع القرن العشرين. وحينما بدأ الاتصال بالعالم من جديد أحسّ العرب بأن

(*) ألقي في جامعة اليرموك بإربد (الأردن) صباح الأثنين ٢ نيسان ١٩٨٤ م (٢ رجب ١٤٠٤ هـ) ونشر في العدد المزدوج (٢٥ ـ ٢٦) من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني (السنة الثامنة ـ تموز ـ كانون الأول ١٩٨٤ م).

حياتهم لا بدّ من أن تتغير وأن جمودهم لا بدّ من أن تدب فيه الحياة. وهذا ما كان فقد اندفع الروّاد يحيون ما كان ويأخذون من الغرب ما فيه النفع وإنارة السبيل، وبدأ الجليد يذوب وأخذت الحركة العلمية تنشط وتتخذ ألواناً شتى. وكان لهؤلاء الروّاد فضل كبير في إنماء اللغة وتطورها فقد بذلوا جهوداً محمودة ووضعوا مصطلحات تعبر عن الجديد، وأصدروا مجلات تخدم العلم وأهدافه. وشاء الله أن يعيد إلى العربية مكانتها في ظل المعاهد العلمية التي أنشئت في عصر النهضة، وكانت مدرسة القصر العيني في القاهرة تدرّس الطب بالعربية ويضع أساتذتها الكتب بها. وكان همّ العائدين من البعثات العلمية أن يدرّسوا العلوم والطب بالعربية، وكان المترجمون يحضرون مع الأجانب في قاعات الدرس لترجمة دروسهم إلى العربية. ودرّست الجامعة الأميركية في بيروت أول إنشائها الطب بالعربية ووضع أساتذتها الكتب النافعة بها، ولكن هذين المعهدين تنكرا للعربية فيما بعد، وسادت لغة المستعمر وفرضت على أبناء الأمة فرضاً.

إن الاستعمار وعملاءه لم يتركوا العربية تسير في خطها المرسوم فقد تألبوا عليها وبدأت الدعوة إلى العامية تظهر وتأخذ طابعاً علمياً ودعا مهندس الري ويلكوكس إلى الأخذ بها في تدريس العلوم لتتقدم مصر وتلحق بركب الحضارة العالمية[١]. وكانت مجلة «المقتطف» ـ منذ عام ١٨٨١ م ـ تدعو إلى كتابة العلوم بالعامية لغة الحديث، وكان الغزاة يخططون في الوقت نفسه لفرض لغتهم، وقد صدر أمر وزاري عام ١٨٨٩ م يقضي بأن تكون لغة التعليم في المدارس المصرية هي اللغة الإنكليزية ووجهت البعثات إلى انكلترة وأغلقت مدرسة الألسن التي كانت تعنى بالترجمة وتخريج القائمين بها[٢]. وكان أمين شميل من أكثر المتحمسين اندفاعاً إلى ذلك ولم يكتف بالدعوة إلى لغة المستعمر وفرضها على التعليم وإنما نادى بأن «نتخلى عن العربية فصحى أو عامية إلى لغة أجنبية تحييناً علمياً وثقافياً واقتصادياً، وأكد

---

(١) ينظر النقد الأدبي الحديث في العراق ص ١٣١ وما بعدها.

(٢) ينظر لغتنا والحياة ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

عقم كل محاولة تبذل لإحياء لغتنا العربية المقضيّ عليها حتماً بالموت»[1]. ولو استمر المعهدان في بيروت والقاهرة على ما كانا عليه لأثمرت حركة التأليف ولنال العرب خيراً عظيماً ولكن الغزاة أبوا إلاّ أن يهتموا بالعربية قليلاً حتى إذا ما اطمأن الناس إليهم أنشبوا مخالبهم وأظهروا نواياهم فتحقق مسعاهم وظل الأمر ضربة لازب لا يجرؤ أحد على تغييره حتى وقفت سورية بصفاء عروبتها للمستعمرين وفرضت لغتها على معاهد العلم وظلت جامعاتها متمسكة بما بدأه الروّاد غير ملتفتة إلى ما يشاع من تردّي مستواها العلمي وضعف طلابها.

وكانت وقفة جامعة دمشق بوجه لغة المستعمر حافزاً للأقطار العربية الأخرى، فأخذ المؤمنون بأمتهم الحريصون على استقلالها يبذلون الجهد الكبير ويسهرون الليالي في البحث والتأليف حتى تهيأ لكثير منهم ما سعوا إليه، وظهرت مئات الكتب العلمية وبدأت بعض الكليات العلمية تدرّس بالعربية وتدفع الطلبة إلى التمسك بها والحفاظ عليها وتطويرها لتستجيب لمتطلبات العصر وتقدمه العلمي. ونالت الجزائر استقلالها سنة **١٩٦٢** م بعد كفاح مرير وبدأت طلائعها الثورية تعرّب الدوائر والمعاهد وشؤون الحياة، وقد خاضت معارك ضارية للقضاء على التيار المناوىء للتعريب، وعقدت مؤتمرات كثيرة.

وأكملت الآن تعريب كثير من شؤون الحياة وعربت التعليم الابتدائي والثانوي وقسماً من التعليم الجامعي، وتقف الأقسام العلمية المعربة في جامعاتها ومعاهدها إلى جانب الأقسام المفرنسة، وستتم عملية التعريب قريباً إذا توفرت لها الظروف وساهمت الدول العربية في رفد العملية وتهيئة الأساتذة الذين يدرّسون العلوم باللغة العربية. وبدأ الأردن منذ سنوات قليلة يعرّب العلوم في جامعتي عمان وإربد، وكان لمجمع اللغة العربية الأردني فضل كبير في عملية التعريب، فقد أخذ على عاتقه هذه المهمة وبدأ يترجم الكتب ويرصد العملية ويدعو إلى المزيد منها على الرغم من المعارضة التي يبديها المناوئون لحركة التعريب. ولا تزال كثير من الأقطار العربية متمسكة باللغات الأجنبية في تدريس العلوم لأسباب غير مقنعة علمياً، ولعل تلك الأقطار تحذو حذو

---

(١) لغتنا والحياة ص ١٤٦.

شقيقاتها التي سارت في طريق التعريب وقطعت فيه شوطاً طويلاً.

مرحلــة الإعــداد:

لم يكن التعليم في العراق بأحسن حظاً مما كان عليه في الأقطار العربية الأخرى، فقد سعت الدولة العثمانية إلى تتريك القطر وكانت الدراسة العالية مقتصرة فيه على مدرسة الحقوق. ولما قامت الحرب العالمية الأولى أغلقت أبواب هذه المدرسة كغيرها من المدارس الأخرى وأعيد فتحها بعد أن وُجد أن الحاجة ماسة إليها. وكانت كتب الدراسة «موضوعة باللغة التركية ومن الكتب التي يدرسها طلاب الحقوق في استانبول»[1]. وبدأ التعليم العالي ينشط في العهد الفيصلي فأسست دار المعلمين العالية سنة **١٩٢٣** م، وجامعة آل البيت سنة **١٩٢٤** م، ومدرسة الطب سنة **١٩٢٧** م، وكلية الهندسة سنة **١٩٤٢** م، وكلية الآداب والعلوم سنة **١٩٤٩** م. وكانت جامعة آل البيت أول جامعة في العهد الفيصلي وقد بدأ التفكير في إنشائها سنة **١٩٢١** م وصدرت لائحة نظامها في الخامس من شهر رجب عام **١٣٤٢** هـ الموافق للحادي عشر من شباط **١٩٢٤** م، وجاء في المادة الأولى من اللائحة: «تحتوي الجامعة على ست شعب: شعبة العلوم الدينية، وشعبة الحقوق، وشعبة الطب، وشعبة الفنون، وشعبة الهندسة، وشعبة التعليم والتربية»[2]. وأغلقت الجامعة بعد ذلك بسنوات قليلة واستمرت المدارس العالية والكليات في التدريس حتى عام **١٩٥٦** م إذ صدر قانون جامعة بغداد رقم (٦٠) لسنة **١٩٥٦** م وأسست بموجبه أول جامعة في بغداد ثم ألغي القانون بعد ثورة تموز **١٩٥٨** م وصدر قانون جامعة بغداد رقم (٢٨) لسنة **١٩٥٨** م.

وكانت الكليات العلمية قبل تـأسيس جامعـة بغداد تـدرّس باللغـة الإنكليزية وهو ما سعى إليه الإنكليز منذ دخولهم العراق، ففي عام **١٩٣٢** م كانت الدعوة إلى التدريس في كلية الحقوق باللغات الأجنبية وقد جاء في

---

(١) تقدم التعليم العالي في العراق ص ٢٧.

(٢) ينظر تقدم التعليم العالي في العراق ص ٣٨٩.

تقرير اللجنة المكلفة بإصلاح الكلية إصلاحاً جذرياً: «لاحظت اللجنة لزوم الاعتناء في كلية الحقوق وإعلاء سويتها، وذلك بنظر اللجنة يتوقف على جلب أساتذة من أوربة واستخدامهم بالتدريس في هذه الكلية وإن وجودها على ما هي عليه الآن لا يبرر بقاءها فيجب حينئذ إلغاؤها وتخصيص نفقاتها إلى البعثات العلمية وإرسال الشبان إلى الكليات الحقوقية الراقية للتحصيل والتخصيص في فروع الحقوق»[1]. ولم يستصوب ساطع الحصري ـ وكان مسؤولاً كبيراً في وزارة المعارف ـ فكرة اللجنة في انتداب أساتذة من أوربة لترقية مستوى التدريس في الكلية لأن الطلبة لن يستطيعوا فهم المحاضرات التي يلقيها الأساتذة الأجانب بلغاتهم في دقائق الأمور القانونية، واقترح الاستعانة بأساتذة من مصر لأن كلية الحقوق في القاهرة قامت على أسس متينة واستفادت من خدمات الأساتذة الأجانب وتخرج كثير من أساتذتها في الجامعات الأجنبية وصاروا يدرسون العلوم الحقوقية باللغة العربية منذ سنوات[2].

وكان التدريس بالإنكليزية في كلية الطب؛ لأن معظم أساتذتها عند تأسيسها كانوا من الأجانب، وكان عميدها إنكليزياً وقد وضعت مناهج الدراسة فيها على غرار المناهج في الكليات البريطانية. ويبدو أن طلبة الطب لم يستفيدوا كثيراً من التدريس باللغة الإنكليزية وكان ضعفهم في تلقي العلم بها واضحاً، وقد ضمّن مدير التدريس والتربية العام ذلك في تقريره الذي رفعه إلى وزير المعارف في الرابع من شهر آذار سنة ١٩٣٨م، ومما جاء فيه: «عدم إتقان الطلاب اللغة الإنكليزية يجعل دراستهم عقيمة لا سيما والكتب كلها إنكليزية والمحاضرون معظمهم إنكليز، وقد حدث أن رأيت أحد الطلاب المتخرجين لم يستطع قراءة وفهم الكتاب الذي درسه في كلية الطب، وفي هذا خطر على الأرواح لا يمكن أن يقدر»[3].

---

(١) مذكراتي في العراق ج ٢ ص ٣٣٦.

(٢) مذكراتي في العراق ج ٢ ص ٣٣٧.

(٣) ينظر التقرير في كتاب تقدم التعليم العالي في العراق ص ٩٧.

ومرّت الأعوام، وكان العراق يتطلع إلى إنشاء جامعة تعيد إليه عزّه الغابر ومجده التليد. وجاء في تقرير دارون ومورغن في عام ١٩٤٨ م أن العربية هي اللغة الرئيسة للتعليم ولكن ينبغي الاهتمام باللغة الإنكليزية لأن الطالب الذي يحسنها يجد في متناوله الكتب الصادرة في بريطانية وأمريكة الشمالية، وجاء فيه أيضاً أن جعل التعليم بالعربية إجبارياً في كل الموضوعات يؤدي إلى تضييق المجال في انتخاب الأساتذة الأجانب الذين يعرفون الإنكليزية مهما تكن لغتهم القومية[١]. ورأت اللجنة المشكّلة لدراسة مشروع الجامعة والكلية التوجيهية في الثاني عشر من شهر آب سنة ١٩٤٨ م أن تؤسس كلية توجيهية وقالت إن «تدريس اللغات يجب أن يختلف عما عليه في الثانوية ويكون الغرض منه اقتدار الطالب على القراءة والكتابة كأن يعوّد الطالب في الإنكليزية مثلاً على كتابة الرسائل وتلخيص ما يقرأ ومطالعة قطع نثرية وشعرية. ويستحسن أن تكون دراسة التأريخ الأوربي والجغرافية ومبادىء الاقتصاد ومبادىء الفلسفة في قسم الآداب بالإنكليزية، ودراسة الفيزياء والكيمياء والرياضيات والحيوان والنبات في قسم العلوم بالإنكليزية ليقوى الطلبة في هذه اللغة وليعرفوا المصطلحات العلمية»[٢]. ونفذت هذه التوصية وبدأت كلية الآداب والعلوم في سنة ١٩٤٩ م تدرّس كثيراً من الموضوعات الإنسانية باللغة الإنكليزية وكانت بعض الأقسام تعج بالإنكليز والأمريكان الذين قدموا لتدريس الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والآثار باللغة الإنكليزية[٣]. وأثار هذا الوضع الحسّ القومي في العراق فتصدى له الوطنيون وبدأوا يكتبون في الصحف ويلقون المحاضرات منبهين إلى خطورة هذا الاتجاه الذي أخذ يزحف إلى الدراسات الإنسانية بعد أن ابتلع الدراسات العلمية. ولم يُصغِ المسؤولون إلى هذه الصيحات المخلصة ولم يعبأوا بالعربية ويجعلوها لغةَ التعليم العالي، وكان الأمل معقوداً على جامعة بغداد عند تأسيسها عام ١٩٥٦ م فقد نصت المادة الخامسة والأربعون من قانونها

---

(١) ينظر تقدم التعليم العالي في العراق ص ٣٠٢.

(٢) تقدم التعليم العالي في العراق ص ١٦٤.

(٣) شهد كاتب هذا البحث ذلك حينما دخل عام ١٩٥٢ م الكلية طالباً في قسم اللغة العربية.

رقم (٦٠) على أن «اللغة العربية هي لغة التعليم ولمجلس الجامعة أن يقرر تدريس بعض الفروع والمواضيع بلغة أجنبية». ونصّت المادة السابعة من قانون جامعة بغداد رقم (٢٨) لسنة ١٩٥٨ م على أن «اللغة العربية هي لغة التعليم في الجامعة ما لم يقرر مجلس الجامعة في أحوال خاصة تدريس بعض المواد أو الموضوعات بلغة أخرى، ويعيد المجلس النظر في هذا القرار بين حين وآخر». ونصت المادة الثانية والعشرون من قانون التعليم العالي والبحث العلمي رقم (١٣٢) لسنة ١٩٧٠ م المعدل على أن «اللغة الرسمية في الجامعات العراقية هي اللغة العربية... ولمجالس الجامعات أن تقرر تدريس بعض المواد العلمية بلغات أخرى».

مرحلة التنفيذ:

لم تنفذ هذه المواد القانونية إلّا بعد أن تمَّ توجيه القطر العراقي توجيهاً قومياً صحيحاً بعد ثورة تموز ١٩٦٨ م، فقد أقرّ مجلس التعليم العالي والبحث العلمي في حزيران سنة ١٩٧٦ م إلزام الجامعات ومؤسسات التعليم العالي في الصفوف الأولى بصورة تامة من السنة الدراسية ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨ م باستثناء مادة دراسية واحدة تدرس باللغة الأجنبية على أن يطبق ذلك على الصفوف الثانية في السنة التالية وهكذا حتى يشمل جميع الصفوف، وأن تشكل لجنة وطنية عليا للتعريب لتنسيق هذه المهمة. وتألفت تلك اللجنة في تشرين الثاني سنة ١٩٧٦ م وعقدت إحدى عشرة جلسة وضعت فيها الأسس العامة لتعريب التعليم الجامعي وأقرت فيها تأليف اللجان المشتركة للتعريب للنظر في اختيار كتب الترجمة والتأليف والمترجمين والمؤلفين للكتب الجامعية. وأجازت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي مرحلياً استعمال الكتب المعتمدة ـ العربية والأجنبية ـ ريثما يتوفر الكتاب العربي المقرر. ثم صدر كتاب مجلس قيادة الثورة ـ مكتب السيد النائب ـ لجنة شؤون التعليم ـ في أيلول سنة ١٩٧٧ م الذي ينص على قيام الوزارة بتأليف الكتب وفق المقررات التي تضعها لجنة شؤون التعليم على أن لا يعتمد أي كتاب تقوم الوزارة بتأليفه إلّا بعد إجازته من اللجنة نفسها.

وحدثت إجراءات كثيرة لتيسير عملية التعريب، وقد تقرر تأجيل التعريب في كلية الطب وكلية طب الأسنان سنتين، وعقدت ندوة لتعريب الطب في آذار سنة ١٩٧٩ م، وانتهت إلى إقرار التوصيات الفعّالة لذلك. وفي تشرين الثاني من العام نفسه أصدر مجلس وزارة التعليم العالي والبحث العلمي قراراً جاء فيه:

١ - أن يطبق التعريب الإلزامي في الصفوف الأولى من كليات الطب وطب الأسنان في القطر ابتداءً من العام الدراسي ١٩٨٠ - ١٩٨١ م.
٢ - يشمل التعريب الإلزامي المواد الدراسية للمرحلة الأولى.
٣ - يشمل التعريب الإلزامي جميع المواد الدراسية للمرحلة الواحدة.
٤ - تخويلها بضع صلاحيات منها صلاحيات «لجنة المناهج التعليمية» فيما يتعلق بإقرار الكتب المنهجية عدا كتب الثقافة القومية والاشتراكية، ومنحها صلاحية الوزير في الأمور المتعلقة بإنجاز مهامها من أجل إنجاح التعريب[1].

وكان قرار مجلس قيادة الثورة بتعريب العلوم دافعاً قوياً إلى تنفيذ الخطوات التي بدأتها وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، فقد صدر قانون «الحفاظ على سلامة اللغة العربية» رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧ م وجاء في المادة الثانية منه: «على المؤسسات التعليمية في مراحل الدراسة كافة اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم، وعليها أن تحرص على سلامتها لفظاً وكتابةً، وتنشئة الطلاب على حسن التعبير والتفكير بها وإدراك مزاياها والاعتزاز بها». وحسمت هذه المادة القانونية الموضوع، وكان هذا القرار ثورياً أعاد إلى العراق وجهه العربي الأصيل وحرر التعليم من التبعية والتخلف وحقق للوطنيين ما كانوا يصبون إليه. وسارت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في طريقها المرسوم وأخذت تحقق قرار الثورة وآمال الوطنيين، وبُدِىء التدريس إلزامياً باللغة العربية في الصفوف الأولى من الكليات العلمية سنة ١٩٧٧ -

---

(١) تنظر مقدمة الدكتور جميل الملائكة لخلاصة التشريعات ص ١ - ٢، ومقدمة كتاب مؤتمر تعريب التعليم العالي ص ٥ - ٧.

١٩٧٨ م، وفي الصفوف الأولى من كليات الطب وطب الأسنان سنة ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ م، على أن تدرس مادة واحدة في كل سنة دراسية بكل قسم جامعي بلغة أجنبية لإتقان اللغة العلمية والأجنبية. ويتم هذا كله بطريق المؤسسات والهيئات في الوزارة وقد صدرت لوائح تنظيمية لسير العملية وإنجاح حركة التعريب، وأنيطت بالمجمع العلمي العراقي مهمة المصطلحات العلمية تنفيذاً لما جاء في المادة التاسعة من قانون «الحفاظ على سلامة اللغة العربية» ونصها: «يكون المجمع العلمي العراقي المرجع الوحيد في وضع المصطلحات العلمية والفنية، وعلى الأجهزة المعنية الرجوع إليه بشأنها».

وكانت حصيلة تلك القرارات والجهود الكبيرة التي بذلت في سبيل إنجاح التعريب ما يأتي:

١ ـ بدء التدريس والمناقشات والامتحانات في جميع مواد الصفوف الأولى والثانية والثالثة بكليات القطر ومعاهده باللغة العربية ما عدا مادة واحدة تدرس بلغة أجنبية وعدا فروع اللغات الأجنبية.

٢ ـ عقد مؤتمر التعليم العالي في الوطن العربي ببغداد في (٤ ـ ٧ من شهر آذار عام ١٩٧٨ م) وقد شارك فيه علماء من الوطن العربي وقدموا بحوثاً في المصطلح العلمي وأساليب اختياره، وفي أساليب التعريب والمشاكل والحلول، وأصدر في ختام اجتماعاته توصيات جاء في ديباجتها:

١ ـ إن التفكير والتعبير باللغة القومية من أهم دعائم الاستقلال الفكري والحضاري لأية أمة من الأمم.

٢ ـ إن اللغة العربية هي جامعة كلمة العرب وعماد ثقتهم بأنفسهم ووسيلة وحدتهم القومية.

٣ ـ إن اللغة العربية ثرية وسعت القرآن الكريم والحديث الشريف والتراث العربي الغني في العلوم والآداب والفنون.

٤ ـ إن اللغة العربية ذات طواعية وقدرة على العطاء العلمي وميزات فذة في الاشتقاق والقياس والمجاز.

٥ ـ إن الاستعمار هو الذي شكك في قدرة اللغة العربية وأن الدعوات

المنحرفة هي التي دعت إلى إحلال اللغات الأوربية محل اللغة العربية واستعمال الحرف اللاتيني بديلاً عن الحرف العربي.

وبعد أن استعرض الصعوبات التي تحيط بالتعريب والجهود التي ينبغي أن تبذل لنجاحه أوصى بما يأتي:

أولاً - في حركة التعريب:

١ - غرس الإيمان باللغة العربية وتنمية الاعتزاز بها لدى الطالب في مختلف مراحل دراسته عن طريق تعريفه بقيمها الحضارية وتأريخها الثقافي واستيعابها للعلوم وطواعيتها للتعليم.

٢ - الارتفاع بمستوى تدريس اللغة العربية في المراحل الابتدائية والثانوية بتهذيب مناهجها والاعتماد على التطبيقات العملية في تدريسها وتجاوز القواعد الصماء والاستزادة من حفظ الذكر الحكيم والحديث الشريف والنصوص الرفيعة من الشعر والنثر سعياً وراء إنزال اللغة من النفس العربية منزلة السليقة.

٣ - الإكثار من النصوص العلمية في كتب المطالعة لتقوية الطالب الناشىء في اللغة العلمية ولإغنائه بالمصطلحات تمهيداً للإفادة منها في مستقبله العلمي.

٤ - العمل على انتشار الفصحى وإشاعة استعمالها في التعليم ولغة التخاطب تمهيداً لتضييق الشقة بين لغة الحديث ولغة الكتابة.

٥ - الاستفادة من وسائل الإعلام في نشر اللغة السليمة على الجمهور واختيار المذيعين من بين المتمكنين من الإلقاء الصحيح وإدخالهم دورات تقوية في اللغة العربية ليكونوا قدوة للمستمعين وتطبيق ذلك في مختلف الأنشطة والفعاليات الإذاعية الإعلامية والفنية.

٦ - إتاحة الفرصة للتدريسيين الجامعيين الذين اضطرتهم دراستهم للابتعاد عن استخدام اللغة العربية للعودة إليها والتمرس بها بمختلف الوسائل، وتنظيم دورات لغوية يستفيد منها العلميون من أعضاء الهيئات التدريسية والقائمون على الترجمة والتأليف، يراعى في برامجها سبل الإفادة من

الطرق الحديثة في تدريس اللغات، وتشمل دراسة طرق الاشتقاق والوضع والقياس في اللغة العربية لاستخدامها في وضع المصطلحات.

٧ ـ العناية بالترجمة وذلك بفتح دراسة عليا للترجمة يقبل فيها حملة الشهادة الأولية من الكليات العلمية المتمكنون من لغة أجنبية وكذلك المتفوقون من خريجي أقسام اللغات الأوربية لمدّ حركة الترجمة العلمية بعناصر ذات كفاية عالية، ويمنح المتخرجون منها شهادة جامعية عليا.

٨ ـ تشجيع النشر العلمي في المجلات العلمية العربية مع تقديم ملخصات وافية بلغة أجنبية حية وتشجيع كتابة الرسائل العلمية في الدراسات العليا باللغة العربية.

٩ ـ تشجيع المؤلفين والمترجمين وواضعي المصطلحات بتخصيص المكافآت المجزية والجوائز والأوسمة للأعمال المتميزة واحتسابها لأغراض ترقياتهم العلمية والتخفيف من ساعات التدريس عنهم.

١٠ ـ إنشاء مراكز قطرية للتعريب في الوزارات والمؤسسات المعنية بالتعليم العالي وتقديم المشورة فيما يتعلق بتنفيذها.

١١ ـ الاستمرار في عقد الندوات القطرية والمؤتمرات القومية الدورية يحضرها المعنيون بشؤون التعليم لدراسة قضاياه وتقويم حركته ومناقشة الجديد من أموره.

١٢ ـ تأكيد التعاون العربي في عملية التعريب بتوفير الكتاب المعرب لجميع الأقطار العربية وزيادة تبادل الخبرات على النطاق القومي في مجالات التدريس والترجمة والتأليف بالعربية.

١٣ ـ السير في تعريب التعليم الجامعي وفق برنامج زمني متصل يشرع بتطبيقه مباشرة على صفوف السنة الجامعية الأولى ثم على السنة الثانية في العام التالي. ويستمر كذلك متتابعاً حتى يشمل جميع سني الدراسة الجامعية وإصدار التشريعات اللازمة لذلك.

١٤ ـ التحذير من سلوك سبيل التردد أو الارتداد أو التأجيل في عملية التعريب بحجة عدم التهيؤ لها؛ لأن التأجيل لن يذلل الصعوبات التي ستبقى

قائمة ما بقي التأجيل، ولن يزيلها إلّا الإقدام على العملية وبذل أقصى الجهود.

١٥ - التحذير من إيفاد الطلبة إلى الخارج للتخصص وهم في سن باكرة لم تكتمل معها شخصيتهم وعقيدتهم وثقافتهم، وعدم إرسال البعثات العلمية إلّا بعد الشهادة الجامعية الأولية في الأقل، وذلك لتجنب التفريط ببعض النخبة الصالحة عن طريق الهجرة العلمية.

ثانياً - في الانفتاح على المعرفة الإنسانية:

١ - الارتفاع بمستوى تدريس اللغة الأجنبية في مراحل التعليم العام لتزويد الطالب بالمهارات الأساسية في تلك اللغة.

٢ - تطبيق برنامج قويم لتدريس الطالب الجامعي لغة علمية حية خلال السنتين الأوليين من الدراسة الجامعية باتباع الوسائل السمعية والبصرية الحديثة تمكنه من المتابعة العلمية ومواصلة الاطلاع على التطور العلمي وتيسر له إكمال الدراسة والتخصص عند الحاجة، وكذلك تمكنه من نشر الأبحاث في المجلات العالمية.

٣ - مراعاة لواقع التعريب في المرحلة الراهنة يستحسن تدريس مادة دراسة رئيسية واحدة بلغة أجنبية حية في كل سنة دراسية جامعية وتقديم الامتحان بتلك اللغة وإلزام الطالب بحفظ المصطلح الأجنبي في حقل اختصاصه، إضافة إلى المصطلح العربي ضماناً لمواكبة التقدم العلمي والمتابعة العلمية وإلزام المؤلفين بوضع قائمة في آخر الكتاب تضم المصطلحات المستخدمة فيه.

٤ - إنشاء شعب قطرية لترجمة أمهات المراجع على أن يتم التنسيق بين الجهود العربية لتجنب الازدواج والعمل على توفير هذه الكتب للمستفيدين في الوطن العربي ثم العمل بعد ذلك على إنشاء مركز على المستوى القومي للترجمة لتوحيد هذه الجهود.

٥ - توسيع التبادل الثقافي والعلمي بين الأقطار العربية والبلدان الأخرى.

٦ - التوسع في فتح مراكز تعليم اللغة العربية للأجانب في مختلف دول العالم.

ثالثاً ـ المصطلح العلمي والتراث:

تكليف الاختصاصيين في حقول المعرفة الرئيسية بمراجعة كتب التراث العلمي العربي وجرد المصطلحات التي استعملها العلماء الأوائل في مختلف فروع المعرفة لتوفيرها للعاملين في اختيار المصطلح العلمي الحديث ووضعه.

رابعاً ـ في أسلوب اختيار المصطلح العلمي ووضعه:

١ ـ تكثيف الجهود في قيام اللجان المجمعية بمعونة خبراء في حقول الاختصاص بوضع مجاميع المصطلحات في حقول المعرفة الرئيسية ومنح المكافآت المجزية لهذه الجهود.

٢ ـ العمل على تحقيق مشروعات المعاجم العلمية المتخصصة في فروع المعرفة المختلفة على غرار المعجمات العلمية العالمية، وتفريغ جماعات من العلماء من البلاد العربية لتحقيق ذلك.

٣ ـ الاستهداء بالقواعد العامة التي انتهت إليها المجامع اللغوية في وضع المصطلحات واختيارها، ومنها:

أ ـ أنه لا يشترط في المصطلح استيعاب كل مدلوله العلمي وإنما يتخذ لأدنى علاقة بذلك المدلول.

ب ـ مراعاة الاهتمام بالمدلول العلمي للمصطلح الأجنبي قبل معناه اللغوي عند وضع مقابله العربي.

جـ ـ تجنب الاصطلاح بلفظ واحد لمدلولات علمية مختلفة.

د ـ تجنب استعمال عدة مصطلحات لمعنى علمي واحد.

هـ ـ عدم اتخاذ المصطلحات من ألفاظ ذات معانٍ ودلالات شائعة ومعروفة.

و ـ تفضيل المصطلح العربي على المصطلح المعرب أو الأجنبي.

ز ـ تجنب استعمال النافر الغريب من الألفاظ.

ح ـ عدم اللجوء إلى النحت إلّا إذا دعت إليه ضرورة ملحّة.

٤ ـ العمل على إصدار معجم معان حديث بالعربية ييسر للمؤلف والمترجم والكاتب مهمتهم، وتكليف جماعة من ذوي الاختصاص وتفريغهم لإعداده

٥ ـ العمل على دعم اتحاد المجامع العلمية واللغوية توجهاً نحو مجمع قومي موحد تكون المجامع فروعاً له، وذلك ضماناً لتحقيق اللغة العلمية الواحدة والتزام البلاد العربية بما يصدر عنه من مقررات.

خامساً ـ وحدة الكتاب الجامعي:

١ ـ بذل جهود متعاونة في الوطن العربي لتنفيذ برنامج محكم هدفه تأليف الكتب المنهجية وترجمتها لتكون جاهزة في أي وقت لسنة دراسية مقبلة في الأقل وفق البرنامج الزمني للتعريب.

٢ ـ العمل على توحيد الكتاب الجامعي المنهجي بدءاً بجامعات القطر الواحد ثم على النطاق القومي لما يحققه ذلك من:

أ ـ اختيار أفضل الكفايات العلمية في مجالي التأليف والترجمة.

ب ـ تركيز الجهود على الإخراج الجيد للكتاب المنهجي شكلاً ومضموناً.

جـ ـ تيسير عملية تعريب التعليم العالي.

د ـ توحيد المصطلح العلمي وتجنب تعدده للمدلول الواحد في حقل الاختصاص.

إن الأخذ بتوحيد الكتاب الجامعي عملية مرحلية هدفها تسهيل البدء بالتعريب ويمكن إتاحة الفرص للمنافسة العلمية بعد ذلك.

وأوصى المؤتمر توصية خاصة جاء فيها: «إن مؤتمر تعريب التعليم العالي المنعقد ببغداد بين (٤ ـ ٧ آذار ١٩٧٨ م) الذي يضم العلماء والمجمعيين والجامعيين وأساتذة الكليات العلمية والإنسانية في الوطن العربي، إذ ينطلق من الإيمان بأن تحقيق الإبداع الفكري والأصالة الحضارية للأمة العربية لن يتأتى إلّا من خلال لغتها، وإقراراً بمقدرة اللغة العربية على العطاء العلمي والتِقْنيّ، وإدراكاً لضرورة تضافر الجهود العربية لإنجاح عملية التعريب في الوطن العربي توخياً لمواكبة التقدم الحضاري ـ يناشد الرؤساء والملوك العرب إصدار التشريعات والقوانين لتطبيق التعريب في مراحل الدراسة كلها وهم يضعون جهودهم وإمكاناتهم في خدمة هذا الهدف النبيل».

ومعظم ما جاء في التوصيات[1] متوفر في الأقطار العربية ولكن التشريع هو الذي يدفع العاملين إلى التعريب دفعاً. وقد كان العراق سباقاً في مثل هذا التشريع وأصبح التعريب واقعاً لا ينكره إلّا من سُحر بغير لغة العرب. وكنا قد دعونا منذ عام ١٩٧٥ م إلى إصدار قرارات رسمية لإنجاح التعريب وتعميمه، ومما قلناه إنّ هناك عاملين يوجهان عملية التعريب توجيهاً صحيحاً هما:

الأول: إيمان الحكومات العربية بالتعريب، وهذا عامل رئيسي يعتمد عليه التعريب كل الاعتماد. والرأي أن الاضطراب سيظل ملازماً للحياة الجامعية ما لم تتخذ الحكومات قراراً يلزم الأساتذة التدريس بالعربية. وقد فعلت ذلك حكومات العالم الأخرى لأنها تؤمن بأن التمسك باللغة تمسك بتراب الوطن وابتعاد عن التبعية. ولم تقتصر حكومات العالم على هذا الجانب الحيوي وحده وإنما كانت تفرض كثيراً من الاتجاهات التي تراها صالحة وضرورية كفرض منهج معين أو نظام معين، لأنها تؤمن بأن ترك هذه المسائل للآراء المتضاربة لا توصل البلاد إلى ما تصبو إليه من تقدم ومنعة. وليست القضايا المصيرية مما تفتح له الأبواب لتدخل الرياح من كل جانب، وليست جدلاً يُفضي إلى تبادل الآراء وعرض وجهات النظر كما كان أهل روما يفعلون وهم يرون المدينة تحترق، وإنما هي اتخاذ القرار الحاسم الذي يصون الأمة ويحمي ترابها وتراثها وآمالها في الحياة الحرة السعيدة. والأمة على تعدد أقطارها قادرة على اتخاذ هذا القرار الحاسم لأن فيه عزتها وهيبتها وخدمة العلم والسير به نحو الإبداع.

الثاني: إيمان العلماء والأساتذة بالتعريب ويأتي ذلك ذاتياً وهو ما نتوسمه في العاملين بصدق والحريصين على تقديم ما فيه النفع لأبنائهم وأمتهم، أو يأتي من السلطة التي تقرر بحزم يدفع إلى العمل والإنتاج[1].

٣ ـ ومن ثمرة التعريب البدء بتأليف الكتب العلمية أو ترجمتها، وكان مركز

---

(١) تنظر التوصيات في كتاب مؤتمر تعريب التعليم العالي ص ٨٨٩.

(٢) ينظر دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات ص ٤٤ ـ ٤٥.

التعريب قد أصدر قوائم بأسماء الكتب التي يجري تأليفها أو ترجمتها إلى اللغة العربية في جامعات التعليم العالي ومؤسساته، وقد ضمت ألفي عنوان منذ صدور قرار التعريب في حزيران سنة ١٩٧٦ م، وصدر منها عدد كبير في حقول متعددة[١]، ولا يزال القسم الآخر قيد الطبع أو الترجمة أو التأليف.

لقد سار التعريب بخطوات متزنة ولم يكن أمام وزارة التعليم العالي والبحث العلمي إلّا أن تحث الخطى وتغذّ السير على الرغم من الصعوبات التي تتمثل في الكتب المنهجية والمساعدة والمصطلحات وإعداد تدريسيين قادرين على تنفيذ عملية التعريب. ولكن معظم الأجهزة ـ على الرغم من ذلك ـ تسعى بإخلاص إلى إنجاح العملية لأنها تظهر وجه العراق العربي وتعيد إليه أمجاده؛ ولأن اللغة من أهم مقومات الوحدة العربية التي ضحّى من أجلها المخلصون. وستثمر الجهود المبذولة خير الثمرات وستؤدي كتابة البحوث العلمية الأصيلة وتأليف الكتب باللغة العربية إلى إتقان هذه اللغة الكريمة والاهتمام بها في العالم كله، وستصبح لغة العلم كما كانت في عصر ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. وقد خدم العرب الأوائل لغتهم وجعلوها تنتشر ويقبل عليها الناس حينما كانوا يقدمون علماً جديداً ويبنون حضارة زاهرة. وسيكون شأنها أكثر رفعة في هذا العصر بعد أن وجد العرب طريقهم وبدأوا يؤلفون ويدرّسون بلغتهم ويسعون إلى تطويرها وتقدمها. فالتأليف والتدريس بالعربية من أهم وسائل نمائها ومن الأسس التي تبني عليها الأمة حضارتها ومستقبلها وترسخ موضعها في العالم الممتد الفسيح.

إن التعريب وقد نجح في القطر العراقي وهو لا يزال في بداية الطريق يهدف إلى ثلاثة أمور:

الأول: إن التدريس بالعربية في الجامعات قضية قومية وإن الإعراض عنها تنكر للأمة وطعن في أهم مقوماتها، ومن استبدل لغة بلغته خسر قوميته وفقد كيانه.

---

(١) ينظر بعضها في كتاب حركة التعريب في العراق ص ٢٣٠ ـ ٢٣٣.

الثاني: إن التدريس بالعربية يدفع إلى التقدم ويخدم العلم ويخلق أجيالاً قادرة على الفهم الدقيق والتطور؛ لأن اللغة لا تنفصل عن التفكير، ومن فكّر بلغته كان أقدر من غيره على العمل والإبداع.

الثالث: إن التدريس بالعربية يشيع العلم بين الناس، فقد انتهى ذلك الزمان الذي كان العلم فيه ملكاً لطبقة خاصة، وكان الإسلام قد دعا إلى العلم منذ قرون وفضّل الله الذين يعلمون وكرّم العلماء، وهذا ما تسعى إليه الشعوب الناهضة في هذا العصر.

والتعريب وقد سار بخطوات متزنة لن يسدّ أبواب المعرفة فمن أول شروطه معرفة اللغات الأجنبية ومتابعة ما يصدر من بحوث ودراسات. ولأجل تحقيق هذه الغايةوضعت خطة التعريب فقرة تؤكد فيها: «تدريس مادة واحدة كل سنة دراسية بكل قسم جامعي بلغة أجنبية لإتقان اللغة العلمية الأجنبية»[1]. وهذا التأكيد يخدم العلم ويدفع الطلبة إلى إتقان لغة أجنبية تنفعهم في تخصصهم وتفتح أمامهم سبل الدراسة والاستفادة من البحوث العلمية الجديدة. وكان العرب الأوائل قد اهتموا باللغات الأجنبية منذ القرن الأول للهجرة وأقاموا المؤسسات للترجمة ورصدوا المكافآت للمترجمين وبذلك استطاعوا أن ينقلوا تراث الحضارات الأجنبية. ويفعل مثل ذلك معظم دول العالم ففيها معاهد لتدريس اللغات الأجنبية، ومؤسسات للترجمة، وهي تتابع الحركة العلمية العالمية وتأخذ منها وتعطيها بقدر ما يبذل أبناؤها في حقول العلوم وميادين الحياة.

مقترحـــات:

لقد بدأت عملية تعريب التعليم العالي في العراق وهي خطوة ثورية عظيمة، ونرى أن ازدهار التعريب يعتمد على أسس مهمة منها:

١ - القرار السياسي الحازم، وقد أصدر مجلس قيادة الثورة قانون «الحفاظ على سلامة اللغةالعربية» رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧ م ونصت المادة الثانية

---

(١) تنظر في كتاب مؤتمر تعريب التعلبم العالي ص ١٩.

على ما يأتي: «على المؤسسات التعليمية في مراحل الدراسة كافة اعتماد اللغة العربية لغة للتعليم، وعليها أن تحرص على سلامتها لفظاً وكتابةً وتنشئة الطلاب على حسن التعبير والتفكير بها وإدراك مزاياها والاعتزاز بها».

٢ - الإيمان بالتعريب، وهي مسألة تخضع للوعي القومي والسياسي وكثيرٌ هم الذين وعوا ذلك وسعوا إلى التعريب وحرصوا على نجاحه، ولكن بعض الفئات لا تزال تتربص بهذه الخطوة المباركة وتتحين الفرص للانقضاض على ما تمّ خلال السنوات الخمس الماضية. وقد يكون هؤلاء أحد العوامل المعوّقة في حركة التعريب، ولكن حرص القيادة السياسية والمخلصين من أبناء الوطن على التعريب ستفوّت على هؤلاء المتربصين الفرص وتقضي على أحلامهم بإعادة العراق إلى ما كان عليه في عهد التخلف والتبعية الفكرية.

٣ - المتابعة الجادة والعمل الدائب لمعرفة كل خطوة جديدة، والاهتمام بمراكز التعريب في الجامعات، ودعم جهود العاملين فيها، وإن أي توقف عن ذلك يؤدي إلى تعطيل العملية أو الرجوع إلى ما كان عليه الحال قبل التعريب. ولن تثمر أية خطوة ما لم تتبعها خطوات، ولن تستقر حال إن لم تكن قواعدها سليمة ثابتة. وحركة التعريب التي مرّت بمراحل مختلفة قبل أن تتحقق واقعاً ملموساً سترسخ حين تجد من يحرص عليها ويمهد لها السبيل. وقد مرّت جميع الأمم والأقطار بمثل ما نمرّ به اليوم واستطاعت بجهود أبنائها المخلصين والمؤمنين بمصيرهم الوطني والقومي أن تفرض لغاتها القومية أو الوطنية على التعليم الجامعي وأن تسير به سيراً حثيثاً نحو النضج والاكتمال. وكانت كثير من الأقطار تعلم بغير لغاتها القومية أو الوطنية حينما كانت تحت الاستعمار أو التبعية الفكرية، واستطاعت بعد سنوات قليلة من العمل المتواصل والإيمان الصادق أن تفرض لغاتها على معاهد العلم والإدارة وشؤون الحياة العامة، وبدأت تلحق بركب الحضارة وتبدع مثلما أبدع غيرها من أمم الأرض التي كان للغاتها سلطان. والعراق وقد تحرر من

الاستعمار السياسي والاقتصادي ومن التبعية الفكرية يسير في طريق الحرية ويفتح سبل الخير ويفرض لغته القومية وإرادته القوية ليظل كريماً أبياً بين الأمم والشعوب، وما حركة التعريب التي بدأها منذ خمس سنوات إلا معلم من معالم التحرر والانعتاق.

٤ ـ عقد الندوات والمؤتمرات العلمية وتدارس حركة التعريب ودفعها إلى الأمام، وتقديم الحلول لما يعترضها من صعاب ومعوقات، وتشجيع الدراسات العلمية الأصيلة، وعرض المصطلحات الجديدة وما ظهر في الدول الأجنبية من دراسات وبحوث، والتنبيه إلى الأصيل منها ليترجم إلى العربية ويكون بين أيدي الدارسين والباحثين. وتكون وزارة التعليم العالي والبحث العلمي مسؤولة عن مثل هذه الندوات والمؤتمرات، وتنفيذ ما ينتهي إليه المؤتمرون من توصيات تنفع في تقدم عملية التعريب. وطبيعة مثل هذه اللقاءات تقتضي المتابعة والتنفيذ لأنها تتصل بحركة علمية مستمرة لا تحتمل التريث والتأجيل والانتظار.

٥ ـ الاهتمام بالكتاب العلمي وطبعه طبعاً متقناً وتقديمه لطلبة الجامعات والدارسين، ويكون الكتاب المقرر مؤلفاً وفق المناهج التي ترسم للجامعات. أما الكتب المترجمة فتكون مساعدة يرجع إليها الطلبة والأساتذة للاستنارة بها والاطلاع على أحدث النظريات والمخترعات العلمية. وينبغي أن يعاد النظر في الكتاب المؤلف كل خمس سنوات ليحذف منه ما ثبت بطلانه ويدخل فيه ما استجد من نظريات ومعارف جديدة. أما الكتاب المترجم فلا يعاد طبعه إلّا إذا كانت الحاجة ماسة إليه وظل محتفظاً بأسسه العلمية وفائدته العملية.

٦ ـ الاهتمام بالبحث العلمي وتشجيع الباحثين ونشر نتاجهم وتشجيع المترجمين وتقديم المساعدة لهم. وقد سارت جامعات القطر سيرة حسنة في هذا الباب وساعدت كثيراً من الباحثين والمترجمين ونشرت نتاج بعضهم، ولكن ذلك كله تعوزه الجدية في كثير من الأحيان والفهم التام لما تؤديه حركة الترجمة والتأليف من نفع للأمة والوطن.

٧ - الاهتمام بالنشرات العلمية وإصدار المجلات باللغة العربية وترجمة الأصيل من البحوث المنشورة في المجلات الأجنبية لتكون في متناول أيدي الباحثين. وقد سهلت الترجمة الآلية نقل العلوم من اللغات المختلفة وحلّ الرموز الكثيرة مما دفع حركة العلم إلى الأمام وجعل الشعوب تتقارب ويرفد بعضها بعضاً بكل جديد.

٨ - العناية باللغات الأجنبية، ويتم ذلك بتدريس مادة علمية واحدة بلغة أجنبية كل سنة؛ لأن تدريس اللغة الأجنبية لا يثمر إذا بقي مرتبطاً بالأسلوب التقليدي في الجامعات. وقد أحسنت وزارة التعليم العالي والبحث العلمي حينما أقرّت ذلك في الأقسام العلميـة وطبقته في مناهجها السنوية.

٩ - تهيئة المعاجم اللغوية والعلمية المتخصصة ووضعها بين أيدي الدارسين والباحثين إذ لا يزال كثير منهم يجهلها أو لا يستطيع أن يحصل عليها على الرغم من كثرتها وتدفقها في السنوات الأخيرة. وينبغي أن تعتمد المعاجم الدقيقة حرصاً على المستوى العلمي وتوحيداً لجهود المؤلفين والمترجمين.

١٠ - توحيد المصطلحات العلمية ومناهـج البحث والترجمـة لئلا يصـدر الدارسون والباحثون والمترجمون عن منابع مختلفة تضيع فيها حركة التعريب وتصبح بعض الكتب والبحوث ألغازاً لا يحلها إلاّ أصحابها من المؤلفين والمترجمين.

تلك بعض الأسس العامة التي تخدم التعريب ولكن تنفيذها لا يتم إلاّ بمؤسسات كبيرة تشرف عليها وتقوم بمتابعتها، وأهم تلك المؤسسات:

١ - مؤسسة التعريب وتكون مستقلة عن الجامعات وترتبط بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي أو بمجلس الوزراء أو برئاسة الجمهورية لتكون قادرة على التخطيط والإشراف على التنفيذ. وتضم هذه المؤسسة كثيراً من الأقسام التي تخدم التعريب تخطيطاً وترجمة وتأليفاً وتنفيذاً، وتصدر

عنها الكتب والمجلات والنشرات العلمية والكتب المنهجية المقررة والمساعدة، وتقوم بترجمة الكتب والبحوث العلمية المنشورة في المجلات الأجنبية مستعينة بأساتذة الجامعات ومن تجد فيهم القدرة على ترجمة العلوم. إنّ إناطة مثل هذه الأعمال بالمؤسسة يؤدي إلى توحيد الجهود والتنسيق ومتابعة التنفيذ ومعرفة ما يعتري عملية التعريب من مشكلات ومصاعب لتوكل دراستها إلى المختصين. وقد أدى توزّع مثل هذه المهام إلى عرقلة التعريب والإبطاء فيه والتداخل في كثير من المسؤوليات العلمية والإدارية.

٢ ـ المجمع العلمي العراقي ودوره في التعريب كبير وقد بدأ مسيرته بالمصطلحات العلمية وتوحيدها ولكنه لا يزال بعيداً عن التعريب بمعناه الذي يسعى إلى تحقيقه القطر العراقي، فهو مثلاً لم يعقد مؤتمرات وندوات لهذا الغرض ولم يساهم في تأليف الكتب العلمية أو ترجمتها كما فعل مجمع اللغة العربية الأردني الذي قاد حركة التعريب في جامعتي عمان وإربد بالأردن وأخذ يضع المصطلحات ويؤلف الكتب العلمية أو يترجمها. وقد أصدر كثيراً منها على الرغم من الزمن القصير الذي مرّ على تأسيسه.

إن المجمع العلمي العراقي ليس لغوياً وإن كان الاهتمام باللغة من مهامه ولكنه مجمع علمي يهتم بكل فروع المعرفة والعلم ويسعى إلى تقدمها والنهوض بها. وقد جاء في المادة الثانية من قانونه رقم (١٦٣) لسنة ١٩٧٨ م أن أول أغراضه «النهوض بالدراسات والبحوث العلمية في العراق لمواكبة التقدم العلمي والأدبي» ومنها: «نشر البحوث وتشجيع الترجمة والتأليف في العلوم والآداب والفنون». وهذه من المهام الكبيرة التي ينبغي أن يضطلع بها المجمع العلمي العراقي ليساهم هو ووزارة التعليم العالي في هذه الحركة القومية المثمرة ذات العطاء الدائم، وهي حركة التعريب في العراق.

٣ ـ الجامعات: وينحصر دورها في تهيئة الأساتذة القادرين على التأليف

والترجمة وتقديم العون العلمي لمؤسسة التعريب والمجمع العلمي العراقي.

تلك نظرة في تعريب التعليم العالي في العراق الذي كان من منجزات ثورة تموز ١٩٦٨ م، وقد تجلى فيها:

١ ـ إن اللغةالعربية كادت تحتضر وتموت في أواخر العهد العثماني ولولا النهضة الحديثة والوعي القومي والشعور الوطني لحلّت مكانها لغة أجنبية مفروضة.

٢ ـ إن التعليم كان قبل العهد الفيصلي باللغة التركية، وقد بدأت دوائر الدولة والمؤسسات والتعليم الابتدائي والثانوي تسفر عن وجهها العربي سنة بعد سنة.

٣ ـ جرت عدة محاولات لتعريب التعليم العالي وكان الوطنيون يأملون أن يتم ذلك في عام ١٩٥٨ م ولكن الاتجاه الذي ساد القطر في تلك الأيام أخّر عملية التعريب.

٤ ـ إن القرار السياسي الذي أصدره مجلس قيادة الثورة كان نقطة البدء في التعريب، ولولا ذلك لظل التعريب بعيداً عن التنفيذ.

٥ ـ إن عملية التعريب خطت خطوات واسعة خلال السنوات الخمس الماضية وكانت أهم ثمراتها:

أ ـ بدء التدريس والمناقشات والامتحانات باللغة العربية في جامعات القطر.

ب ـ عقد مؤتمر التعليم العالي في الوطن العربي ببغداد في شهر آذار سنة ١٩٧٨ م.

جـ ـ البدء بتأليف الكتب العلمية أو ترجمتها، وقد صدر عدد كبير منها في حقول العلم والمعرفة.

ومهما يكن من أمر فإن حركة التعريب في العراق سائرة في طريقها على الرغم من الصعاب والمشكلات التي تعترضها. وإذا كانت الجامعات لا تزال في بداية طريق التعريب فإن الإيمان بلغة القرآن والحرص على هوية

الأمة والوطن كفيلان بدفع هذه العملية إلى الأمام وتجاوز كل ما يعترضها من صعاب أو ما يثيره الحاقدون على الأمة العربية ورسالتها الخالدة. وستصبح العربية لغة العلم في الوطن العربي بعد أن تخطو الأقطار العربية الأخرى مثل خطوة القطر العراقي الذي أعاد إلى اللغة العربية مكانتها في ظل ثورته المباركة المظفرة.

المصـــادر:

١ - تقدم التعليم العالي في العراق - حسن الدجيلي. بغداد ١٩٦٣ م.
٢ - حركة التعريب في العراق - الدكتور أحمد مطلوب. الكويت ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
٣ - خلاصة التشريعات والتعليمات والقرارات والكتب والأوامر الوزارية الصادرة حول تشجيع وتعضيد البحوث والكتب التي تؤلف باللغة العربية أو تترجم إليها. أصدرتها بالآلة الكاتبة سنة ١٩٧٨ م المديرية العامة لمركز التعريب في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ببغداد. وفيه مقدمة للدكتور جميل الملائكة.
٤ - دعوة إلى تعريب العلوم في الجامعات - الدكتور أحمد مطلوب. بيروت ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.
٥ - لغتنا والحياة - الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء). القاهرة ١٩٦٩ م.
٦ - مؤتمر تعريب التعليم العالي في الوطن العربي. بغداد ١٩٨٠ م.
٧ - مذكراتي في العراق - ساطع الحصري. بيروت ج ١ سنة ١٩٦٧ م وج ٢ سنة ١٩٦٨ م.
٨ - النقد الأدبي الحديث في العراق - الدكتور أحمد مطلوب. القاهرة ١٩٦٨ م.



المحتويات